

شارل وعبير الرحمن

جرجی زیدان



دارالہلال

العديد القسام

من روايات تاريخ الإسلام

أبو مسلم النخعي

لجرجي زيدان

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمي
الاسكندرية

ترقبه أول مسايو ٨٤

روايات تاريخ الإسلام
شارل وعبد الرحمن

جرجي زيدان

تقديم ودراسة

د. عبد المنعم تليمة



١٩٨٤

صدر من مؤسسة

دار الهلال

أسما جرجي زيدان

سنة ١٨٩٢

رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

الفلاف بريشة

الفسنان

جمال كامل

رقم الايداع : ٢٦٦١ / ٨٤
الترقيم الدولي: ٤ - ٨٩ - ١١٨ - ٩٧٧

مقدمة

تضع روايات جرجى زيدان بين يدي الدارس طائفة من المشكلات التاريخية والفكرية والفنية . وهي مشكلات تجعل الدرس الادبي والنقدي بالغ الخصوبة وبالغ الصعوبة في آن . ولقد ننتخب ثلاثا من هذه المشكلات ، نراها مقدمة على غيرها ، وصالحة كمدخل الى النظر في أعمال زيدان الروائية وتقويمها : المشكلة الاولى أن زيدان قد ركب ، في أعماله الروائية هذا المركب الصعب ، ذلك أنه قد استمد مادة رواياته من التاريخ ، وعلاقة الفن بالتاريخ مشكلة معقدة شغلت النقاد النظريين وعلماء الجمال منذ أرسطو ولا تزال تشغلهم حتى اليوم . كيف تتبدى هذه المشكلة في عمل زيدان الروائي ؟ هذه واحدة . والمشكلة الثانية أن زيدان كتب أعماله الروائية هذه في بدء النهضة العربية الحديثة ، ولم تكن الآداب العربية قد عرفت فن الرواية ، ولم تكن الآداب الغربية قد عرفت في عصورها الحديثة وبالذات منذ أوائل القرن الثامن عشر . غير أن الآداب العربية - فصيحة وعامية وشعبية قد عرفت فنونا عريقة من القص والحكي في الاخبار والنوادر والقصص والحواديت والسير والملاحم . الخ . كذلك فقد أطلع من يلم باللغات الاجنبية من الكتاب العرب المحدثين على ألوان من الفن الروائي الغربي الذي كان قد تأصل منذ قرنين . أين جهد جرجى زيدان الروائي من هذين الرافدين ، الموروث العربي القصصي ، والفن الروائي الغربي ؟ هذه ثانية . أما المشكلة الثالثة

فمدارها موقع أعمال زيدان الروائي بين البواكير الاولى من الفن الروائي العربى . ولسنا نقصد هنا أن نرد ريادة الفن الروائى الى واحد من الرواد الذين أبدعوا تلك البواكير الاولى ، فلا يمكن أن يرد تأصيل نوع أدبى فى أدب أمة من الأمم الى مبدع واحد من مبدعيها، إنما المراد هنا التمييز بين أولئك الرواد من حيث مصاد المادة الروائية وطرائق الاداء الفنى فى صياغة هذه المادة ، ومحاولة تبين ذلك فى جهد زيدان الروائى ، وبخاصة فى روايته (شارل وعبد الرحمن) التى هى موضوع هذا التناول .

(١)

مادة التاريخ الوثيقة ، ومادة الفن الحقيقية ، فالتاريخ جزئى والفن كلى ، مدار التاريخ ما كان ، ومدار الفن ما كان وما يكون وما سيكون وما يمكن أن يكون ، ولذا قال أرسطو قديما ان الفن أكثر شمولاً وفلسفة من التاريخ . ان (الواقع) يبدو فى واحد من هذين النشاطين بصورة مغايرة للصورة التى يبدو بها فى النشاط الآخر تبدى الوثيقة التاريخية الواقع فى صورته الظاهرية الجزئية المباشرة . بينما يبدو الواقع فى الفن أكثر غنى من حقيقته الواضحة لان الفن لا يقف عند الواقع فى معطياته الخارجية المباشرة ، إنما يتخطى هذه المعطيات الى ادراك جديد لها ، فيبدو الواقع فى صورة جديدة له : صورته الفنية . وهذه الصورة الفنية أكثر كمالاً من (أصلها) لأنها تلم ما بدا مبثرا من عناصره ، وتوضح ما بدا غامضاً من مغزاه . ان الفن وان كان مصدره الواقع ، إلا أنه يتجاوز المائل فى هذا الواقع الى اكمال ما يشوبه من نقص ، وإلى ما يرهص به من

جديد • بهذا يتحرر مفهوم الواقع من (المثول) ومن المباشرة
الواقعة عند حد المرئي والملموس ، فينتظم الشوق الى الاكتمال ،
والحلم بما لم يقع ، واستشراف مستقبل آت •

ولكن قد يكتب التاريخ بطرائق الاداء الفنى وتشكيلاته الجمالية،
وقد يستمد الفن مادته من الوثائق التاريخية • الفصيل هنا طرائق
الاداء ، فهى التى تجعل التاريخ فنا ، وقد تجعل الفن تاريخا • فاذا
كنا بصدد (الرواية التاريخية) ، فلا ريب فى أن السير والتر
سكوت (١٧٧١ - ١٨٣٢) قد صاغ قطعا من التاريخ الانجليزى
صياغة روائية ناجحة ، جعلت من ذلك التاريخ فنا يعتد به مؤرخو
الآداب عامة ومؤرخو الفن الروائى خاصة وتتعامل الرواية التاريخية
مع مادة التاريخ من زوايا متعددة : منها الالتزام بوقائع التاريخ
وأبطال هذه الوقائع التزاما أميناً مع التصرف فى خلق حوادث
وشخص بـ حيث لا يؤثر هذا الخلق على تلك الحقائق الوثائقية
والأبطال التاريخيين • ومنها اتخاذ المادة التاريخية (الوثائقية)
أساسا لخلق (تاريخ) مواز متخيل يخلع عليه الكاتب أسسواقه
ومثله العليا • هذه كلها غايات يسعى كتاب الرواية التاريخية الى
تحقيقها فى أعمالهم • ولكن الغاية الأصعب هى أن يتغيا كاتب
الرواية التاريخية غاية أخلاقية تعليمية مباشرة ومن الملاحظ أن مثل
هذه الغاية تغلب فى فترات النهوض القومى ، لأن هذا النهوض
يطلب احياء لحظات الازدهار فى تاريخ الجماعة ، وما يتصل بهذه
اللحظات من قيم ومثل • الخ • ولا ريب فى أن هذه الغاية التربوية
المباشرة تعد عتبة اضافية تتحدى كاتب الرواية التاريخية • فاذا
قيل أن معالجة المادة التاريخية معالجة فنية هى بذاتها تحد صعب ،

فان صعوبتها تبلغ غايتها اذا اضيف الى هذه المعالجة الفنية غاية اخلاقية تربوية .

ولقد نشط جرجى زيدان فى فجر النهضة العربية الحديثة ، ولم يكن بعيدا عن غاياتها التربوية والاخلاقية العامة ، ولذلك صدر عن تصور للرواية التاريخية يجعل للمادة التاريخية الاهمية والاولوية ويستخلص من هذه المادة مغايزها التوجيهية والتعليمية ، ويتخذ من السرد الروائى وسيلة الى تلك الغايات . وهو نفسه يقرر هذا التصور بوضوح ، وسنرى أن عمله الروائى الذى بين أيدينا يفصح عن هذا التصور فعلا . يقول فى تصديره لاحدى رواياته - (رواية : الحجاج بن يوسف) - انه قد رأى أن نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل لترغيب الناس فى مطالعته والاستزادة منه ، وخصوصا اذا توخى الكاتب جهده أن يكون التاريخ حاكما على الرواية وليست الرواية حاكما على التاريخ . وهذا نهج غير ما اصطنعه بعض الكتاب الغربيين الذين جعلوا غرضهم الفن وانما أتوا بالحقائق التاريخية لالباس الرواية ثوب الحقيقة فجرهم ذلك الى التساهل فى سرد الحوادث التاريخية بما يضل القراء . وأما نحن - الكلام لا يزال لزيدان - فالعمدة فى روايتنا على التاريخ ، وانما نأتى بحوادث الرواية تشويقا للمطالعين فتبقى الحوادث التاريخية على حالها ، وندمج فى مجالها قصة غرامية تشوق المطالع الى استتمام قراءتها ، فيصبح الاعتماد على ما يجيء فى الروايات من حوادث التاريخ ، مثل الاعتماد على أى كتاب من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والاشخاص ، الا ما تقتضيه القصة من التوسع فى الوصف ، مما لا تأثير له على الحقيقة ، بل هو يزيد بياننا ووضوحا ، بما يتخللها من وصف عادات العصر واخلاق أهله

وعاداتهم ، حتى يخيل للقراء أنه عاصر أبطال الرواية وعاشرهم وشهد مجالسهم ومواقبهم واحتفالاتهم شأن المصور المتفنن في تصوير حادثة يشغل ذكرها في التاريخ سطرًا أو سطرين ، فيشتغل هو في تصويرها عاما أو عامين . واضح إذن أن خطة زيدان في أعماله الروائية هي أن يرغب الناس في مطالعة تاريخهم، وما دام الأمر كذلك فلا بد أن تبقى الحوادث التاريخية على حالها ، ويصطنع هو قصة حب تشد القارئ إلى تلك المادة التاريخية . ويمكن أن تتضمن هذه الخطة جورا على الفن لصالح التاريخ ، ويصح هذا الحكم أو لا يصح في ضوء الدرس المتمهل لجهد زيدان الروائي . ولكن قبل ذلك لابد من تناول المشكلة الثانية التي صدرنا بها هذا الحديث ، ومدارها على صلة البواكير الأولى من الرواية العربية - من بينها أعمال جرجي زيدان - بالموروث العربي القديم من ناحية وبالفن الروائي الغربي الحديث من ناحية ثانية .

(٢)

يرد الدارسون نشوء الرواية العربية إلى نشوء طبقات وسطى عربية منذ بدايات هذه النهضة الحديثة ، ويردون التشكيل الجمالي للرواية العربية في فترة نشوئها إلى المزاوجة بين تقاليد القص العربي الموروث - فصيحًا وعاميًا - وأنماط الفن الروائي الغربي . ويكاد بعض هؤلاء الدارسين يرى أن الرواية العربية في تطورها إنما تبتعد عن الموروثات الفنية القومية لتقترب من الأنماط الروائية الغربية . وينكر واقع الرواية العالمية المعاصرة هذا الرأي الأخير ، لأن الفن الروائي - في بيئاته المتقدمة في العالم - يشهد التفاتًا ملموسًا إلى الموروث من السير والملاحم لانضاج تقاليد روائية جديدة

وهنا لابد من الالتفات الى الموروثات العربية في هذه الالوان القصصية ولدى العرب منها ذخيرة هائلة . ولا يقف الامر في تقديرنا عند هذه الموروثات القصصية بل انه ليمتد ليشمل مناهج وطرائق في النص تنتظمها حول تراثية أخرى من أبرزها كتابات المؤرخين والرحالة . الخ . ان التأثير بالانماط الروائية الغربية لاشك فيه ، انما المشكل هو صحة صلة الروائي العربي بالتراث القومي ، فعلى أساس هذه الصلة تنهض الرواية العربية . وهنا - في التراث القومي - نشير الى أمرين :

أولهما : طرائق القص وأساليبه في الموروثات الفصصية من أخبار ونوادر وقصص وحكايات ورسائل ومقامات . الخ . - والموروثات الشعبية الهائلة التي أبدعها الشعب ، ودون بعضها ، ولا يزال بعضها يتناقل شفويا ، من قصص شعبي وحواديت وسير وملاحم . الخ .

وثانيهما : طرائق القص وأساليبه في كتابات المؤرخين والرحالة وهنا باب واسع لم يحظ بالدرس الدقيق بعد . فلقد شهدت الحضارة العربية علما تاريخيا أصيلا هو (علم الرجال) - أي سيرهم - وقد اتسع هذا العلم اتساعا عظيما حتى صار مصدرا أساسيا من مصادر المعرفة والعلم في التاريخ العربي ، وهو في تطوره يفصح - بصورة ما - عن ايمان بدور الفرد وفعاليته في التاريخ . أما التأليف التاريخي الشامل عند العرب فقد سطع فيه محتويان : المحتوي الثقافي ، اذ لم يعد الحدث التاريخي مجردا مرتبطا بالزمان وحده، وانما أصبح مرتبطا بالزمان والمكان منداخلين متجادلين . ومعنى دخول المكان في التأليف التاريخي هو دخول البيئة بكل عواملها الطبيعية وأحوالها المعيشية وأوضاعها السياسية

والفكرية والعلمية والفنية . ومعنى كل هذا أن التأليف التاريخي
امتزج بقوة بتقويم البلدان والجغرافية والمشاهدات العيانية . لهذا
برز في التأليف التاريخي الجغرافيون والرحالة . والمحتسوى
الاجتماعى اذ ظهر - فى العصور الوسيطة الاسلامية - مؤرخون
اتخذوا وجهة جديدة فى التأليف التاريخي هي الوجهة الاجتماعية
ونعنى بالوجهة الاجتماعية أن المؤرخ ينظر الى التاريخ باعتباره ناتج
فعل الجماعة البشرية ويرد الحدث التاريخي الى عوامل يفسرها
واقع الجماعة (عمران ، خراب ، حضارة ، بداعة ، غنى ، فقر . .)
كما يساعد على تفسيرها طبيعة النشاط الاقتصادى للجماعة (صيد ،
رعى ، زراعة ، تجارة . .) ، وكذلك يساعد على تفسيرها علاقات
هذه الجماعة أو نظامها السياسى (حكم قهرى ، حكم عادل . .)
وقد بلغ هذا التأليف التاريخي ذو المحتوى الاجتماعى عند مؤرخي
العرب درجة رفيعة وصلت الى غايتها بصياغة (فلسفة للتاريخ)
تنهض على العوامل الاجتماعية الفعالة فى حركة التاريخ البشرى .
ان كل هذا يضع بين يدي الروائي العربي تصورات جماعته
للزمن وتطور المجتمع وفعالية الانسان ، كما يضع بين يديه نهج
جماعته فى الحكى والقص وما يتبعهما من أبنية وتشكيلات جمالية
وتقاليد فنية . وعلى الدرس النقدي أن يكشف فى الاعمال الروائية
العربية عن كل هذه التصورات والابنية والتشكيلات والتقاليد .
وعلىنا نحن - فى هذا المقام - أن نرى عمل جرجى زيدان (شارل
وعبد الرحمن) فى هذه الاضواء .

(٣)

يلتزم جرجى زيدان فى هذه الرواية (شارل وعبد الرحمن)
خطته التى قررهما فيما سلف ونص على أنها خطة اساسية لكل اعماله

الروائية التاريخية • لقد نص على أنه في كل عمل من تلك الاعمال يخلق موازاة بين مسارين ، مسار الوقائع التاريخية كما وقعت في التاريخ فعلا . ومسار قصة حب متخيلة تتداخل وتلك الوقائع التاريخية • ويمكن للدارس أن يلمح بناء الرواية من متابعة تلك الموازاة :

(أ) يقيم الروائي بناء الوقائع التاريخية على حوادث سنتين تمثلان لحظة من اللحظات الفريدة ليس في التاريخ الاسلامي فحسب ، بل ربما في التاريخ البشرى عامة • لقد أعد العرب المسلمون والفرنجة المسيحيون عدتهم بين سنتي ٧٣٠ ، ٧٣٢ م لواحدة من المعارك الفاصلة في التاريخ وهي معركة تور أو بواتيه (بلاط الشهداء) • ولقد هزم العرب في هذه الموقعة ، وتوقفوا عن التقدم في أوروبا ، فكان هذا حدثا من الاحداث الكبرى في التاريخ •

يمهد زيدان لهاتين السنتين الخطيرتين بتمهيد سريع موفق يعرض فيه للسنوات العشرين السابقة ، أي منذ بداية فتح العرب للاندلس ، فيذكر عبور طارق بن زياد سنة ٧١١ الى اسبانيا وهزيمة فردريك آخر ملوك القوط الغربيين • ويذكر عبور موسى بن نصير سنة ٧١٢ وانضمامه الى وليه طارق بن زياد ليكمل الفتح ، غير أن المؤامرات والدسائس تودي بحياة الفاتحين العظمين ، بل وتودي بحياة عبد العزيز ولد موسى بن نصير الذي ولاء أبوه علي البلاد المفتوحة فقتل بايعاز من الخليفة سليمان بن عبد الملك • وكل ذلك لا يستغرق من عمل زيدان سوى صفحات قليلة ينتقل منها الى خطته في بناء عمله ، فيدير هذا العمل كله على اعداد الفسريقين للمواجهة الكبرى : أما شأن الاوربيين المسيحيين وقائدهم شارل مارتل (٦٨٨ - ٧٤١ م) فيسير ، ذلك أن هذا الشأن لم يكن فعلا

وانما كان رد فعل لتقدم القوة التاريخية الجديدة ، وهي قوة العرب
والمسلمين الفاتحين . كان رد الفعل يسيرا وان كلل بهذا الانتصار
التاريخي المسمى . فعندما بدت جسامة التقدم العربي تقدم أمراء
الافرنج الى قارله (شارل مارتل) رئيس البلاط الميروفنجي وصدروه
قائدا ، فوجد كافة ممالكهم تحت امرته وتقدم بجندة وفرسانه
لينهض بدور دونه التاريخ الاوربي ، أما عبد الرحمن الغافقي فكان
صوت القوة التاريخية الفتية وأداتها القائدة . انه ليس بطل هذا
العمل الروائي فقط وانما هو بطل تلك اللحظات التاريخية الفاصلة،
وان انتهى أمره بالقتل في تلك المعركة الكبرى . يقوم العمل
الروائي كله - من جهة المادة التاريخية - على السنتين اللتين تولى
فيهما عبد الرحمن الغافقي الامر : تولى الامر قبله - بعد طارق
ابن زياد وموسى بن نصير وولده عبد العزيز - أمراء قادوا جندهم
الى فتوحات جديدة لكنها ضاعت لسوء خطط هؤلاء في ادارة تلك
الفتوحات وسياسة أمورها . واستفاد عبد الرحمن من فشل أسلافه
الاقربين ، ووضع خطة طامحة للفتح ، ووضع سياسة راشدة لادارة
الامور ، كان من خطته أن يواصل الفتح في أوربا (ليعم الاسلام
كل العالم) فيبدأ - بعد اسبانيا (الاندلس) - بفرنسا ويثني
بألمانيا فالمملكة الرومانية حتى ينتهي الى الشام مقر الخلافة الاموية
وكان من سياسته الراشدة أن يتعرف على البلاد بنفسه ليلم بأحوالها
والطرائق الصالحة لادارتها ، وكان حازما في تولية الامراء على
الاقاليم وفي محاسبتهم ومطالبتهم بالعدل والرفق بأهل الدمة .
واستنفر طاقات الجهاد في العرب والمسلمين فالتف حوله الجند من
كافة الامصار ، فاتخذ سبيلا الى تنظيمهم وتنصيب القادة الصالحين
عليهم ، وتوجيه الجميع الى وجهة الجهاد ليصير البحر المتوسط
بحرا اسلاميا خالصا . وعندما تنتهي الرواية بتلك المواجهة الفاصلة

يظل القاريء مشدودا الى بطولة عبد الرحمن ، على الرغم من انتهاء الصراع لصالح عدوه *

(ب) وقيم الروائي بناء قصة الحب على أساس تلك الوقائع التاريخية : فلقد وقع هانيء ، وهو قائد فرسان عبد الرحمن وساعده الايمن ، على ضالته فى فتاة (مريم) من سببايا احدى المعارك ، لم ير الراؤون أجمل منها ، وكانت تصحبها امرأة (سائلة) فى نحو الاربعين من عمرها ، والهيبة والجلال ظاهران عليهما . كانت الام وابنتها سبيتين من الافرنج ، ولكنهما تتحدثان العربية وتدركان شئون الصراع ، وتنحازان الى الصف العربى . وأحب هانيء فتاته التى بادلتها حبا بحب . ولكن الامور لا تستقيم للعاشقين دائما . فهناك قائد آخر فى جيش عبد الرحمن وهو بسطام البربرى ، وكان هو - فى وقعة بوردو - الذى هجم بنفسه على المنزل الذى كانت فيه سائلة ومريم وقبض عليهما وارسلهما مع بعض رجاله الى المعسكر فى جملة الغنائم على أمل أنه - متى عرضت السببايا للبيع - سيطلب الفتاة لنفسه وهو لا يتوقع أن يكون له مزاحم أو معارض فى ذلك . لكن العقبة الكبرى فى طريق هذا الحب انما تأتي من جهة أخرى . فقد مال عبد الرحمن الى مريم ، وقالت له أمها ان ابنتها موهوبة لرجل عظيم (يلقب بقاتح بلاد الافرنج بالسيف ، ومؤيد الاسلام فيه بالحق والعدل) ولما ربطت الام بين هذا الزواج واجتياز نهر لوار ، ثار فى نفس عبد الرحمن أمل الانتصار العسكرى والفوز بمريم فى وقت معا . لكن القائد الكبير كان يحب أركان حربه (هانيء) فأبدى تفهما وسعة صدر . لكن يبرز دور (ميمونة) دسيسة العدو فى صفوف العرب . لقد عملت على افساد الامر بين القائدين ليقينها أن الانتصار العربى انما يتم بصحة العلاقة بينهما . والرواية متخمة بوسائل هذه الجاسوسة

لايتقاع الفتنة بين الرجلين • لكن الامر ينتهى نهايته السعيدة التى تجمع بين هانىء ومريم بعد مفاجأة تكشف أن (مريم) من أب هو أمير عربى كبير ، وأم هى ملكة سابقة للأسسبان ، فهى عريقة فى الحسب والنسب •

ولا ريب فى أن نصيب الرواية من التوفيق الفنى انما يتوقف هنا الى حد كبير على قدرة الكاتب على أن يتداخل البناءان السابقان - الوقائع التاريخية وقصة الحب - فى بناء فنى واحد • وهذا حديث الفقرة التالية •

(٤)

يلتحم البناءان ، التاريخى والعاطفى ، فى بناء روائى واحد عندما يتبدى أبطال الوقائع التاريخية هم بذاتهم أبطال القصة العاطفية: ان سالمة هى (أجيلا) زوجة رودريك ملك الاسسبان الذى قتله العرب فى موقعة فحص شريش • وفى ظل موسى بن نصير عاشت أجيلا - وقد سميت أم عاصم - فى هناء ورغد • فلما أخذ موسى الى الشام استخلف على الاندلس ابنه عبد العزيز بن موسى ، فرأى عبد العزيز أم عاصم فأحبها وأحبته ، وتزوجها على أن تبقى على النصرانية ، ولكن الحساد وشوا بعبد العزيز لدى الخليفة فى دمشق ، فلم يستقدمه اليه كما فعل بأبيه ، وانما دس عليه من قتله حيث هو • وقد ولدت أم عاصم من زوجها عبد العزيز هذه الفتاة مريم • وقبل مقتله ترك وصية تخص ابنته هذه ، يطلب الى زوجته فيها : (فاذا رأيت قائدا عربيا نهض للفتح ، وقد أدرك العوامل المساعدة على ذلك ، فان هذه الفتاة تكون زوجة له أو ابنة كما يشاء) ، وفى هذا القول الاخير حيلة روائية لحل التناقض بين القائدين عبد الرحمن

وهائىء ، وبهذا يتطابق البناءان ، ولهذا التطابق شواهد الجمة فى كل الانتقالات الاساسية فى الرواية .

ويخل بتماسك هذا البناء النزوع التعليمى الغلاب . فالكاتب لا يفلت مناسبة دون أن يبسط ما يتناوله بسطا تفصيليا ينسب السياق الروائى الاصلى ويخرج عليه . فالعشاق - فى حديثه عن الحب « ثلاثة : عاشق لا يقنع بغير الحب المتبادل الذى يملأ القلبين ، وعاشق يقنعه أن يقدم لمعشوقته باقة من الازهار أو عقدا من الجواهر ويكفيه منها قبول هديته ولا مطمع له فيما وراء ذلك ، وذنوب العشاق وهمه أن يخدم معشوقته خدمة تروقها . » وقد يأتى هذا البسط عاما دارجا (. . .) والحب لا يكون صحيحا الا اذا كان بين اثنين ليس لهما ثالث) . بل قد يتوهم الكاتب ان هذا العام الدارج يمكن أن يكون حكمة صالحة ، وشواهد هذا ليست قليلة .

ويلحق بهذا ثبات النظرة الى الكليات الاساسية فى الحياة البشرية ، كالتاريخ والحب والخير والشر والقوة والضعف . . الخ وينسحب هذا الثبات على الانسان فنرى الخير خيرا فى كل مواقفه ونرى الشرير هكذا فى كل حالاته ، فان هذا الثبات يجعل الحركة وفاعلا مفارقين للزمان والمكان ، ويجعل الزمان والمكان غير خاضعين لنواميس التغير والتطور .

ولكن الذى لاشك فيه أن قارئ هذه الرواية يقع على اتصالها اتصالا طيبا بتلك الموروثات التى اشرنا اليها ، وبذلك الفن الروائى الغربى الحديث ، مما يجعل جهد جرجى زيدان الروائى تهيئدا ضروريا للرواية العربية الحديثة .

تقديم : عبد المنعم تليمة

شارل وعبد الرحمن

رواية تاريخية تشرح فتوح العرب في بلاد
فرنسا وما كان من تكاتف الافرنج بقيادة
شارل مارتل ، وأسباب فشل العرب في أوروبا

تأليف

عرجى زيدان

دار الهلال

ابطال الرواية

- * عبد الرحمن : قائد الجيوش الاسلامية
- * هانىء : قائد الفرسان
- * شارل (قارله) : قائد جيوش الافرنج وحاكم أوستراسيا
- * بسطام : قائد البربر
- * مريم : حبيبة هانىء وابنة عبد العزيز بن موسى
- * سالة (اجيلا) : والدة مريم ، زوجة رودريك ملك الاسبان
- * لمباجة : بنت الدوق أود وزوجة القائد البربرى
- * أود : حاكم اكتانيا ووالد لمباجة

مراجع هذه الرواية

هذه المراجع هي التى اعتمد عليها المؤلف فى تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

- | | |
|--------------|------------------------------|
| * ابن الاثير | * مختصر الدول |
| * جبن | * فيسفوروس |
| * ابو الفداء | * نفع الطيب |
| * رومى | * نهاية الارب فى قبائل العرب |
| * رينو | * رينو ورومى |
| * دوزى | * البيان والتبيين للجاحظ |
| * المقرئ | |

فتوح العرب في بلاد الافرنج

فتح المسلمون اسبانيا سنة ٩٢ هـ (٨١١ م) بقيادة طارق ابن زياد البربري ، كما يئنا ذلك في رواية « فتح الأندلس » . وكان طارق من موالى موسى بن نصير عامل بنى أمية على افريقية ، أى من أتباعه ، وموسى يومئذ شيخ قد ناهز الثمانين من عمره . فلما فتحت الأندلس أصبحت من توابع تلك الولاية أو فرعا من فروعها . وعامل افريقية يقيم في القيروان ، وهو الذى يولّى عمال الأندلس . وما زال ذلك شأن الأندلس حتى استقلت على عهد الدولة الأموية الأندلسية بعد ظهور العباسيين في المشرق فلما تهيأت أسباب الفتح لموسى وهو في افريقية ، استشار الخليفة في ذلك .. فوافقه ، وحذره ، فلم يشأ موسى أن يفرط في جند العرب وهم يومئذ قليلون بالنسبة الى أهل البلاد الأصليين في معظم البلاد التى فتحوها ، وخصوصا في افريقية ، فأنفذ في تلك المهمة حملة أكثرها من البربر : سكان افريقية الأصليين ، وقائدهم مولاة طارق . فلما حدثت الواقعة بين طارق ورودريك في فحص شريش وقتل رودريك سنة ٩٢ هـ ، أصبح فتح الأندلس أمرا مقضيا . ولم تمض سنة حتى فتحت قرطبة

رمالقة وطيطة وغيرها من مدن الأندلس العظمى وتأيدت
شوكة المسلمين هناك ..

فلما بلغ خبر ذلك النصر السريع الى موسى تمنى أن تكون
له يد فيه ، فكتب الى طارق أن يتوقف ريثما يأتيه هو . وجند
جندا آخر من العرب والبربر وقدم الى اسبانيا من جهة أخرى ،
ففتح مريدة وسرقوسة وغيرها . ولما رأى سهولة الفتح عليه
أوغل في اسبانيا حتى تجاوز جبال البيرينه الى فرنسا فغزا بلادا
منها الى نربونة وقد عزم على مواصلة الفتح في بلاد أوروبا حتى
يعود الى الشام من طريق القسطنطينية (١) فيتم له فتح العالم
المعمور يومئذ ، ولم يكن باقيا منه الى ذلك الحين غير أوروبا
وكانت في غاية الاضطراب والانشطام ..

وفي أثناء تلك الحروب شب خلاف بين موسى وطارق ،
واستفحل أمره فاضطر الخليفة في دمشق الى استدعائهما اليه
للنظر في أمرهما فشحضا الى الشام ، وولّى موسى على اسبانيا
ابنة عبد العزيز فجعل عاصمته اشبيلية .. ثم أتى هو الى دمشق
ومعه من الغنائم والسبايا ما لا يحصى ، وجاء طارق أيضا
(سنة ٩٤ هـ) . وتحاكم الاثنان الى الخليفة الوليد . وفي أثناء
المحاكمة توفي الوليد فخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك سنة
٩٦ هـ . وكانت بينه وبين موسى ضغائن ، فشدّد النكير عليه
وعلى أولاده ، فأوعز الى بعض الأمراء في الأندلس أن يقتلوا

(١) المرقى - الجزء الاول

عبد العزيز فقتلوه وحملوا رأسه محنطاً الى دمشق . وكان موسى في السجن ، فاستقدمه سليمان وأراه رأس ابنه وسأله : هل يعرفه ، فدعا موسى على قاتله وصدمه ذلك المنظر .. فمات بعد قليل . ولا ندرى ماذا انتهى اليه أمر طارق ..

ذهب موسى وطارق ، ولم يذهب من فكر العرب فتح أوربا ، فكانوا يترقبون الفرص ويحول دون تحقيق هدفهم ما نشب من الخصام بين قبائلهم . على انهم عادوا الى مشروع موسى من طريق آخر ، فأنفذ الخليفة سليمان سنة ٩٨ هـ ، حملة كبيرة عن طريق القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك فحاصرها . وطال حصارها حتى توفي سليمان ، وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ ، فسحب الجند وقد امتنع عليهم الفتح من ذلك الطريق .. فعادوا الى السعى اليه بطريق الأندلس وتوالى على الأندلس عدة أمراء فتحوا مدناً كثيرة من جنوبى فرنسا ، لم تثبت أقدامهم الا فى قليل منها . ثم أفضت الامارة الى عبد الرحمن الغافقى سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) وكان رجلاً حازماً تقياً محترماً غيوراً على الاسلام والمسلمين ، فأخذ على عاتقه استئناف العمل لفتح أوربا عن طريق غاليا (فرنسا) فألمانيا فالمملكة الرومانية الى الشام .. وكانت عاصمة الأندلس يومئذ قد انتقلت الى قرطبة ، فأخذ عبد الرحمن فى اعداد الجند للخروج على بلاد الافرنج ، وكانوا يسمونها يومئذ الأرض الكبرى . وكان عبد الرحمن حذراً ، فخشى أن يخفق فى مهمته كما أخفق

أسلافه ، وكان قد عرف علة اخفاقهم فعمد الى تلافيها .. فطاف
 بأسبانيا بنفسه ، وتعهد حكامها ، فعزل الضعفاء وأهل المطامع
 من أمرائها وأبدلهم برجال ذوى دراية وحلم ، ليحسنوا سياسة
 الناس من أهل الذمة ، وأنصف هؤلاء فردّ اليهم ما كان قد
 اغتصبه أسلافه من كنائسهم وأملاكهم (١) ، وأعادهم الى ما كانوا
 عليه فى زمن موسى بن نصير لعله انه لا يفوز فى مهمته الا اذا
 أحسن سياسة الرعية وعاملهم بالحق والرفق ، والا فانهم يكونون
 عوناً عليه . وكان عبد الرحمن وهو فى ذلك الطواف يخطب
 المسلمين فى المساجد ، ويحرضهم على الجهاد فى سبيل الله لفتح
 غالبا وما وراءها حتى يعم الاسلام كل العالم (٢)



وكان لكلامه تأثير عظيم فى المسلمين العرب وغيرهم ، فتقاطروا
 من افريقية ومصر والشام والحجاز واليمن ، وفيهم العرب
 والبربر والمولدون من المصريين والسوريين على اختلاف القبائل
 والشعوب ، وقد تدافعوا الى الجهاد فى سبيل الدين اجابة لدعوة
 عبد الرحمن ، وهم انما وثقوا به لما اشتهر من حزمه وكرم أخلاقه
 وعدله وصدق اسلامه ، وتآلفوا حوله فرقا باعتبار قبائلهم
 وأجناسهم وهو أميرهم الأكبر

(١) رينو - عن ايزيدور الباجى

(٢) رومى - الجزء الثالث

- ٢ -

فتح بوردو

وكانت فرنسا في ذلك الحين تسمى بلاد الغال أو غاليا ، وكانت الدولة الرومانية قد تقلص ظلها عنها وتولتها عائلة من قبائل الجرمان يسميها المؤرخون ميروفنجيان ، أول ملوكها كلوفس Clovis حكمها سنة ٤٨١ م . وتتابع الحكم في أولاده الى أوائل القرن الثامن ، وقد ضعف أمرهم وانقسمت مملكتهم وأفضى النفوذ الى رجال دولتهم شأن كل الدول في دور تدهورها . وكان وزير الملك في ذلك الحين رجلا من الافرنج اسمه شارل ، وكانت غاليا تنقسم الى مقاطعات : كانوا يسمون الجنوبية منها سبتمانيا وعاصمتها نربونة ، وكانت قد دخلت في حوزة المسلمين . يليها من الشمال اkitانيا وعاصمتها طولوزة ، وهي مقاطعة كبيرة حاكمها أمير افرنجي اسمه أود وحدودها من الشمال نهر اللوار ، ومن الشرق نهر الرون ، ومن الجنوب جبال البرينة ، ومن الغرب الاوقيانوس . ويلى اkitانيا من الشمال مقاطعة نوستريا ووراءها اوستراسيا ، وحاكمها شارل المذكور ، فضلا عن أقسام أخرى . وكان كل دوق أو حاكم يريد الاستئثار بالسلطة العامة لنفسه . وكان عبد الرحمن قد أدرك اختلال أمورهم أو جاءه البشير بذلك ، فعزم على فتح بلادهم فأمر عبد الرحمن بالرحيل للجهاد، وقد بلغه — وهو في الطريق

— ان قائدا من قادة المسلمين على الحدود الشرقية في جبال البرينة يخالف ذلك الرأي . وكان الأمير المذكور قائدا بربريا يسمى المنيدر (١) ، وكان شجاعا باسلا ، غير انه كان يأبى الاتحاد مع العرب ، وينظر الى أمرائهم نظرة الحسد ، مثله في ذلك مثل أكثر قواد البربر . وكان المنيدر قد عقد عهدا مع أود دوق اkitania ، فزوَّجه أود ابنة له جميلة اسمها لمباجة (٢) . فلما علم عبد الرحمن بتلك المعاهدة أوجس خيفة من المنيدر ، فبدأ به فبغته في امارته وقتله واستولى على أمواله ونسائه ، وأمر بارسال لمباجة الى الخليفة في الشام ..

فلما اطمأن عبد الرحمن من ناحية المنيدر ، وأمن على الأندلس ، توجه برجاله وقواده الى بلاد الافرنج فاخترقها شمالا ، وجنדה يفتحون البلاد ويجمعون الغنائم وليس من يصدhem.. وقد استولى الرعب على الافرنج وخافوا على بلادهم ، و «أود» لا يقوى عليهم ، حتى وصلوا الى مدينة بوردو الشهيرة اليوم بخمورها ففتحوها بالسيف ، وقبضوا على الكونت حاكمها وهم يحسبونه «أود» نفسه .. فقطعوا رأسه ليرسلوه الى الخليفة في الشام على ما جرت عليه العادة في أيامهم وبوردو كان اسمها يومئذ بوردغاليا ، وهي واقعة عند نهر غارون على ضفته اليسرى .. وكانت من المدن الحصينة ، يحيط

(١) سماه ايزيدور Nuruza وظنه رومي المؤرخ « ابو نسعة » وهو عثمان اللخمى . وعندنا انها تحريف المنيدر لاناافريفي ، واما ابونسعة فانه لخمى أى من العرب (٢) دينو

بها سور مربع الشكل عليه الأبراج العالية . وكان الرومانيون يعدونها من أكثر مدن غاليا علما وأدبا ، وفيها « امفيتياتر » روماني عظيم كانوا يسمونه « امفيتياتر غاليس » وكنيسة كبرى اسمها كنيسة الصليب ، ولا تزال آثار هذين البناءين باقية إلى اليوم ..

فلما جاء المسلمون خيموا في ظاهرها ، ثم فتحوها عنوة وأمعنوا فيها نهباً وسلباً .. فلما فرغوا من القتال عادوا بالغنائم والأسرى والسبايا إلى ساحة كبيرة أمام المعسكر ، فأمر عبد الرحمن أميرا من أمرائه اسمه هانيء ، كان قائدا لفرقة الفرسان — وهي أهم فرق الجند عندهم — لأن مهارة العرب في الفروسية كانت من جملة ما ساعدهم على الفتح وخصوصا في بلاد الأفرنج وكان هانيء شابا في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، اشتهر في معسكر عبد الرحمن بالبسالة وشدة البطش .. وقد شب على ظهور الخيل ، وكان إذا ركب لا يبالي من يلقى ولو كانوا مئات . وكان عبد الرحمن يحبه حبا شديدا ، ويقدمه على سائر القواد على حداثة سنه ، ومع أنه ليس من قبيلته .. لأن عبد الرحمن من قبيلة بني غافق وهي من القبائل اليمنية (١) وهانيء من قيس وهي من قبائل الحجاز .. وكان التنافر متمكنا يومئذ بين اليمنية والقيسية ، فلم يبال عبد الرحمن بذلك . وكان هانيء من الجهة الأخرى يحب عبد الرحمن ويحترمه احتراما

(١) نهاية الأرب في قبائل العرب

شديدا لكرم أخلاقه وسعة صدره ، وكانا قد تحالفا سرا على الاتحاد الوثيق في أثناء هذه الحرب حتى يفرغا منها ، لعلمهما أن الذين حاولوا فتح أوربا قبلهما انما كان سبب فشلهم الانقسام .. فكان عبد الرحمن - لثقته بهانىء - يعهد اليه بكل ما يحتاج الى الثقة وحسن الظن ، ومن هذا القبيل اعتماده عليه بعد فتح بوردو في تقسيم الغنائم وتدير أمر الأسرى وكانوا يومئذ في أوائل الخريف سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) .

وضواحي بوردو مكسوة بالكروم وقد نضجت أعناقها ، وكان هانىء قد أبلى في ذلك الفتح بلاء حسنا حتى بهر الناس . ولم يتحول عن جواده طول ذلك اليوم ، وهو يجول مقبلا مدبرا .. يحرض رجاله ويستحث القواد على الثبات والصبر ، ولم يكن بين أمراء ذلك الجند من لا يجب هائلا ويعجب ببسالته واقدامه الا من حسده لتقريبه من الأمير الكبير مع صغر سنه ، لكن حساده لم يجدوا سبيلا الى أذاه لشدة محبة عبد الرحمن له .

وكان هانىء طويل القامة عريض الصدر ، اذا مشى عرفه الناس لطوله وعرض كتفيه ، واذا أقبل اليك توسمت مناقبه مصورة في محياه ، فقد كان على غضاضة شبابه واضح الملامح بارز الحاجبين والوجنتين ، حاد العينين ، صغير الأنف والفم ، بارز الذقن ، خفيف العارضين ، أسود الشعر ، لا ينفك وجهه باسماء مع وقار . وركب في ذلك اليوم على جواد أدهم ، لا يحب الركوب على سواه لخفة حركته وجمال مشيته وصبره في ساحة

الوغي ، وقد توسم فيه الخير لأنه لم يركبه في قتال الا عاد منصورا . ولم يكن في معسكر عبد الرحمن من لا يعرف تعلق هانيء بجواده حتى توهموا انه شغل به عن ملاذ الدنيا ، والحقيقة انه كان يهتم اهتماما بالغا بمراعاة ذلك الجواد واتقان عدته ، حتى ألبسه لجاما مذهبا وسلسلة وركابين من فضة ، وعلق على جبهته لؤلؤة كبيرة عثر عليها في بعض غزواته في غاليا .. فصاغها في شكل نجمة وعلقها هناك . وكان الجواد شديد التعلق بصاحبه اذا ناداه أتااه صاغرا ، واذا استحثه في ساحة الوغي أسرع حتى تظنه طائرا .. فاذا استوقفه أذعن له ووقف بغتة

- ٣ -

الغنائم والسبايا

فأقبل هانيء في أصيل ذلك اليوم على جواده كأنه جبل يسعى ، وقد تعمم بعمامة حمراء وتزمل بعباءة حمراء ، وتقلد حساما وقد نقش اسمه على نصاله ورصع قبضته بالحجارة الكريمة ، وأمر بعض رجاله أن يفرزوا الغنائم ، كل صنف منها على حدة : فجعلوا الأسرى في جانب ، والسبايا من النساء والأطفال في جانب ، والغنائم من الأسلحة والآنية والأموال والمجوهرات في جانب . واستدعى هانيء أمراء الجند ، وهم جماعة كبيرة وفيهم البربر من أهل افريقية . وهؤلاء كثيرون ،

لأن العرب كانوا يعتمدون عليهم في حروبهم في الأندلس وفرنسا وكان هؤلاء أهل بطش وشدة ولكنهم لم يكونوا على قلب واحد في نصره الاسلام ، لما كان من امتهان العرب يومئذ لغير العرب ولو كانوا مسلمين (١) . فكان البربر يصحبون العرب في حروبهم رغبة في الغنيمة أكثر من رغبتهم في نصره الاسلام . على أن بعض قبائلهم كانوا يرافقون العرب في الجهاد ، وما هم من الاسلام على شيء ، أو ربما تظاهروا به وهم يهود أو وثنيون . ويقال نحو ذلك في سائر فرق الجند غير العرب ، فقد كان في جملة رجال هذه الحملة أناس من الأسرى أو العبيد اشتراهم العرب وربوهم في حجر الاسلام ، وهم في الأصل من الصقالبة (السلاف) أو من الافرنج أو الروم أو غيرهم (٢)

فلما اجتمع القواد على خيولهم بين يدي هانيء ، أمر بالغنائم من الآنية والأموال فجيء بها ، فأمر بالخمس — وهو حق بيت المال — فنحّوه جانبا ، ووزع ما بقى على الأمراء كل بنسبة عدد رجاله . وكان اذا رأى اختلافا بينهم على قسمة ، بذل من نصيبه وأنصبة رجاله في سبيل التوفيق ..

وبعد الفراغ من قسمة الغنائم تحولوا الى جهة الأسرى وكانوا عديدين ، وقد شدوا بعضهم الى بعض بالحبال أو السلاسل وساقوهم سوق الأغنام ، وجاءوا بهم حتى أوقفوهم بين يدي هانيء ، فالتفت هانيء الى القواد وقال لهم : « ان هؤلاء الأسرى

(١) تاريخ التمدن الاسلامي — الجزء الثاني (٢) دوى — الجزء الثالث

من جملة الغنائم ولا يمكن اقتسامهم فاعرضوهم للبيع .. أين التجار ؟ » . ولم يتم كلامه حتى جاء جماعة من يهود القيروان وقرطبة وغيرهما من مدن الاسلام ، وكانوا قد صحبوا الحملة للتكسب من أمثال هذه الصفقات .. واليهود لا تفوتهم هذه الفرص . فلما حضروا تقدم واحد منهم وعلى رأسه عمامة سوداء واسعة ، ولحية مسترسلة على صدره وأنفه أعقف كبير وعليه قباء واسع ، ووراءه أحمال من الدراهم والدنانير . فقال له هانىء : « بكم تشتري هؤلاء الأسرى ، يا هرون ؟ »
قال : « بالذى يأمر به مولاي .. »

فقال هانىء : « لولا عزمنا على السفر الى الحرب ما بعناهم ، بل كنا نستخدمهم في منازلنا أو نتوقع الفداء من أهلهم ، فلعل بينهم من أولاد الأغنياء من يفتديه أهله بالأموال الطائلة ، ولكننا على أهبة المسير للحرب ولا وقت لدينا فاشتر » . قال هانىء ذلك فى بساطة وأنفة ، ولكن هرون تمسك بقوله وصمم على الاحتيال للشراء بأقل الأثمان ، فقال : « صدق مولاي ، ولكن ابتاع هذا القدر من الناس خطر علينا اذ لا ندرى كيف تنقلهم الى اسبانيا أو الى افريقية أو الى الشام حيث يعرضون للبيع وفى ذلك من المشقة والنفقة ما فيه .. »

فضجر هانىء من هذه المطاولة ، وهو يود أن يفرغ من هذه الصفقة لأمر يهمه فى الصفقة التالية : صفقة السبايا .. فقال : « اشتر الأسير بدينار ، الكبير منهم كالصغير ، على أن تكون

أسلابهم لنا غير ما يكسو عوراتهم »
 فضحك هرون وهو يمشط لجيته ثم يقبضها بيده ويرسلها
 على صدره ويتظاهر بأنه استكثر المبلغ وقال : « ألا يكفي أن
 أدفع أثمان هؤلاء وهم مئات ثم تطالبني بأسلابهم وما عليهم منها
 الا الثياب » ..

فقال هانيء : « قد بعناك فادفع المال الى هذا الكاتب وهو
 يحصى العدد ويقبض الثمن » . قال ذلك وأشار الى كاتبه وساق
 فرسه الى جانب آخر من تلك الساحة حيث كانت السبايا وفيهم
 النساء والأطفال فتبعه هرون وهو يقول : « لا تبع السبايا
 لسواي » فاعترضه تاجر آخر شهد صفقة الأسرى وصاح فيه :
 « قد اشتريت الأسرى وحدك ، فدع السبايا لنا » فأجابه
 ذاك جوابا جافا ، فانتصر بعض الوقوف من اليهود لهرون والبعض
 الآخر لرفيقه وعلت الضوضاء ، فسمع هانيء ضوضاءهم فصاح
 فيهم قائلا : « لا تغضبوا .. انا نقسم الصفقة بينكم على السواء »
 فلما وصلوا الى موقف السبايا ساق هانيء جواده الى آخر
 موقفهم ، وكانوا قد وقفوا صفوفًا نساء وأطفالا .. فمر بهم
 الهوينى وهو يتفرس في الوجوه كأنه يفتش عن ضائع ، والنساء
 يتضرعن اليه بالايماء والبكاء لأنهن لا يعرفن العريضة ، وهو
 لا يلتفت الى أحد حتى وصل الى آخر الصف حيث عثر على
 ضالته ، وهى فتاة لم ير الراؤون أجمل منها وبجانبا امرأة فى
 نحو الأربعين من عمرها ، والهيبة والجلال ظاهرا عليهما . وبرغم

عويل سائر النساء والأطفال ، فانهما كاتتا هادئتين لا تبديان حراكا وليس في ملامحهما ما يدل على الخوف أو الاضطراب . وكانت المرأة بيضاء اللون شقراء الشعر ، زرقاء العينين ، وقد ملمت شعرها وضمتته في أعلى رأسها تحت خمار أسود ، وارتدت ثوبا أسود يجللها كلها حتى ليحسبها الناظر اليها من سكان الأديرة . وكانت جالسة حينئذ على حجر وقد أطرقت كأنها تفكر في أمر ذي بال ، وفي يدها محفظة من جلد قد حرصت عليها حرصا شديدا ..

أما الفتاة فكانت واقفة بجانبها ، وعليها لباس أسود مثل لباسها ، وقد أسندت يدها الى كتف المرأة .. وهى مكشوفة الزندين الى الكوع وقد التف زنداها التفافا بديعا . وكانت طويلة القامة على اعتدال ورشاقة وقد بدت غضة ، فى محياها الحياة والنشاط . ويحسبها الرائي - أول الأمر - فى الخامسة والعشرين ، وهى فى الحقيقة دون العشرين .. سمراء اللون ، سوداء العينين ، كحلاء الجفون ، حادة البصر مع وداعة ورقة .. تدل وقفقتها على الصحة والقوة معا ، ويتجلى فوق ذلك كله لطف نسائي يسحر الأبواب . وكان ثوبها الأسود بسيطا ، وقد انفتح الرداء من أعلى الصدر فبدا عنقها وفيه مظاهر الصحة والقوة بامتلائه واستدارته ، وصفقت شعرها الكستنائى الجميل على هيئة ضفيرتين مستطيلتين أرسلتهما الى صدرها من جانبي العنق، فبلغتا الى تحت الخصر فوق منطقة من جلد . وغطت رأسها

بنقاب أسود يكسو شعرها ويسترسل على كتفيها وظهرها .
والناظر الى الفتاة بجانب تلك المرأة يتبادر الى ذهنه أنها والدتها
وان اختلفا خلقة وشكلا لأن المرأة كانت بيضاء اللون شقراء
الشعر ، والفتاة سمراء كما تقدم

أقبل هانيء اليهما والفتاة تنظر الى والدتها وتخاطبها همسا ..
فلما وصل اليها زفعت نظرها اليه وتفرست في وجهه وتفرس هو
فيها هنيهة ، لا ندرى ما دار في أثنائها بينهما من حديث العيون .
ثم أمر بعض العلماء ممن كانوا في ركابه أن ينقلهما الى مكان
منفرد ريشما يفرغ من مهمته . فلم يستغرب أحد طلبه لأن ذلك من
الأمر العادية في مثل هذه الحال ، فالفاتحون يختارون من
غنائهم ما شاءوا لأنفسهم ويبيعون ما شاءوا

ثم عاد هانيء الى أواسط الصف وناهى التجار ، وقال :
« كيف تقسمون هذه السبايا ؟ »

فتقدم هرون وقال : « لا يمكن الاقسام في هذه الحال لأن
ثمن الفتاة أو المرأة يختلف باختلاف درجة جمالها وعقلها وما
تجيده من الأعمال ، كالخياطة أو الطبخ أو الرقص أو الغناء ،
كما يتوقف على صحتها ودرجة احتمالها وما الى ذلك .. فالأحسن
اذا شاء مولاي أن ينتقى كل منا ما شاء من هؤلاء على شرط أن
من يختار أولا يدفع الثمن غاليا ، ثم يقل الثمن في الاختيار
للثاني ، فالثالث » ..

فاستحسن هانيء هذه الطريقة ، فقال : « ان الذى يتقدم

أولا لاختيار من يريد من هؤلاء تحسب عليه المرأة بخمسة دنانير والغلام بدينار ، والذي يتقدم ثانية فانه يدفع نصف هذه القيمة . قال ذلك والتفت الى الكاتب وأمره أن يتم البيع ويستولى على الثمن ويقسّمه على الجند باعتبار العدد ، وسباق جواده الى السيتين ..

— ٤ —

بسطام

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ، وتراجع المسلمون الى مضاربهم وتركوا قسمة الغنائم الى أمرائهم . وكان الأمراء في انتظار الفراغ من بيع الأسرى والسبّايا حتى يقتسموا ما يجتمع من أثمانها .. فجلسوا في خيمة بجانب فسطاط الأمير عبد الرحمن لهذه الغاية ، وكان في جملتهم أمير من البرابرة يقال له بسطام لم يدخل هو وقبيلته في الاسلام الا طمعا في الكسب والنهب من الغنائم ونحوها . وكان قوى البدن فظ الخلق يكاد الناظر اليه يرتعد من منظره لضخامة هامته وسعة وجهه مع عظم أنفه وانتفاخ منخرية . وكان في عينيه احمرار وحدة خارقة حتى ليوهمك — اذا نظر اليك — انه يخترق صدرك ببصره . وقد زاد منظره وحشة كثافة حاجبيه وبروزهما بروز الطنف واقترابهما كأنهما خط واحد غليظ .. فضلا عن لونه الزيتوني ، وعما يتجلى في

مجمل سحنته من القسوة والخشونة ، وما يدل عليه غلظ شفثيه من الميل الشديد الى الملذات الشهوانية . وكان بسطام رئيس قبيلة كبيرة من قبائل البربر ، فلما سمع بحملة عبد الرحمن الى بلاد الافرنج - وكان يسمع بثروتها وخيراتها - تظاهر بالاسلام وادعى انه يريد الجهاد في سبيل الدين .. ولم يكن حال هذا وأمثاله ليخفى على عبد الرحمن ، ولكنه كثيرا ما كان يفضى عن ذلك رغبة في اكتساب القوة .. لأن هؤلاء البرابرة أبلوا في تلك الحروب بلاء حسنا ، وخصوصا بسطام فانه كان يهاجم الأسوار ويتلقى السهام ويستقبل الفرسان بقلب لا يعرف الخوف ..

وكان كلما فرغوا من معركة واقتسموا غنائمها انتخب مايطيب له من السبايا ، وعبد الرحمن يتساهل في معاملته حذرا من غضبه لئلا تسوقه الحدة والخشونة الى الانقلاب على المسلمين فتقلب معه قبيلته ، وقد يقتدى بها غيرها من قبائل البربر أو غيرهم من غير العرب (الموالى) ممن انتظموا في تلك الحملة ، وفي نفوسهم حسد لما يميز به العرب أنفسهم عن سائر المسلمين : كالاستئثار بالسلطة ، واحراز الأموال . وكان التحاسد سائدا أيضا بين العرب أنفسهم اليمنية في جانب ، والحجازية في جانب آخر ، ناهيك بما بين الأمويين والهاشميين من التنازع على الخلافة . على ان المسلمين غير العرب ان كان قد حسن اسلامهم ، فقد يفضون عن هذا التحاسد ، وخصوصا في أثناء الجهاد . أما الذين كانوا يتظاهرون بالاسلام رغبة في الغنائم ، فاذا

فاتهم الهدف من انضمامهم انقلبوا الى الضد ..
 فاتفق في وقعة بوردو أن بسطاما جاهد جهاد الأبطال ، وهو
 الذى هجم بنفسه على المنزل الذى كانت فيه هاتان المرأتان
 وقبض عليهما وأرسلهما مع بعض رجاله الى المعسكر فى جملة
 الغنائم ، على أمل انه - متى عرضت السبايا للبيع -
 سيطلب الفتاة لنفسه ، وهو لا يتوقع أن يكون له مزاحم أو
 معارض فى ذلك ..



وكان بسطام فى جملة الأمراء المجتمعين فى ذلك اليوم ،
 ينتظرون قسمة الغنائم ، وقد أوصى أحد رجاله أن يراقب تلك
 الفتاة لئلا تخرج من يده . فلما رأى هانئا قد اختارها مع رفيقتها
 لم يجسر الرجل على منعه أو الاعتراض عليه ، ولكنه أسرع الى
 بسطام فأخبره فغضب وصاح فيه : « اذهب وقل لذلك القيسى
 ان الفتاة للأمير بسطام ، لأنها سيبتى وقد نلتها بحد سيفى »
 فظل الرسول واقفا ولم يبد جوابا ، فأدرك بسطام انه لايجرؤ
 على مخاطبة هانئ بمثل ذلك فقال له : « مابالك لا تمشى ؟ »
 فتحول الرسول من الخيمة ومشى الهوينى وهو يغرس أنامله
 فى شعره المتلبد المتكاثف كالعمامة السوداء ويحكه ، وقد تأبط
 جرابا من جلد حرص عليه كل الحرص لما حواه من الأشياء الثمينة
 التى نهبا فى أثناء الموقعة أو التقطها وهم يجمعون الغنائم ، ولم
 يكن يرى سبيلا لحفظها الا أن يحملها معه على ثقلها .. وكذلك

كان يفعل أكثرهم وخصوصا الساعين في الجهاد رغبة في الغنائم .
مشى ذلك البربرى وهو يتباطأ فى مشيته ويهم أن يلتفت الى
الوراء كأنه يتوقع من يسترجعه . وكان بسطام ينظر اليه ويراقب
مشيته بعينه الحمراءوين ، وقد حمى غضبه لما فى ذلك التردد من
الاستخفاف به ، فصاح به فوقف وتراجع فقال له : « يظهر
انك خائف منه .. لا تكلمه بل اذهب أنت ومن شئت من
رجالى ، فأتونى بالفتاة سريعا . »

فمشى الرجل مثل مشيته الأولى ، فازداد غضب بسطام ووثب
وفى يده خنجر روماني كان قد قتل صاحبه طمعا فيه لا تقان
صنعه ، فاستله وضرب به الرسول ، فأصابت الضربة ظهره
فقتلته . وكان بالقرب من الخيمة جماعة من رجال قبيلته قد
وقفوا لبعض الشئون ، فصاح بسطام فيهم : « هلموا الى غنيمة
هذا الجبان ، فهي وكل ما فى خيمته من المنهوبات ملك حلال
لكم » فأسرعوا الى جثته وهموا باقتسام ما فى جرابه حتى
كادوا يختصمون ويتضاربون ..

أما بسطام فانه رد الخنجر الى مكانه ووثب الى جواده
فركبه ، واستحثه نحو الساحة . وكان قد علم بمكان الفتاة
ورفيقتها فسار توا اليهما ، ولم يمر بهانىء ولا خاطبه فى هذا
الشان . وكان هانىء لا يزال الى ذلك الحين مشغلا ببيع السبايا
فلما فرغ من مساومة اليهود ، ساق جواده نحو الفتاة وهى

على مسافة ميل وبعض الميل منه والشمس قد توارت وراء أبنية
 يوردو ، واختلطت ظلال تلك القصور حتى صارت ظلاما خيم
 على الغالب والمغلوب والقاتل والمقتول .. خيم على المسلمين
 وقد اشتدت عزائمهم بما أوتوه من النصر ، فاشتغلوا باقتسام
 غنائمهم . وعلى المغلوبين من أهل يوردو وقد غلبوا على ما في
 أيديهم .. فقتل رجالهم وسببت نساؤهم ونهبت بيوتهم
 ومعاييدهم ..

ولولا اشتغال هانيء بما جاش في فؤاده من عوامل
 الغرام وما غشى بصيرته من عواطف الشباب لاعتبر بما كسا
 أفق يوردو من الشفق وقد اشتد احمراره حتى ليحسبه الناظر
 اليه رمزا للدماء التي سفكت في ذلك اليوم هناك .. ولكنه كان
 مشغول الخاطر بشيء لا يعرفه غير الذي يعانيه - وهو الحب -
 ومن غريب أمر الحب انه يقع على الناس وقوع السبات من
 حيث لا يعلمون . وربما كان الباعث على وقوعه نظرة واحدة ،
 فلا تكاد تلتقي العين بالعين حتى تجيش العواطف وتتجاذب
 القلوب تجاذبا لا سبيل الى دفعه ، ولا يحدث ذلك عند كل
 نظرة ولا في كل انسان وانما هو تأثير بعض العيون على بعض
 القلوب . فاذا تفاهمت العيان استيقظ القلبان وتجادبا كأنهما
 كانا على ميعاد ثم تاها ، وكل منهما يبحث عن رفيقه ، ثم التقيا
 بغتة وتعارفا بالنظر ..

التنازع

كذلك حدث لهانىء ، فانه لم يكن يعرف تلك الفتاة قبل ذلك اليوم .. فوق نظره عليها للمرة الأولى وهو واقف بباب المدينة يراقب اخراج الغنائم والسبايا ويحصيها . وكانت الفتاة فى جملة الخارجين وقد ساقها بعض البرابرة من رجال بسطام بإشارة منه كما تقدم ، فرآها هانىء تمشى بثوبها ونقابها الأسودين وتحت النقاب الضفيريّتان المرسلتان على صدرها وقد أطرقت لا تلتفت يمينا ولا شمالا ، ورفيقتها بجانبها . فلما بلغت الفتاة الى عتبة الباب سمعت هائلا ينادى كاتبه ويسأله عن عدد الذين خرجوا الى ذلك الحين ثم قال له : « لا تحص هذه الفتاة فى جملتهم » فوق صوتها فى أذنيها وقوع السهم فى قلبها . فلم تتمالك أن رفعت بصرها اليه وحدقت فيه ، فقرأ فى تلك النظرة ما يعجز الخطيب عن أدائه فى خطاب ، ولا يستطيع الكاتب التعبير عنه فى كتاب .. قرأ فيها الاستعطاف والاستنصار والحب والاستسلام مع الانفة وعزة النفس ، فأجابها بنظرة قرأت فيها جوابا صريحا على ما يتمناه قلبها فاطمأن بها .. حدث ذلك كله فى لحظة والناس حولهما فى غفلة بين باكٍ ، ونادبٍ ، وراجٍ ، وخائف . أما هانىء فقد وقع نظره عليها فصمم على أن يستأثر بها لنفسه . ثم أكبر أن يتخذها سبية لما آنس من هيتها

وجمالها ، فعزم على أن يتزوجها ، ولم يكن قد تزوج ولا حدثته نفسه بالزواج الى ذلك الحين لاشتغاله بالجهاد منه نعومة أظفاره في بلاد الافرنج التماسا لفتح أوربا . ولذلك فانه حينما دعاه عبد الرحمن الى تلك الحرب لبي سريعا . فلما أحس بقلبه يتحرك لم يصبر عن التفكير في الزواج .. والكثرة في طالبى الزواج أن يلتمسوه على هذه الصورة .. فربما قضى أحدهم الأعوام الطوال وهو لا يفكر في الزواج ولا يسعى اليه ، فاذا تحرك قلبه بنظرة أو كلمة بذل جهده في سبيله . ولذلك استبعد هانىء الفتاة ، وبعد الفراغ من البيع سار كى يتسلمها بنفسه .. ولم يعهد بذلك الى أحد من رجاله مبالغة في الحرص عليها فلما ثنى عنان جواده نحو ذلك المكان ، رأى بالقرب منه فارسا عرف - فى نور الشفق - من شكل الفرس وعدته انه بربرى ، فاستحث جواده وهو مطمئن الخاطر على حييته لعلمه انه ليس فى جند المسلمين من يجسر على مخاطبتها بعد أن أمر هو بإبعادها . ولكن الغيرة من أقوى مظاهر الحب ومن أكبر الأدلة عليه . وهى عياء صماء لا تدعن للعقل ولا تصغى لنصحه . فركض هانىء فرسه وقلبه يخفق غيرة ، وما لبث أن رأى الفارس قد وقف بجانب الفتاة وسمعه يهدد ويتوعد فساق جواده حتى تطايرت أطراف عباءته فى الهواء ، وقبل أن يصل اليهم عرف الفارس فناداه : « بسطام ! » فالتفت بسطام وعيناه تقدحان شررا وهو يقول : « ما بالك أيها الأمير .. ؟ »

قال : « تنحّ عن هاتين .. فاني قد أخذتهما لنفسى .. »
 قال بسطام : « وكيف تفعل ذلك وهما غنيمتى .. ؟ »
 ولو لم يكن هانىء قد تعلق بالفتاة وعشقها لما جادله عليها ،
 ولكنه توقع أن يسترضى بسطاما من باب آخر ، لعلمه بشره
 هؤلاء البرابرة للمال والغنائم فابتسم وهو يقول : « هب انهما
 غنيمتك وقد رأيتنى أريدهما لنفسى ، ألا تتجاوز عنهما لى ،
 ولك على ما تطلبه من نصيبى فى الغنائم .. » قال ذلك وهو
 يتشاغل بتسوية عرف جواده اظهارا للاستخفاف بالمسألة واخفاء
 لما ثار فى قلبه من عوامل الغيرة

فأجابه بسطام وهو لا يقوى على كظم ما فى نفسه : « لا
 يمكننى ذلك ، واذا كان لابد لك من مقاسمتى فى هذه الغنيمة
 فانهما امرأتان .. خذ تلك ، وأنا آخذ هذه .. » قال ذلك
 وأشار بأصبعه أولا الى العجوز ، ثم الى الفتاة
 وكانت الفتاة تقف بالقرب من رفيقتها ، وكلاهما صامتتان
 تترقبان نتيجة ذلك الجدل . ومن الغريب انه لم يبد فى وجه
 تلك الفتاة شىء من امارات الخوف كأنها قد وثقت بفوز
 حبيبها . ولكنها كانت اذا وقع بصره عليها ابتسمت ، وفى
 ابتسامتها اطراء وتشجيع ، فاذا حولت بصرها نحو بسطام قرأ
 هانىء فى شفيتها كل ملامح الاستخفاف والبغض . وقد أدرك
 هانىء ذلك منها رغم ما تقاطر من جيوش الظلام . فلما سمع
 بسطاما يعرض القسمة على هذه الصورة عظم استخفافه به ،

فأجابه بصوت هادئ ولكن ملؤه التهديد قائلا : « لا أحب
القسمة ، وإنما هذه الفتاة لى ، فارجع الى معسكرك وخذ
نصيبيك مما بعناه من الغنائم والأسرى والسبايا »
فازداد بسطام هياجا ووقف على الركاب بغتة حتى أجفل
جواده وصاح قائلا : « لا يمكن لأحد أن يأخذ غنيمتى منى ،
ولو كان الأمير عبد الرحمن نفسه .. أما كفاكم معشر العرب
ما تسوموننا من الخسف فتستأثرون بكل شئ دوتنا . كأن غير
العرب ليسوا مسلمين . وأنت تعلم انى أستطيع أن أعرقل
مسعاكم وأرجعكم على أعقابكم فلا تفتحون بلدا ولا تكسبون
غنيمة .. »

فلما سمع هائىء ذلك التهديد كبر عليه أمره ، ولكنه تصور
ما يترتب على مجافاته من الضرر . وهو يعلم ان بسطاما لا يهمه
الاسلام ولا المسلمين ، فاذا غضب وغضبت قبيلته ضعف الجند
وهذا ما لا يرضاه هائىء ولا عيد الرحمن . على ان حدة الشباب
غلبت عليه وهو بين يدى حبيته .. فلم يتمالك أن هم بسيفه
فاستله وهجم على بسطام لا يبالى أى عضو يصيب منه . فاذا
بالمرأة تتقدم بثوبها الأسود ثم تمسك بعنان فرسه وتخطبه
بالعربية قائلة : « لا تقتلنا فما نحن غنيمة لأحد وكفى خصاما »
قالت ذلك بلسان أهل اليمن مع شئ من العجمة . فبغت
الأميران وتعجبا لما سمعاه بالعربية
أما بسطام فانه ظل مصمما على طلبه ، وخصوصا بعد أن

سمع تهديد هانىء له بين يدي تلك الفتاة وهى تفهم العريضة فقال لها : « بل أنتما غنيمتى .. واذا شئت الانحياز الى هذا الأمير. فلا بأس ، وأما هذه الفتاة فانها لى .. » . قال ذلك وانحنى عن سرجه ومد يده الى الفتاة وهم أن يمسكها فتباعدت وهى تنظر اليه شزرا ولم تضطرب ، فتبعها بفرسه .. ولما رأى هانىء تلك الجرأة لم يستطع أن يكتم غضبه ، وقد سرته تباعد الفتاة لأن فى تباعدها تصريرا بتفضيلها اياه ونفورها من بسطام . فأحس أن تعقله وكظنه لاينفعان مع هذا البربرى شيئا ، فهمز جواده والسيف لايزال مسلولا فى يده ، فوثب الجواد وصهل كأنه يشارك فارسه بعواطفه ، وتباعدت المرأة وقلبها يختلج ، وما كادت تفعل حتى سمعوا وقع حوافر جواد يعدو نحوهم من جهة المعسكر وصوتا ينادى : « هانىء ، هانىء ، اغمد سيفك ! » فالتفتوا فاذا بالفارس قد أقبل حتى دنا منهم ، وقبل أن يروا وجهه عرفوا من فرسه ولباسه انه الأمير عبد الرحمن . فاستغربوا مجيئه فى تلك الساعة على حين غفلة وبغتوا ، ولم يفه واحد منهم بكلمة ، ولم يستطع هانىء سوى اغماد سيفه

- ٦ -

مريم

وكان عبد الرحمن ربح القامة ، جليل الطلعة ، صبح

الوجه ، عريض اللحية والجبهة ، قد خالط شعره بياض . وكان واسع العينين مع حدة وذكاء بغير جحوظ ، أقنى الأنف وقد تزمّل بعباءة سوداء وعلى رأسه عمامة بيضاء كبيرة . فلما وصل ، ساد الصمت على الجميع ، فالتفت الى هانىء وقال : « أراكم تختصمون وتتشاجرون ، وكان قلبي قد دلنى على ذلك منذ أن سمعت بسطاما يخاطب رسوله فى خيمتى ، فخشيت النزاع بين أمراء هذا الجند ونحن فى أشد الحاجة الى الاتحاد . وقد لاحظت خروج بسطام .. فلما أبطأ فى العودة أسرعتم اليكم ، فأحمد الله على ذلك »

فأعجب الجميع بسهر هذا الأمير على مصلحة جنده وسعيه فى جمع كلمته ، وأحس هانىء بتوبيخ ضميره لأنه تعاهد هو وعبد الرحمن على الاتحاد والتعاون كما تقدم ، فقال : « لم أكن لأخاصم مسلما على شىء وان عز ، ولكن بسطاما يعترضنى فى سببية اخترتها من بين مئات بعناهن الآن بيع السلع ، فلو اننا بعناها لبعض أولئك اليهود فما الذى كان يفعله .. ؟ » فاعترضه بسطام قائلاً : « كنت أفنديها من شاريها بالذى يرضيه » ..

فتقدمت المرأة نحو عبد الرحمن بقدم ثابتة وجأش رابط ، وقالت : « أظننى واقفة بين يدي عبد الرحمن الغافقى أمير هذا الجند ؟ .. »

فاستغرب عبد الرحمن حديثها بالعريية ، وقال : « نعم ..

أنا هو .. وكيف عرفت ذلك ؟ »

قالت : « عرفتك من اهتمامك بشئون جندك ، وقد كنت أسمع ذلك عنك .. ان الأميرين يختصمان علينا ، وما نحن لواحد منهما ، ولكن لنا أمرا نعرضه على الأمير »
 فرآها عبد الرحمن تخاطبه بجسارة لم يعهدها في الأسرى أو السبايا فهابها ، وزاده تهيبا ما آنسه من رزاتها وبسطة لباسها وسواده ، ووقعت عيناه في أثناء ذلك على الفتاة فأعجبه جمالها ، ومال الى استطلاع حقيقتها ، فقال للمرأة : « قولى ما بدا لك »
 قالت : « لا أقول شيئا الآن ، وانما أقص حديثى على الأمير في خلوة » ..

وكان في ركاب عبد الرحمن رجلان من خاصته ، فأمرهما أن يأتيا بفرسين يحملان المرأة ورفيقتها الى فسطاطه ، على انه لم يصبر وهو ينتظر قدوم الفرسين عن أن يسأل المرأة : « ومن هى رفيقتك ؟ » ، فقالت : « هى ابنتى »
 وكان هانىء يقف صامتا ، وقد وقع في حيرة من أمر الفتاة وأما ، وخشى أن يكون في حديث الوالدة ما يحول بينه وبين ابنتها وقد ازداد تعلقا بها بعد ما لاحظته من رغبتها فيه ، وأحسن انها تحبه حبا شديدا ، فاغتنم فرصة اشتغال الأمير بالحديث مع المرأة ، ودنا من الفتاة وقد أراد أن يسمع حديثها ويستطلع أمرها ، فقال وصوته يدل على هيامه : « ما اسمك يا فتاة ؟ »
 فأجابته بصوت دل على لواعج الحب ، وبلسان عربى فصيح :

« اسمى مريم » فأعجبته غنة صوتها وزاد افتتاحه بها لثغة في لسانها تنطق بها الراء غينا ، فكأنه سمعها تقول : « اسمى مريم » فقال : « وأنا اسمى هانىء .. هل حفظته كما حفظت اسمك ؟ » فأدركت ما يهدف اليه ، وقالت : « لقد حفظته قبل أن أعرفه ، فكيف بعد أن عرفتة ورأيت منه ما رأيته » ففرح بذكائها وسرعة خاطرها واطمأن بآله ، ثم أجابها وهو يقلد لثغتها تحببا : « اغجو أن تكون معفة مباغكة »

فابتسمت مريم ابتسامة أنشدت بمجامع قلبه ، وتوردت وجنتها خجلا ، وأطرقت أطراف الحياء وتشاغت باصلاح ذيل منطقتها ..

أما بسطام فكان يراها يتكلمان ، والحنق يكاد يخنقه ، وهو لا يجسر على الكلام في حضرة الأمير ، ولكنه أضمر لها الشر . وبعد هنيهة جاء الجوادان ، فركبت مريم وأما وساقوا الخيول الى المعسكر ، وكان هانىء لا يرفع نظره عن مريم فرآها امتطت الفرس بأسرع من لمح البصر ، كأنها ولدت على ظهور الخيل فازداد هياما بها . ولكنه ظل موجسا خيفة من تلك الخلوة ، حتى اذا اقتربوا من فسطاط عبد الرحمن — وهى أكبر الخيام وعلى بابها الأعلام — التفت عبد الرحمن الى هانىء ، وقال : « عد الى تدبير أمر الجند ، وكن كعهدي بك فاننا فى بلاد العدو » والتفت الى بسطام ، وقال : « وأنت يا بسطام أمير ذو بطش ، فامض الى شأنك وانس ما دار بينك وبين هانىء .. اتنا مقبلون

على فتوح كثيرة ، وستصيب من الغنائم والسبايا ما يعوض
عليك أضعاف هذه الخسارة »

فسار الأميران ، وتحول عبد الرحمن ودعا مريم وأميها
للنزول ، فنزلنا ودخلنا الخيمة في اثره ، وفي يد الوالدة تلك
المحفظة وقد شدتها الى زندها وقبضت عليها بكفها كأنها تخاف
أن يختطفها أحد ..

- V -

الخلوة

فلما دخلوا الخيمة أشار عبد الرحمن الى من كان فيها من
الأمراء والحاشية ، فخرجوا جميعا وبقي هو والمرأة وابنتها ،
وقد تشوق الى سماع ذلك الحديث ، فجلس في صدر الخيمة
على بساط ثمين ، كانوا قد خصوه به من غنائم ذلك اليوم ،
وأجلسهما بين يديه.. فالتفت كل منهما بردائها الأسود ، والنقاب
الأسود على رأسيهما . فنظر عبد الرحمن الى وجه المرأة على
نور المصباح ، فرأى الجمال لا يزال باديا في وجهها مع انها قد
تجاوزت سن الشباب . ونظر الى مريم ، فرأى عينيها الجذابتين
وقد زادها التفكير والاطراق هيبة ، فصبح الخالق لذلك الصنع
العجيب . ثم غلب شوقه الى سماع تلك القصة ، فحوّل نظره
الى المرأة فرأى الاهتمام ظاهرا في عينيها وهي تنتظر اشارة

للشروع فى الكلام ، فقال لها عبد الرحمن : « ماخبرك يا فتاة ؟ وما هو غرضك ؟ »

قالت : « أما خبرى فسأطلعك عليه فى فرصة أخرى ، وأما غرضى فهو نصره هذا الجند حتى تتحقق أمانيه »

فلما سمع عبد الرحمن كلامها ، استغرب تلك الغيرة من امرأة لا يعرف من هى ، وقد توسم فى كلامها - وان كان عربيا - شيئا من العجمة . فأراد أن يستطلع حقيقتها ، فقال لها : « ما الذى حملك على الحماس لنصرة العرب ، وكلامك يدل على أنك غير عربية ، ومظهرك ولباسك يدلان على أنك غير مسلمة .. فلا يعقل أن يكون هذا هو هدفك ، فأصدقينى .. »

فنظرت اليه نظرة استغراب ، وقالت : « لم أمثل بين يدي الأمير عبد الرحمن العافقى لألق له حديثا مكذوبا ، ولا أرى فراسته فى صحة لأنى وان كنت غير عربية ولا مسلمة ، فليس ثمة ما يمنع غيرتى على نصره العرب أو المسلمين .. وفى نفس هذه المدينة وغيرها من مدن النصارى والافرنج من يؤثر انتصار المسلمين العرب على انتصار النصارى الافرنج لأسباب لم أكن أظنها تخفى على مولاي الأمير »

فأطرق عبد الرحمن وقد تضاعف استغرابه ، ولكنه صبر الى النهاية لعله يستشف شيئا من حديثها يكشف له الحقيقة فقال لها : « لم أفهم مرادك .. هل يتمنى أهل هذه البلاد انتصار المسلمين على ملوكهم ؟ »

قالت : « كانوا يتمنون ذلك منذ سنعوا بحال الأسبان بعد دخولهم تجت لواء العرب ، لأنهم رأوهم قد انتقلوا تحت ظل الاسلام من الرق الى الحرية ومن الظلم الى العدالة » .
قال عبد الرحمن : « وهل عدلوا اليوم عن ذلك الرأى ؟ »
قالت : « نعم .. »

قال عبد الرحمن : « ولماذا ..؟ أرجو الافصاح »
قالت : « لا يخفى على مولاي ان المسلمين عندما فتحوا اسبانيا منذ ٢٢ عاماً ، عاملوا أهلها بالرفق والعدل فلم ينهبوا بيعة ولم يسفكوا دماً بريئاً ، ومن اختار البقاء على دينه حافظوا على عهده ، ومن اعتنق الاسلام وكان عبداً فإنه يصير حراً له ما للمسلمين وعليه ما عليهم . وكان حكام القوط يعدون رعاياهم عبيداً لهم يستخدمونهم في منازلهم وحقولهم يستخدمون الأرقاء ، فلما جاء المسلمون وفتحوا بلادهم خيروهم بين الاسلام والجزية ، وان من أسلم وكان عبداً صار حراً ، فتهاقت جانب عظيم من أولئك الأرقاء على الاسلام لتتحقق لهم الحرية التي كانت عزيزة عليهم لا ينالها الا أفراد قليلون مكافأة على شجاعة عظيمة أو خدمة ذات بال . ومع ذلك فإن المعتقين في أيام القوط والرومان لم يكونوا يتمتعون بكل حقوق الأحرار . وانما كانوا وسطاً بينهم وبين الأرقاء . أما المسلمون فمن أسلم من رعاياهم عاملوه معاملة الأحرار تماماً ، ومن ظل على النصرانية تركوا له الحرية في أداء مراسم دينه وألتمسك بعاداته وآدابه وسائر معاملاته حتى



« فقال لها عبد الرحمن : ما خبرك يا فتاة وما غرضك ، قالت : اما خبري فسا طلعك عليه في فرصة اخرى ، واما غرضي فهو نصرة هذا الجند حتى تتحقق آمانيه .. »

الحكومة والقضاء (١) ، فأحس الاسبانيون بأنهم انتقلوا بالفتح الاسلامي من الضيق الى الفرج ومن الرق الى الحرية ، فشاع ذلك في سائر أنحاء هذه البلاد .. فرأى موسى بن نصير سهولة الفتح عليه لهذا السبب ، فعزم على أن يتم فتوحاته حتى يعود الى دمشق من طريق القسطنطينية بعد أن يفتح كل أوربا . ولكن المسلمين عجلوا عليه وعلى ابنه عبد العزيز ، رحمهما الله ، مما لا يخفى عليك . ولولا ذلك لثم الفتح للمسلمين من ذلك الحين ، ولكانت هذه البلاد التي جئتم لفتحها الآن ملكا لهم منذ نيف وعشرين سنة . ولكن الذين خلفوها على إمارة الأندلس كان معظمهم من أهل المطامع ، فأساءوا الى النصارى والى المسلمين من غير العرب ففسدت النيات ، وشاع خبر ذلك في هذه البلاد فأصبح فتحها صعبا لأن أهلها لا يرون فائدة من الانتقال الى دولة غير دولتهم ودين غير دينهم »

— ٨ —

هانيء

ولما بلغت في حديثها الى هذا الحد ، توقفت وتحننت وتشاغلت بمسح قمها ، وعبد الرحمن ينظر اليها وهو يستغرب حديثها لما فيه من الحكمة وسعة الإطلاع ، وجعل يتأمل ملاحظها

(١) دوزى - الجزء الثانى

ويفكر فيمن عسى أن تكون هذه المرأة ، وصبر لعل في خاتمة حديثها ما يكشف له القناع عن حقيقتها .. ولكنه أراد أن يستوضحها الأمر ، فاعتنم فرصة سكوتها وقال لها : « يظهر لي أنك أكثر اطلاعا على حقيقة الأحوال من معظم رجالنا ، وأشد غيرة على مصلحة المسلمين من المسلمين أنفسهم .. » ثم تنهد وقال : « ان الأمر الذي ذكرته يا فتاة هو الواقع بعينه ، وأظنك سمعت اني استدركته قبل اقدمي على هذا العمل .. فلم أخرج الى هذه الحرب حتى تجولت بمدن الأندلس وغيرها مما فتحه المسلمون من بلاد الافرنج (فرنسا) وتعهدت خكامها ، وعزلت الضعفاء وأهل المطامع من أمرائها وأبدلتهم برجال من أهل الدراية والحكمة ، ليحسنوا سياسة الناس على اختلاف المذاهب ورددت الى النصارى كنائس كان بعض الأمراء المسلمين قد اغتصبوها منهم ، وأعدت ما كان لهم من العهود منذ زمن موسى ابن نصير وابنه عبد العزيز (١) . وقد بذلت الجهد في هذا السبيل لعلني ان الاسلام يأمرنا بذلك ، وان الصحابة الأولين لم يستطيعوا ما استطاعوه من الفتح الا بما كانوا يتوخونه من الرفق ومعاملة أهل الذمة بالحنى والعدالة .. »

فقلت وهى تصلح تقابها والتفكير ظاهر فى عينيها : « قد علمت بكل ما فعلته وما تفعله ، وكل ما نويته وما تنويه ، ولذلك كنت أتوقع لك الظفر . ولكنى رأيت خلاف ما سمعته ، فصرت

أخشى فشلك ..

فقال وهو يستغرب صراحتها وحصافتها : « وكيف ذلك ؟ »
 قالت : « أظنك تعلم ما أعلمه من هذا القبيل ، ويكفى
 ما شاهدته الآن بنفسك ما بين هانىء وبسطام .. ألم يكديس فك
 الدم بينهما من أجل هذه الفتاة ؟ .. » وأشارت الى مريم
 وكانت جالسة بجانب والدتها تسمع حديثهما باهتمام وشوق ،
 كأنها لم تكن تعرف منه شيئاً

فلما سمع عبد الرحمن كلام المرأة تشاغل باصلاح شاربه ،
 وحك عثنونه بين سبابته وابهامه ، وظهر التأثر في عينيه وجبينه .
 والتفت الى المرأة وهو يحاذر أن يتنهد وقال : « ان ما رأيته
 انما هو من قبيل المنافسة بين أميرين على سبية جميلة ، وليس
 ذلك بالأمر الغريب »

فضحكت ضحكة مصطنعة ، وقالت : « الأمير عبد الرحمن
 الغافقى لا يجهل أن سبب هذه المنافسة انما هو فساد نيات
 الأمراء فيما بينهم لاختلاف أغراضهم في هذه الحملة ، لأن
 أكثرهم جاءوا للنهب والسلب وخصوصا البرابرة ومن على
 شاكرتهم .. فهؤلاء لا يفهمون معنى الجهاد أو الفتح ، ولا يعرفون
 ما هو الاسلام ، لأنهم انما اتموا اليه رغبة في الغنائم . ومن
 كان هذا غرضه لايهمه اذا رضى أهل البلاد أو غضبوا .. يدلك
 على ذلك ما رأيته بنفسى في أثناء هذا الفتح اليوم ، فان بعض
 رجالكم لم يميزوا بين المنازل والكنائس ولا بين الرهبان

والعامة ، فقد نهبوا كنيسة بوردو وهى من أعظم كنائس
الغالين ، فأصبح هؤلاء فضلا عن نفورهم من المسلمين يعتقدون
ان صاحب هذه الكنيسة سينتقم لهم منكم .. »

فلم يتمالك عبد الرحمن عن قطع حديثها ، فقال : « نهبوا
الكنائس ؟ .. نهبوا ؟ .. رغم ما أوصيتهم به من المحافظة عليها
وعلى كرامة القسس والرهبان » ثم صبق وصاح : « يا غلام »
فدخل رجل من غلمانه الذين يقفون ببابه ، خفيف اللباس خفيف
العضل ممن يقتنونهم للمراسلة ونحوها .. فابتدره حال دخوله
قائلا : « ادع الأمير هانئا الساعة »

فأشار الغلام اشارة الطاعة وخرج ، فعجلت المرأة بالكلام
قبل خروجه وقالت للأمير : « فاتنى أن أطلب اليك الافراج عن
خادمي ، فانه أخذ فى جملة الأسرى على شيخوخته وبرغم انه
عربى » ..

فنادى عبد الرحمن الغلام فوقف ، فقال له : « وقل للأمير
هانئ ان بين الأسرى شيخا » والتفت الى المرأة ، وقال : « وما
اسمه ؟ » . قالت : « اسمه حسان » . فقال : « قل للأمير ان
بين الأسرى شيخا عربيا اسمه حسان .. فليأت به معه »
ولا تسلم عن مريم عندما سمعت اسم هانئ ، فانها أحضت
بنبضات قلبها تسرع بغته .. وكانت جالسة مطرقة فتحركت
واغتدلت فى مجلسها ، ولو اتبه عبد الرحمن لوجهها لرأى فيه
احمرارا يشف عن عاطفة قلبية ظهرت آثارها فى بريق عينيها

قضوا مدة غياب الرسول صامتين وخصوصا عبد الرحمن ،
فانه لبث مطرقا وهو يلاعب لحيته بين أصابعه ببطء ، كأنه يخشى
من العجلة أن يضطرب لها حبل أفكاره فتقطعه أو تعترضه ،
وسكتت المرأة تهيئا لمنظر عبد الرحمن .. وبعد قليل سمعوا وقع
حوافر جواد ، ثم سمعوا صهيله ، فعرف عبد الرحمن انه صهيل
جواد هانىء وان هائتا قادم . ولم تمض هنيهة حتى دخل ذلك
الغلام ، وقال : « ان الأمير هائتا بالباب .. »
فقال عبد الرحمن : « فليدخل »

وقبل أن يرجع الرسول بالأذن ، أقبل هانىء كأنه يدخل بيته
وذلك للدالة التى كانت له على الأمير ، وكان لا يزال بثوبه
الأحمر وسيفه المرصع وسائر سلاحه ، فلما رآه عبد الرحمن
داخلا يش له ورجب به ودعاه الى الجلوس بجانبه ، فجلس
وهو يحرق فى مريم ووالدتها ، ولكنه تشاغل بالالتفاف بعباءته
وهو يصلح مجلسه . أما مريم ، فانها أطرقت حياء وعيناها
تسترقان النظر الى هانىء ، وترمق كل حركة من حركاته . ودخل
فى أثر هانىء شيخ طاعن فى السن عليه لباس أهل غاليليا ، وعلى
رأسه عمامة صغيرة ، وقد شاب شعره مع كثافة ، واسترسلت
لحيته كثيفة ، وخفّ عضله وتفضنت جبهته ، وتجعّد خداه
ورقبته حتى ليتوهم الناظر اليه انه فى سن التسعين ، واذا تكلم
أو مشى أو همك لخفة حركته وشدة عارضته انه فيما دون
الستين . فدخل الخيمة وعليه قباء الى الركبة بعضه مبطن بالجلد.

وأما ساقاه فكاتتا عاريتين وقد غشاها شعر كثيف لا يظهر الجلد من تحته ، وقد شد بقدميه نعلين من صنع بوردو. ووقف الشيخ بباب الفسطاط ، فلما رآه عبد الرحمن أشار إليه أن يجلس فجلس هناك متأدبا ، أما هانىء فلما جلس قال له عبد الرحمن : « أظنك تعبت فى هذا اليوم يا هانىء »

قال هانىء : « ليس فى الحرب تعب اذا كانت خاتمتها النصر ، كما كانت خاتمة حربنا مع هذه المدينة بعون الله وسيف الأمير عبد الرحمن .. »

قال عبد الرحمن : « لم يكن لعبد الرحمن يد فى هذا النصر ، وانما تم بك وبرجالك وسائر المسلمين . على انى لم أدعك للبحث فى ذلك ، وانما دعوتك لأمر ذى بال فأعرنى سمعك » فأصاخ هانىء بسمعه ، وقال : « قل .. »

قال عبد الرحمن : « هل تعلم ما الذى ساعد المسلمين على الفتح والنصر منذ أيام الصحابة حتى اليوم ؟ »

قال هانىء : « أعلم ان الله نصرهم بالاتحاد والتعاون ، وهذا هو الأمر الذى تتوخاه فى كل حركة من حركاتنا »

قال عبد الرحمن : « أنا أعلم ذلك ، وأعتقد انك أكبر ساعد لى فى جمع كلمة هذا الجند الضخم وهو مختلف المقاصد والأغراض ، وتحتمل معنى مضمض التوفيق بين نزعاتهم المختلفة وميولهم المتناقضة ، ولكن هناك سببا آخر ساعد السلف الصالحين على الفتح وأيد دولتهم .. أتعلم ما هو ؟ »

- ٩ -

عبد الرحمن وبسطام

فأطرق هانيء وأعمل فكرته ، وعبد الرحمن يتفرس فيه كأنه يستعجل جوابه ، فقال هانيء : « الذي أعلمه ان دولة الاسلام تأيدت بالعدل والرفق »

فقطع عبد الرحمن كلامه ، وقال : « ذلك هو بعينه .. لأن العدل أساس الملك ، والرفق بالرعية يدعوهم الى الطاعة والمحبة وخصوصا أهل الذمة من النصارى واليهود ، وعلى الأخص الرهبان والقسس أصحاب البيع والكنائس ، فقد ورد في كتاب الله وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم النهي عن السعى في أذاهم ، ولذلك كان الخلفاء الراشدون اذا أنفذوا جندا الى حرب أوصوهم بأهل الذمة خيرا ، ومنعوهم من أذاهم ، وأمرؤهم بالكف عن الكنائس وأصحابها (١) ألا تعلم ذلك .. ؟ » قال هانيء : « نعم أعلمه جيدا .. ولطالما تحدثنا فيما قام به بعض الخلفاء وأمراء الأندلس من هذا القبيل ، وتعاهدنا على منعه » ..

قال عبد الرحمن : « فما معنى هجومكم على كنيسة بوردو في هذا اليوم ونهب آنيثا وايداء رهبانها ؟ »
فظهر الغضب على وجه هانيء مع الدهشة ، وأطرق لحظة ثم

(١) تاريخ التمدن الاسلامي - الجزء الاول

هز رأسه وهو يقول : « قبح الله بسطاما ما أطمعه وما أقل طاعته .. انى نهيته بنفسى عن هذا الأمر - ونحن فى أثناء الواقعة - بعد أن رأيت منه ومن رجاله ميلا الى النهب فى غير تفرقة ، وقد علمت بما فى كنيسة بوردو من آنية الفضة والذهب ، فخشيت أن تسوقه المطاعم أو تسوق أحدا من قبيلته الى نهبه ، فاستوقفته فى وسط المعركة وقلت له : « احذر أن يسطو أحد من رجالك على الكنائس أو المعابد أو القبس » .. فأجابنى بالسكوت .. فبدا لى فى تلك الساعة انه لا ينوى الاذعان للتحذير ، لما نعلمه من طمعه وقسوته و ... »

فابتدريه عبد الرحمن قائلا : « أتظن ان تلك فعلة بسطام ؟ » قال هانىء : « لا أظن أحدا سواه يجرؤ على ذلك بعدما كان من تشديدنا فى منعه ، وقد رأيت مع بعض رجاله وهم يقتسمون صلبانا من ذهب ومباخر من فضة مما لا يكون فى غير الكنائس » فصفق عبد الرحمن ونادى غلامه فدخل ، فقال : « ادع الأمير بسطاما » وبعد خروج الغلام التفت عبد الرحمن الى هانىء ، وقال : « لا تخف من غضبى عليه ، فانى سأخاطبه باللين لما أعلمه من فظاظته وغلظته والا أفسد الجند علينا »

فقلت المرأة : « مالكم ولهذا النصير الخطير .. ما كان أغناكم عنه وعن قبيلته » ..

فتنهده عبد الرحمن وقال : « لو شئنا أن نستبعد من جندنا أمثال هؤلاء الغلاظ لاقتضى أن نجرده من أشد رجاله وأكثرهم

عددا ، لأن في جملة رايات هذا الجند قبائل من البربر وجماعات من الصقالبة والإجرامقة والجراجمة والأقباط والأنباط وغيرهم ، وفيهم من لا يزال على اليهودية أو النصرانية أو الوثنية أو المجوسية وانما يتظاهرون بالاسلام (١) - والبربر من أشجع الأمم لا يهابون الموت ولا يخافون العدد - والحق يقال انهم هم الذين فتحوا لنا اسبانيا وسلموها الينا ، ولو أردنا الاستغناء عنهم لامتنع علينا هذا الفتح لأن العرب لا يزالون الى اليوم قليلي العدد بالنسبة الى مثل هذا المشروع العظيم . فلستخدام البربر في هذه الحروب يفيدنا كثيرا ، وكل ما يطلب منا أن نحسن السياسة في معاملتهم لئلا نغضبهم ، وهم انما يرضيهم الكسب من الغنائم ونحوها ، وهذا أمر ميسور لهم لأننا كثيرا ما تنازل لهم عن الغنيمة لنطمعهم في الجهاد لمصلحة المسلمين ، وان لم يكونوا كلهم مسلمين مخلصين »

فأعجبت المرأة بتفكير عبد الرحمن وسعة صدره ، وقالت له :

« ان جئدا أنت قائده جدير بأن يعود ظافرا منصورا »

فلما سمع ذلك الاطناب ، مال يميناه الى هانيء وألقى يده على كتفه ، وقال : « هذا هو يدنا اليمنى لأنه قائد فرساننا » فحجل هانيء لهذا الاطراء وأراد أن يعتذر واذا بالرسول قد دخل وهو يقول : « الأمير بسطام بالباب »

فقال عبد الرحمن : « فليدخل »

(١) البيان والتبيين للجاحظ - الجزء الاول

فدخل بسطام وعباءته مطلقاً من الأمام ، وسيفه يجر وراءه ،
وعمامته مع صغرها منحرفة من جانب رأسه الى الأذن ، وفي يده
عنقود من العنب كان يأكله في أثناء الطريق .. فلما رأى نفسه
في حضرة الأمير تراجع ورمى تلك البقية ، وعاد وفي مشيته تيه
واعجاب . ولكنه مع ذلك لم يكن يستطيع مخاطبة عبد الرحمن
الا بالاحترام ، لأنه لم يكن يسمع منه الا كل ما يطيّب خاطره
ويدعوه الى احترامه لما قدمناه من حسن سياسة عبد الرحمن
ورقة جانبه .. وربما توهم بعضهم أن الرياسة انما يتأيد نفوذ
صاحبها بالغلظة والكبرياء وشدة الوطأة ، ولكن ذلك من الأوهام
الباطلة ، لأن الرئيس الشديد انوثته قد يملك ألسنة مرءوسيه..
وأما الوديع الرقيق الجانب فانه يملك قلوبهم ورقابهم . فلما دخل
بسطام حيّاً ، فبش له عبد الرحمن ودعاه للجلوس ، فجلس وهو
يجيل نظره في أطراف الخيمة ، فرأى مريم وهانثا فتوهم لأول
وهلة انه دعى لأمر يتعلق بهما ، ثم سمع عبد الرحمن يخاطبه
قائلاً : « دعوناك يا أمير لنسألك عن أمر يهملك كما يهمننا لأن
المصلحة واحدة ، وهي رفع منار الاسلام وتأيد كلمة الله .. »
فانشرح قلب بسطام لهذا الاطناب لأن العرب لم تكن تعامل
البربر الا معاملة الموالى كما تقدم ، فلما سمع بسطام ذلك
الكلام قال : « يأمر الأمير بما شاء ، وله ما يرضيه منى ...
فانى أطوع له من بنانه »
قال عبد الرحمن : « بورك فيك ، ونفع الله المسلمين بسيفك .

أما الأمر الذى استقدمناك لأجله ، فهو ان بعض نصارى هذه المدينة يشكون مما أصاب بيعتهم من النهب ، وهم كما لا يخفى عليك أهل كتاب قد أوصانا الله برعايتهم وبحرمة كنائسهم وبيعهم ، وخصوصا اننا فى أحوال تقضى علينا بمحاسبة أهل هذه البلاد حتى يهون علينا الفتح ، ونحن سائرون الى بلاد أمنع ورجال أشد من أهل هذا البلد . فاذا اعتقدوا فينا الرفق والعدل ساعدونا . ولذلك كنت كثيرا ما أوصيكم بالانمضاء عن أماكن العبادة على يد أخينا الأمير هانىء ، فاذا كنت على بينة من أمر كنيسة بوردو ونهبها أرجو أن تسعى فى رد ما نهب من آنياتها .. وأدواتها .. »

— ١٠ —

العرب فى أسر الافرنج

فقال بسطام : « لا أنكر على الأمير سداد رأيه فى هذا الشأن ، وقد كنا الى اليوم نرعى هذه القاعدة ونحترم البيع حتى رأيت فى هذا الصباح أمرا اقشعر له بدنى .. ولم أتمالك عن الانتقام بنهب تلك الكنيسة .. رأيت فى بعض منازل هذه المدينة رجالا من المسلمين وغلمانا ونساء يستخدمهم أهلها استخدام العبيد الأرقاء .. نعم لا أنكر حقهم فى ذلك لأننا نفعل بأسراهم مثل هذا الفعل . ولكنى رأيت بعض الأسرى المسلمين

مقيدين بالأغلال الحديد في أرجلهم والأحمال الثقيلة على ظهورهم ، وقد ساقوهم الى العمل في الكروم سوق الدواب (١) فلم أتمالك عند مشاهدتي هذه القسوة من الانتقام بنهب كل ما تقع يدي عليه .. ولم أستثن كنيسة ولا ديرا .. »

فلما بلغ بسطام الى هذا الحد ، التفت عبد الرحمن الى المرأة كأنه يسألها : « لا أنكر على مولاي ان معاملة الافرنج لأسراهم من العرب أكثر قسوة من معاملة المسلمين لأسراهم من الافرنج ، وان تساوى الفريقان في اعتبار الأسرى ملكا للغالبيين يبيعونهم بيع السلع ، ومتى دخل الأسير في حوزة مالكة استخدمه فيما ينفعه من فلاحه أو زراعة أو خدمة ، ولا يزالون عبيدا هم وأولادهم الى سلالات عديدة حتى يقتديهم أهلهم ، أو أصدقائهم بالمال أو غيره . أما المسلمون ، فان رجوع الأسرى الى الحرية عندهم أسهل مما عند الافرنج ، وأما تقييدهم بالسلاسل فالغرض منه - على ما أظن - هو منعهم من الفرار وربما حاولوه مرة ولم يظفروا ، فأثقلوهم بالأغلال ليمنعوهم منه .. »

فقطع عبد الرحمن كلامها ، ووجه خطابه الى بسطام قائلا : « هب انهم فعلوا ما تقول ، فالعبرة بالنتيجة .. واذا كنا نسلك مثل ما نسلك هؤلاء فأى فضل لنا ، وبماذا تتوقع النصر في الدنيا

والنعيم في الآخرة .. فالذي يهنا أن نعمل بمقتضى الكتاب والسنة ومقتدى بالسلف الصالحين . وزد على ذلك ان طمعنا في القليل من الغنائم قد يؤدي الى فشلنا ويقف في سبيل الفتح فنحسر أضعاف تلك الغنائم ، ناهيك بالفشل وما قد يلحقنا بسببه من العار » ثم وجه خطابه الى هانىء وقد بدا الاهتمام بين حاجبيه ، وقال : « لا يخفى عليكم اننا نعتزم عملا أثمن كثيرا من الذهب والفضة والآنية ، وأعظم من أن يقاس بالحطام الفانية . نحن نعتزم فتح هذا العالم الكبير .. فاذا وفقنا في فتحه كسبنا الأموال والأرواح ونشرنا الاسلام في قبائل من النصرانية والوثنية لا يحصيها الا الله ، فملك المدن والرقاب وتخفق رايتنا على رومية والقسطنطينية وغيرهما من عواصم النصرانية ، ويصير صعلوكنا أميرا وفقيرنا غنيا .. فتحرز ياهانىء ما استطعت من الذهب والفضة والجواهر ، وتملك ما تريده من الجوارى والعلمان .. واذا كنت مخطئا في قولى فنبهونى »

فأدرك هانىء ان عبد الرحمن انما ينتظر الجواب من بسطام احتيالا عليه في اجابة الطلب ، فقال بسطام وقد سحر بلطف عبد الرحمن : « انك على صواب ، والحق يقال ان البربر وغيرهم من الموالى لم ينصفوا في حقوقهم بازاء العرب مثلما أنصفوا في أيامك . لقد كان أسلافك — ولا يزال كثيرون من أمراء العرب الى اليوم — يعدون المسلمين من غير العرب عبيدا ، فاذا حاربوا معهم في معركة لا يقاسمونهم الغنائم كما يقاسمون

العرب (١) ، فلا تظننا غافلين عن هذا الفضل «
 فقطع عبد الرحمن حديثه قائلاً : « أنا لم أعامل غير العرب
 الا بالعدل لأن المسلمين اخوة ، والآن اسرع الى الغنائم قبل
 اقتسامها ومعك الأمير هانىء ، واستبعدا آنية الكنيسة
 واحملها الينا لننظر فى أمر اعادتها الى أصحابها » ..

خرج بسطام وهو منتفخ الصدر بما آتته من الرعاية
 والاطراء ، ونسى ما كان فى نفسه على هانىء بسبب مريم .. وأهل
 الفظاظة والخشونة من أقرب الناس الى المصافاة لخلو قلوبهم
 من نتائج الكظم ، فاذا أساء اليهم أحد بعمل جاهر أو بما فى
 نفوسهم عليه .. فهم لا يحقدون ، وخصوصا فى موقف يشبه
 موقف بسطام بالنسبة الى مريم ، فانه كان يطلبها لأنه استلطفها
 ووعد نفسه بها ، ولكنه لم يتعلق بحبها كما فعل هانىء . أما
 هانىء فانه سار فى أثر بسطام ، وظل قلبه فى ذلك الفسباط ، أو
 لعله استعاض عنه بقلب مريم لأنها أحست عند خروجه كأن قلبها
 اقتلع من صدرها ، وخشيت الفضيحة لظهور أثر ذلك على وجهها
 فتشاغلت بإصلاح الخمار الأسود

فلما خرج الأميران التفتت المرأة الى عبد الرحمن ، وقالت :
 « هل يأذن مولاي الأمير بارسال فتاتى هذه مع هذا الشيخ
 الى مقر تقيم فيه تحت حمايتك ريثما أتم حديثى معك ونرى
 ما يكون »

(١) تاريخ التمدن الاسلامى - الجزء الثانى

فصفق عبد الرحمن وصاح : « يا غلام » فدخل أحد الغلمان ، فقال : « أبلغ هذا الشيخ وهذه الفتاة الى خباء نسائي ، وأوص قيّمة الخباء باكرامها ، وألا تعدّها في جملة الجوارى .. وانما هي ضيفة .. علينا اكرامها ورعايتها »
 فاستحسنّت المرأة ذلك والتفتت الى حسان ، وقالت : « سر يا عبّاه مع مريم في رعاية مولانا الأمير ، وكن معها حتى آتيك »
 فأشار مطيعا وخرج وهو يتوكأ على عكازه ، وخرجت مريم في أثره والغلام أمامهما

— ١١ —

بعض السر

فلما رأى عبد الرحمن من تلك المرأة التماس الخلوة ، توهّم انها ستطلعه على سرها . فلما خلوا بدأها هو بالكلام قائلا : « اطلعيني يا أخية على اسمك قبل كل شيء لأناديك على الأقل »
 قالت : « اذا كان هذا هو المراد من معرفة اسمي فنادني :
 سالمة » ..

قال عبد الرحمن : « لقد أدهشني يا سالمة ما رأيته من غريب شأنك ، وأراني كلما سمعت حديثك أزداد رغبة في استطلاع حقيقة أمرك . وكأنني بك قد التمسّت الخلوة رغبة في مكاشفتي بسرّك » ..

فأصلحت سائلة من شأنها والتفت بثوبها ، وأخفت يديها في كمها وفيه المحفظة ، ونظرت الى عبد الرحمن والاهتمام باد في عينيها ، وقالت : « اعلم أيها الأمير انك تخاطب امرأة غير عربية وغير مسلمة ، ولكنها من أشد الناس غيرة على العرب وعلى المسلمين . وأستأذن مولاي الأمير بالاختصار على ما عرفه من أمرى لأسباب ستتضح له قريباً ان شاء الله . وأما الآن ، فاني أهب نفسي لتحقيق المشروع الذي قمت لأجله .. فأبذل ما في وسعي في سبيله »

فاستغرب عبد الرحمن تسترها ، وخشى أن يكون من ورائه خديعة أو دسيسة ، فقال لها : « ومن يضمن لنا انك تقولين الصدق ؟ »

قالت : « لقد أعجبنى سوء ظنك في .. ولو لم يبد ذلك منك لاستضعفتك ، لأن من كان قائداً لمثل هذا الجند الكبير لا ينجو من أهل الخداع والدسائس ، فان لم يسئ الظن فيمن يصادفهم بات في خطر من دسائسهم . أما دعواي ، فلو صرحت لك بأمرى لهان عليك تصديقها ، ولكن الآن يكفي دليلاً على صدق ما أقول أن أجعل ابنتي ووحيدتي رهناً بين يديك ، فان بدرت مني بادرة تدل على الخيانة أو الغدر فافعل بها ما شئت » وكان كلام سائلة قد نبهه الى ما يحدث به من أسباب الخداع والمكر ، فبالغ في اساءة الظن بها فقال لها : « ومن يؤكد لنا انها ابنتك ، فان الشبه بعيد بينكما .. ويظهر انها عربية ولست

أنت كذلك » ..

فأطرقت سألمة هنيهة ، ثم قالت : « أما هذا فلا سبيل الى اثباته بغير السؤال من الفتاة نفسها والخادم الشيخ ، فانه عربى مسلم وهو وحده المطلع على سرى ، ولكنه لا يوح به الا فى حينه .. فاسألوه » . قالت ذلك ودلائل الاخلاص وصدق اللهجة يتجليان فى عينيها ، وبما بدا على وجهها من امارات الحياء والاهتمام ..

فتحقق عبد الرحمن بفراسته انها تقول الصدق ، فقال : « لقد صدقتك يا سألمة ، فاخبرينى متى يحين الوقت لكشف سرى ؟ » قالت : « ان كشف هذا السر غير مقيد بزمان ، وانما هو مرهون بحادث ، اذ لا يجوز كشفه الا بعد أن يقع هذا الحادث » قال عبد الرحمن : « وما هو ذلك الحادث ؟ »

قالت : « لا أقوله الآن ، وانما يقربنا منه صدق النية فى فتح هذه البلاد .. وهذا هو الأمر الذى وهبت نفسى له ، فاذا اذن مولاي أن أساعده فيه فعلت »

فلبت عبد الرحمن صامتا ، وهو مطرق يفكر فيما سمعه ويحلله فى ذهنه ، فرأى مفتاح السر كله فى معرفة والد الفتاة مريم .. فرفع بصره الى سألمة ، وقال وهو يلعب أطراف حمائل السيف بين أنامله : « لا بأس من تأجيل الاطلاع على سرى وانما ألتمس منك أمرا ، فهل تصدقيننى فيه ؟ .. »

قالت : « اذا استطعت ذلك فعلته »

قال عبد الرحمن : « أريد منك فقط أن تخبريني من هو والد هذه الفتاة ، وأين هو ؟ »

فلما سمعت سؤاله بغتت وتصاعد الدم الى وجهها وتغيرت سحنتها وبدأت الكتابة في جبينها وحول فمها ، وأطرقت مدة لا تتكلم ثم رفعت بصرها اليه وقد أبرقت عيناها بما ترقق فيهما من الدمع وقالت : « تسألني عن مكان أبيها وأنت تراني في هذا الثوب الأسود ؟ » . قالت ذلك وأمسكت طرف الخمار بين الابهام والسبابة ، وقد غصت بريقها

فندم عبد الرحمن على سؤاله عن المكان ، فقال : « لم أتعبد أن أذكرك بمصائبك ، بوفاة زوجك .. وانما أردت معرفة اسمه ، ولا أرى مانعا من اطلاعي عليه ونحن في خلوة ليس فيها ثالث ، وأعاهدك على كتمان ذلك عن كل انسان . اننى لا أطلب منك الاطلاع على سرى ، وانما أريد معرفة زوجك » قال ذلك وهو يتوقع اجابة على سؤاله

أما هى فلما رأت الحاحه فى معرفة اسم زوجها بدا الغضب على وجهها ، وقالت : « يظهر انى أخطأت فيما عرضته من خدمتكم وأنا أصادف ما أراه من الالاحاح على والضغط على أفكارى . لو كان التصريح باسم ذلك المسكين ممكنا لفعلت ولم أكلفك هذا ! العناء فى السؤال ، ثم انى لا أرى فائدة من ذكره الآن .. وسيأتى وقت تعرف فيه كل شىء »

فاستغرب عبد الرحمن تكتمها ، وازداد رغبة فى معرفة سرها ،

ولكنه لم ير أن يرغبها على ذلك قهرا مراعاة لشعورها وطمعها في الانتفاع بخدمتها ، فجاءها من جهة أخرى ، فقال : « حسنا.. بقى سؤال واحد أرجو ألا يكون حظى في الجواب عليه مثل حظى في سواء .. هل أقوله ؟ .. »

قالت : « قل ما بدا لك »

قال عبد الرحمن : « أرى ابتك من الجمال فيما ليس بعده غاية ، وهى فى سن الزواج ، وأنت وحيدة .. فلماذا لم تزوجها شباب تعيشين فى حمايته ؟ .. ولا ريب عندى انك تجددين من الطلاب من تقر به عينك لما هى عليه من الجمال والهيئة »
فالتفت سائلة وقد انقشعت مظاهر الكآبة عن محياها ، وتحوّل اتقباضها الى انبساط ، وقالت : « أما هذا السؤال ، فلا بأس من الجواب عليه » .

فاستبشر عبد الرحمن وقال : « وما هو ؟ »

قالت : « ان الابنة مخطوبة منذ طفولتها »

قال عبد الرحمن : « لمن ؟ .. »

قالت : « لرجل مسلم يغار على الاسلام والمسلمين ويكره الظلم والظالمين ، باسل شجاع واسع الصدر كريم النفس »
قال عبد الرحمن : « وما اسمه ؟ .. »

قالت : « لست على يقين من معرفة اسمه الآن »

قال عبد الرحمن : « وهل تعرفه ابتك ؟ .. »

قالت : « لا أعرفه أنا ولا تعرفه هي ، ولا يعرفه أحد
سوانا .. »

فدهش عبد الرحمن ، وقال : « كيف يكون ذلك يا سائلة ؟ ..
يظهر انك تمزحين أو تدافعين بالباطل »

قالت : « أقسم بالرب المعبود اننى أقول الصدق »
فقال عبد الرحمن : « وكيف تكون ابنتك مخطوبة لرجل
لا تعرفون له اسما ولا لقبا ؟ .. »

قالت : « أما لقبه ، فانا نعرفه .. »
قال عبد الرحمن : « وما هو ؟ .. »
قالت : « يلقب بفتاح بلاد الافرنج بالسيف .. ومؤيد الاسلام
خيه بالحق والعدل »



ففهم عبد الرحمن انها تريده هو ، اذ لا يصدق ذلك اللقب
على سواه . ولذلك أراد أن يتحقق من ظنه ، فقال وهو يتجاهل
مرادها : « ومتى يكون الزواج ؟ .. وأين ؟ .. »

قالت : « يجوز الزواج فى أى وقت يريد الخطيب ، ولكنه
لا يكون الا وراء نهر لوار »

قالت ذلك وهى تنظر الى عبد الرحمن نظرة استفهام ، كأنها
تقول له : « هل فهمت من هو ؟ .. »

- ١٢ -

نهر لوار

فأدرك عبد الرحمن ان المراد بتقييد الزواج بذلك المكان هو تعجيل الفتح حتى يقطع المسلمون نهر لوار ، وهو آخر حدود اkitانيا من جهة الشمال ، في الطريق الذي هم سائرون فيه . فثار في خاطره حب الفتح ، وأحس من تلك الساعة بميل الى مريم بنت سالمه ، وكان قد استلطفها منذ شاهدها في ذلك المساء ، وهو في شاغل من أمر الحرب والنصر وتنظيم الشئون ، فلما سمع ما قالته سالمه وتذكر الفتاة وما في عينيها من الجاذبية ، شعر بميل اليها أحياء فيه الأمل في الظفر بها .. وذلك أمر طبيعي في مثل هذه الحال .. فقد يرى أحدهم الفتاة مرارا ويستلطفها ، ولكنه لسبب من الأسباب لا يرجو الظفر بها ، فاذا تنسم خبرا يثير في نفسه الأمل في الحصول عليها يشعر للحال بانعطاف ينمو فيه حتى يصبح شغفا . ولا تقتصر هذه القاعدة على الحب ونحوه : بل انها تنطبق على سائر مطامع بنى الانسان باعتبار ميولهم .. فقد يكون أحدهم محبا للسلطة مثلا ، ولا يكون له مطمع فيها لاحساسه بالعجز عنها بضعفه أو فقره ، فاذا ظهر له من بعض ثقاته ان ذلك في امكانه شغف بها ، وبذل نفسه في سبيل الحصول عليها . وقد أصاب عبد الرحمن الغرضين معا لأن عبارة سالمه أثارت حماسه لاتمام الفتح ، وأحيت فيه الميل الى

مريم .. فاكتمى بما دار من هذا القبيل ، ثلثا يبدو منه ما لا يليق
 بمكاته .. فتجاهل وعاد الى مجاراتها في كتمان اسم زوجها
 وهدفها من الاندفاع الى مساعدتهم ، على أمل أن يعرف ذلك
 في فرصة أخرى ، وقال لها : « دعينا الآن من هذا .. واخبريني
 ما الذي تنوين مساعدتنا فيه لتحقيق هذا الفتح ؟ »
 قالت : « ليس لي سيف أفاضل به عنكم أو أشارك فيه
 معكم ، ولكنني خبرت طبيعة هذه البلاد وعرفت من أحوالها
 ما لو عرفه المسلمون لفتحوها على أهون سبيل »
 فقال عبد الرحمن : « وما ذاك ؟ »

قالت : « هل يخفى على الأمير عبد الرحمن ان الغالين أهل
 هذه البلاد هم غير الافرنج الذين يحاربونكم ليمنعوك منها ؟ ..
 وان الدوق أود حاكم اكيثانيا هذه وجنده ليسوا أقرب الى
 قلوب الغالين من قائد جند المسلمين ورجاله ؟ »
 قال عبد الرحمن : « وكيف ذلك ؟ »

قالت : « ان سكان هذه البلاد أخلاط من الروم والغال ..
 ومعنى ذلك ان الغالين أهل هذه البلاد الأصليين كانوا أمة
 كبيرة ، وقد ظلوا في حال البداوة والاستقلال حتى جاءهم الروم
 في القرن الأول قبل الميلاد ففتحوها على يد يوليوس قيصر
 القائد الشهير ، وما زالت في حوزتهم نحو خمسة قرون ، وقد
 ضعفت دولة الروم فهاجمتها قبائل الجرمان من الشمال كما
 هاجمتها قبائل العرب بعد ذلك من الجنوب .. والافرنج احدى

قبائل الجرمان ففتحوا غالبا هذه واستولوا عليها ، ويعرف
 حكامهم بعائلة ميروفي نسبة الى أول من تولاهم منهم . وتوالى
 الحكم في هذه العائلة الى الأمس ، وقد أفضى الأمر الى ملوك
 ضعفاء طمع فيهم وزرأؤهم وأمراؤهم فاقسموا البلاد بينهم .
 ومن أقسامها اkitانيا التي نحن فيها ، وآخر حدودها من الشمال
 نهر لوار ويحكمها الدوق أود صاحبكم ، ثم أوستراسيا وراء
 هذا النهر وحاكمها شارل (قارله) وزير آخر ملوك الميروفية
 وكلاهما من قبائل الفرنك . ولكن كلا منهما ينظر الى الآخر بعين
 الحذر ، والأهالي ينظرون الى كليهما بعين المقت لعلمهم انهما
 انما يرغبان في فتح بلادهم للتمتع بها . ثم جئتم أتمم والفتح اما
 لكم واما لهما . فالغاليون محكومون في الحالتين ، ولا يهمهم
 لمن تكون الغلبة من الجندين الا اذا رأوا في أحدهما ميزة على
 الآخر تضمن لهم مصلحتهم وراحتهم »

فلم يتمالك عبد الرحمن أن قطع حديثها بقوله : « وبالطبع
 هم يفضلون الافرنج لأنهم نصارى مثلهم ؟ .. »

فابتسمت سائلة وقالت : « ليس الأمر كذلك يامولاي .. ان
 الدين لا دخل له في هذه الحرب ، وانما ساق قبائل الافرنج
 الى هذا الفتح حب السلطة والطمع في الكسب ، ولذلك فانهم
 انقسموا فيما بينهم ، فان أود حاكم اkitانيا التي نحن فيها الآن
 يحاذر من شارل حاكم اوستراسيا كما قدمت ، ويخشى سلطانه ،
 وكل منهما يجتهد في الانتقاص من الآخر في عين الأهالي .. »

وهؤلاء ييغضون كليهما لأنهم لم يروا في معاملتهما ما يبشرهم بخير لما تعلمونه من عاداتهم في استعباد الرعية وابتزاز أموالهم وسائر قواهم .. خلافا للعرب عند أول الفتح ، فانهم لما فتحوا أسبانيا تركوا لأهلها الحرية في كل معاملاتهم ، ولم يتعرضوا لهم في شيء من دينهم ، وأفضل أمراء المسلمين في ذلك موسى ابن نصير وابنه عبد العزيز .. وخصوصا هذا الأخير ، ولو لم يعجلوا عليه — رحمه الله — لفتحت هذه البلاد على يده .. اذ أحسَّ الأسبان في أيامه أنهم انتقلوا من الضيق الى الفرج ، ولكنهم لما لبثوا أن ذاقوا مرارة الظلم من بعض الذين خلفوه من أمراء المسلمين ، ثم أفضت الامارة اليكم : وبلغنى انكم سائرون على خطة ذلك الفاتح العظيم في محاسبة الناس وانصاف أهل الذمة ، ورعاية اليهود معهم فيما يتعلق بكنائسهم وديانتهم ، وقد تحقق لى ذلك الآن .. فالغاليون اذا ضمنوا سلامتهم وسلامة أهلهم ومعايشهم على يد المسلمين ، فانهم يكونون عوناً لهم على الفتح ولا تنس اليهود فانهم أنصاركم في كل فتوحاتكم من أول ظهور الاسلام .. فهؤلاء انما نصروكم حينما تحققوا مما تنوونه من أسباب الراحة لهم ، وكذلك النصارى وغيرهم من أهل هذه البلاد . وأما ما يبدو لكم من شارات النصرانية والغيرة عليها فمحصور في طائفة الاكليروس ، ومن يهتم نصرته الكنيسة من بقايا الرومان ، ومن اتتمى اليهم من الغاليين . أما قبائل الافرنج ، فبينهم من اتخذ الدين ذريعة للسلطة وكسب الأموال كما فعل

بعض قبائل البربر وغيرهم من جنودكم «
 فلما سمع عبد الرحمن قولها ، تحقق من سداد رأيه فيما شرع
 فيه من محاسبة أهل الذمة وتوخي العدل والانصاف ، وقال :
 « أنت تعلمين اني فاعل ذلك من تلقاء نفسي ، فما الذي تفعلينه
 أنت في هذا السبيل ؟ »

قالت : « اني أقدم نفسي للذهاب في أية مهمة تفرضونها ،
 والأفضل على ما أرى أن أتقدمكم في البلاد التي تنوون المسير
 لفتحها ، فأغرس في قلوب أهلها الاطمئنان للمسلمين وسلطانهم ،
 ويساعدني على ذلك مبالغتكم في اكرام نصارى بوردو وطمأننة
 قلوبهم ومحاسنتهم واحترام شعائر دينهم والمحافظة على أعراضهم
 وأرواحهم ، فإذا فعلتهم ذلك هان على اقناع أولئك بأن المسلمين
 الفاتحين أهل حرمة وذمام ، يخافون الله ويعملون بالعدل ، وليس
 كما يتوهم بعض ذوى الأغراض ان المسلمين قساة القلوب لا
 دين يردعهم عن ارتكاب المحرمات ولا حنان في قلوبهم يمنعهم
 من الظلم والعسف (١) . وقد حمل الناس على تصديق ذلك ما
 كان يرتكبه بعض الذين كانوا يرافقون جند المسلمين لمجرد
 الرغبة في النهب والقتل ، ولم يكن أميرهم حكيما عاقلا مثل عبد
 الرحمن ليصلح ما يفسدونه مما رأيناه منه في هذا المساء » .
 فازداد عبد الرحمن اعجابا بتفكير تلك المرأة وغيرها على
 المسلمين ، وقال : « افعلنى ما يتراءى لك واني فاعل بنصارى

(١) روى . - الجزء الثالث : دینو

يوردو ما تريدينه ، فما الذى يرضيهم ؟ »
 فقالت : « انما يرضيهم المحافظة على شعائهم الدينية
 واستبقاء كنائسهم ومعابدهم ثم رد أسراهم بالفدية مثلما جرت
 العادة . وهناك أمر ذو بال أوجه نظرهم اليه ، وذلك ان يبع
 الأسرى النصارى الى اليهود مما يسىء الى النصارى لما تعلمه من
 الضغائن بين الطائفتين ، وخصوصا بعد ما ظهر من ممالأة اليهود
 لكم وتسهيل الفتح عليكم »

فقطع عبد الرحمن كلامها قائلاً : « ولكن اليهود تجار نبيعهم
 الأسرى بالمال ، فمن أراد من أهل البلاد أن يفتدى أسيره
 باقتداه منهم بالمال »

قالت : « ولكن بعض اليهود يتعاونون الأسرى للتكيل بهم
 تشفيا مما كان النصارى يسومونهم اياه من قبل ، وكثيرا ما كان
 اليهود يتعاونون الأسرى النصارى ويذبحونهم (١) فاذا تجنبت
 هذا الأمر كان خيرا على كل حال »

- ١٣ -

الآنية

ولم تتم سائلة حديثها حتى سمعوا قرقرة وضوضاء خارج
 البسطة ، ثم دخل أحد الغلمان وهو يقول : « الأمير هانىء

(١) تاريخ التمدن الاسلامى - الجزء الاول

بالباب ، ومعه أناس يحملون أكياسا »
ثم دخل هانىء ووراءه عبيد يحملون أكياسا وأدوات وهو
يقول : « هذه أدوات الكنيسة لم نستطع جمعها الا بشق
الأنفس ، لأنها كانت قد وزعت بين أصحاب الغنائم » قال ذلك
وأمر الرجال أن يفرغوا ما فى الأكياس بين يدى الأمير ، ولم
تمض لحظة حتى امتلأ البساط بالشمعدانات والصلبان
والكئوس وفيها الفضة والذهب ، فضلا عن أنواع من الملائق
والصحون والصور المذهبة والمفضضة وقطع من الذهب اقتلعوها
من التماثيل الكبيرة التى لم يستطيعوا حملها من جدران الهيكل
وأعمدته ..

فلما خرج الضالون ولم يبق فى الخيمة الا عبد الرحمن وهانىء
وسالمة ، التفت عبد الرحمن الى سالمة وقال لها : « هذه هى
الآنية ، فماذا تفعل بها ؟ »

قالت : « أرى أن نرسلها الى أسقف الكنيسة فى بوردو مع
رجل يخبره أن نهب هذه الكنيسة قد وقع بغير ارادتك .. ثم
يعتذر له عن ذلك ويخبره بأن الأسرى باقون الى مساء الغد فى
هذا المعسكر فمن أراد أن يفتدى أسيره افتداه ولا حرج عليه .
وبعد رجوع الرسول أذهب أنا الى الأسقف ، فاغتنم فرصة
اعجابه برفق المسلمين وعدلهم وأطلب اليه أن يحاول اقناع أهل
البلاد الأخرى الواقعة فى طريقكم الى نهر لوار بالمراسلة بأن
المسلمين أرفق بهم من الافرنج ، وانهم سيكونون تحت حكم

المسلمين أحرارا في دياتهم وعاداتهم وحكومتهم وقضائهم
وسائر أحوالهم كما كان أهل الأندلس في أول الفتح «
فلم يستطع عبد الرحمن أن يزيد على رأى سالمة كلمة واحدة
ولم يزد الا اعجابا بسداد رأيها وسعة اطلاعها فقال لها :
« فليكن ما تقولين ، ويجب أن يبقى كل ما دار بيننا مكتوما
عن كل انسان غيرنا ، لئلا يفسدوا سعيينا ، والتفت الى هانىء
وقال له : « اعهد الى رجل من خاصتك تثق برجاجة تفكيره
وحسن أسلوبه أن يوصل هذه الآنية الى الأسقف ويبلغه هذه
الرسالة » ..

ولم يكن هانىء أقل اعجابا بسالمة من عبد الرحمن . فلما
سمع رأيها استحسنه ، وزاد احترامه لها وحبها لابنتها ، وبادر
في الحال الى رجال حملهم الآنية وخرج لانجاز تلك المهمة
ثم نهضت سالمة والتمست من عبد الرحمن أن يرسلها الى
مقر ابنتها لتبيت هناك الى الصباح ، ثم تخرج لمهنتها .. فأراد
عبد الرحمن المبالغة في اكرامها فطلب هانئا مرة أخرى وقال :
« ادع لى رجلا من خاصتك يصحب سالمة الى خباء النساء
حيث تقيم ابنتها »

فاعتبر هانىء تلك المهمة فرصة يجب اغتنامها فقال : « ومثل
هذه السيدة الفاضلة لا يليق لخدمتها غير الأمراء .. انى ذاهب
الى قرب ذلك الخباء ، ولذلك فانى سأصحبها اليه »
فاستحسن عبد الرحمن شعور هانىء في احترام سالمة تشجيعا

لها فابتسم وقال : « يورك فيك .. انها أهل لأكثر من ذلك »
 فمشت سائلة في اثر هانىء وظل عبد الرحمن وحده وقد بهره
 ما شاهده في ذلك المساء من الغرائب ، وتوسم خيرا في نجاح
 حملته وزاد رغبة في تفقد جنده والسهر على جمع كلمته

- ١٤ -

الخباء

أما مريم فانها خرجت مع خادمها حسان من خيمة الأمير عبد
 الرحمن والغلام دليلهما الى الخباء كما تقدم .. وكان الليل قد
 أسدل ستاره فمكثت مريم وحدها وقد شغلها حب هانىء
 وأحست بجاذبية تجذبها نحوه لا تدري ما هى .. وقد ذهب
 من خاطرها ما كانت تسمعه من والدتها عن أهمية مستقبلها ،
 والواقع انها لم تسمع منها شيئا صريحا بهذا الشأن .. ولكنها
 كانت تحملها على اتقان النطق باللغة العربية ، وتعليمها ركوب
 الخيل وفنون الفروسية وسائر الألعاب الرياضية ، حتى خشنت
 عظامها وقوى عضلها وشبت على الحمية وعزة النفس والشجاعة ،
 ولكن رقة الجنس اللطيف ظلت غالبة على طبيعتها .. وانما
 زادت تلك الرياضة صحة ، وأكسبت وجهها رونقا واشراقا
 مشت في اثر الغلام وبجانبا حسان يتوكأ على عكازه بنشاط
 وخفة ، وقد تزل بقبائه وعلى رأسه قبعة (طاقية) قد لصقت من

كل أجزائها برأسه ، وكان رأسه حليقا فظهرت كأنها جلد ثان له ، فمروا في أثناء الطريق بجماعات من الرجال كل جماعة من قبيلة ، بعضهم في الخيام والبعض الآخر فيما بينها وقد علت الضوضاء . وأكثر ما يسمع من أصوات الرجال عبارات الاختصام على قسمة الغنائم ، وخصوصا ما كان ثميناً من الأثواب الموشاة أو الآنية الذهب أو الفضة أو الدروع أو الطنافس ، وربما أفضى الخصام في بعضها الى تجزئتها الى قطع وتوزيعها بين المختصين على حين ان أجزاءها لا تفيدهم شيئا . وكانت مريم تسمع أصوات الأمراء يهددون رجالهم أو يوبخونهم ، ولا تسل عن قلبها حينما سمعت صوت هانىء في خيمته على بعد بضع خطوات منها وهو يحاسن بعض الناس ، ليقنعهم بتسليم آنية الكنيسة عملا بإشارة عبد الرحمن . فلما سمعت صوته اختلج قلبها في صدرها ، وودت لو أنها وقفت هناك برهة لتسمع حديث حبيبها وتستأس بصوته ، وتمنت لو أن الخباء كان على مقربة منها ليمر بها هانىء اذا خرج . فنادت الغلام وسألته عن موقع الخباء فقال : « انه خارج هذا المعسكر يامولاتى »

قالت : « وهل هو بعيد عنا ؟ .. »

فمد الغلام عنقه وهو ينظر نحو الأفق ثم قال : « ان الخباء ياسيدتى بالقرب من هذه النار » وأشار بأصبعه الى نار موقدة وراء حدود المعسكر

فنظرت مريم فاذا هى لا تزال بعيدة عن المكان فقالت :

« ولماذا جعلوا الخباء بعيدا بهذا المقدار ؟ .. »

قال : « لأنه دار النساء ، والعادة في هذه الدور أن تقام خارج المعسكر .. ومتى وصلنا الى هناك ترين أخبية عديدة لنساء الأمراء والقواد وغيرهم من رجال الجند ، ولولا من يقوم بخدمتهن من الخدم والخصيان والعبيد لحسبت نفسك في مدينة من النساء .. »

فصبرت مريم نفسها وسكتت وهي تجدد في المشي ، وحسان الى جانبها يمشي ساكتا ، وكأنه استأنس بصوت خفق نعاله ووقع عكازه على الحجارة ، حتى اذا خرجوا من المعسكر سمعت عند خروجهم أصواتا آتية من أطراف المعسكر تشبه أن تكون تهديدا فأجفلت وتراجعت فطمأنها حسان قائلا : « لا تخافى يا بنية ان حراس الجند يطلبون منا شعار الليل ، فاذا لم نجيبهم به اشتبهوا في أمرنا »

فقالت : « وكيف ذلك ؟ .. وما هو الجواب ؟ .. »

قال : « هو عند هذا الغلام » والتفت اليه ليسأله فاذا به يقول بصوت عال جوابا على ما قاله الحراس : « طليطلة وقرطبة » فتحول حسان نحو مريم وقال : « هذا هو شعارهم الذى يتعارفون به اليوم » . فسكت الحراس ، ومشى مريم وحسان على أثر الغلام حتى انتهوا الى الأخبية فسمعوا من حراسها مثل ذلك النداء فأجابوا عليه مثل ذلك الجواب . واتجه بهم الغلام الى خباء منفرد أمامه نار عظيمة فعلمت مريم انه الخباء الذى

تقصده . فلما دنت منه رأت الخدم ببابه وفيهم البيض من الصقالبة الذين يباعون في تلك البلاد والسود والزنوج الذين رافقوا الحملة من افريقيا وأكثرهم من الخصيان . ولما أقبلت مريم على الخباء تأملت فيه ، فاذا هو يتكون من بناء من نسيج أحمر متين مربع الشكل قائم على أعمدة من الخشب مخيطة بالقماش . وربما بلغت مساحة الخباء خمسين ذراعا في خمسين ، يكتنفه سور من ذلك النسيج مسند بالأعمدة ومشدود الى الأرض بالأوتاد والأمراس . وسقف الخباء يشبه قبة كبيرة صنعت من ذلك النسيج قائمة على عمد متينة ، وقد قسم الخباء داخل السور الى غرف وأفنية يفصل بينها جدران من نسيج أخضر مسندة بالعمد أيضا

وبينما هي تتأمل في ذلك البناء أقبل عليهم رجل من خصيان الخباء أبيض اللون ، عرفت مريم من سحنته انه صقلبي .. فاستقبله الغلام وتعارفا وتفاهما . وكان الغلام قد أفهم الخصى المهمة التي قدم من أجلها فتركه وهو يقول بلسان عربى تخالطه عجمة : « انى ذاهب الى القهرمانة قيمة الخباء أستقدمها لاستقبالها » ومضى حتى دخل الخباء فوقفت مريم وحسان والغلام في انتظاره ثم عاد وهو يقول : « تفضلى يامولاتى بالدخول ويبقى خادمك معنا فى اكرام ورعاية »

فمشت مريم وقد التفت بثوبها وأصلحت. تقابها الأسود وتعهدت شعزها استعدادا لاستقبال القهرمانة قيمة الخباء .

فدخلت باب الخباء في أثر الخصى ، فرأت نفسها في دهليز انتهت منه الى شبه قاعة فيها مصباح أضيء بالزيت وقد علقوه بحبل في سقف الخباء بين عمودين من أعمدته ، ولم تشك مريم في انه من مصاييح احدى الكنائس في البلاد التي فتحوها . وكانت أرض الخباء مفروشة بأبسطة ثمينة ، وكان بالخباء معظم ما يحتاجون اليه من الآنية الضرورية كأن أهله مقيمون هناك منذ أعوام ..

فلما دخلت القاعة سبقها الخصى وأخبر القهرمانة ، فتقدمت لاستقبال ضيفتها . وكانت القهرمانة مفرطة في البدانة ، ثقيلة الحركة ، عريضة الوجه ، كبيرة العينين ، خشنة الصوت ، متدلية الخدين ، غليظة الشفتين ، قد نبت على شفتها العليا وحول ذقنها شعر متفرق مستطيل ، وقد غطت صدرها وعنقها بالقلائد والعقود وفيها الذهب بين مرصع وغير مرصع ، وحول زنديها الأساور والدمالج ، وفي أذنيها الأقراط وفي رجليها الخلاخل ، حتى ليكاد الناظر اليها وهي تمشي وتتوكأ على فخذيها يتوهم انها تنوء تحت أثقال تلك الحلى ، مع ان دلائل القوة ظاهرة في ضخامة وجهها ووضوح تقاطيعها . وكان بينها وبين عبد الرحمن قرابة نسائية ، وقد ألقى اليها مقاليد خبائه وفوض اليها تدبير شئون نسائه وجواريه ، وفيهن القوطيات والصقلييات والروميات والبربريات وغيرهن . فلما رأت مريم وما هي فيه من الجمال والهيبة وخفة الروح أحببتها ، فاستقبلتها ورحبت بها وخصوصا

بعد أن علمت برغبة عبد الرحمن في اكرامها . وكانت مريم قد استوحشت من منظر تلك القهرمانة ، فلما سمعت ترحابها استأنست بها ، وهمت بتقبيل يدها فامتعت وقالت لها : « أهلا بك يا حبيبتي .. ما اسمك ؟ .. »

قالت : « اسمى مريم » ولفظت الراء غينا فاستلظفت تلك اللثغة منها ودعتها الى الجلوس على البساط ، ثم نادى بعض الخدم فجاءوها بالطعام ، وكانت لم تذوق طعاما من صباح ذلك اليوم ، فأكلت ثم جلست والقهرمانة تحادثها وتسألها أسئلة كثيرة ومريم تجيبها وهى فى شغل بما جال فى خاطرها من أمر هانىء ، وكلما تذكرته خفق قلبها وأسمرت ضرباته .. فلما رأتها القهرمانة قلقة منقبضة ، حسبت ذلك من أثر الوحشة . وتذكرت ما أوصى به عبد الرحمن من اكرامها ، ففكرت فى طريقة تدخل البهجة فى نفسها . وبعد اعمال الفكرة مدة ومريم صامته قالت العجوز : « يظهر ان حديث العجائز لم يرق لك وقد أوصانى الأمير باكرامك ورعايتك ، ولعل من أسباب شعورك بالوحشة قرب عهدك بالأسر ويسوءك انك أخذت من أهلك ، فاعلمى انك ستكونين عندنا كأنك بين أهلك . وانى سأدعو لك من نساء هذا الخباء امرأة أصلها من أهل هذه البلاد، وقد تعلمت العربية ، وهى بارعة الجمال ولها منزلة رفيعة عند الأمير فأظنك اذا لقيتها استأنست بها » . قالت ذلك وشفقت فدخل خصى من الصقالبة وتأدب فى موقفه فقالت له : « قل

لميمونة ان القهرمانة تدعوك اليها » فخرج الخصى فالتفتت القهرمانة الى مريم وقالت : « أظنك تستأنسين بميمونة لأنها من أعز أهل هذا الخباء على الأمير وهي فى الأصل من جوارى لمباجة بنت الدوق أود صاحب هذه البلاد . أظنك تعرفين حكايته مع المنيزر الافريقى أحد أمراء المسلمين الذى كان واليا فى الجبال على حدود اسبانيا وكان قد أبرم مع الدوق أود معاهدة لا تعرف فحواها ، ولكننا علمنا ان أود زوج ابنته للمنيزر المذكور ، فخشى أميرنا عبد الرحمن مما ينطوى عليه ذلك الاتفاق ، فلما مر بالجبال وهو قادم لهذا الفتح قتل المنيزر واستولى الجند على أمواله ونسائه وأرسلوا امرأته لمباجة الى الخليفة فى دمشق . فكان من نصيب الأمير عبد الرحمن ميمونة هذه . ويقال انها كانت أعز جوارى لمباجة اليها وأشبههن بها جمالا وقد اوتعتقلا ، وسترينها الساعة »

— ١٥ —

ميمونة

ولم تتم القهرمانة كلامها حتى دخل الخصى ولم يتكلم فعلمت ان ميمونة قادمة فى اثره . ثم دخلت ميمونة وعليها ثوب ارجوانى واسع الكمين طويل الأردان ينسحب وراءها مع طول قامتها واعتدالها ، ولها شعر ذهبى طويل قد ضمته حزمة واحدة وأرسلته على ظهرها ، ولو تأملته جيدا لرأيت ذهيبا ناصعا ، واذا

تفرست فيه وأنت الى جانبها رأيت فيه ميلا الى الشقرة اللامعة .
ومع ذلك فقد كانت سوداء العينين واسعتها طويلة الأهداب
سوداءها . وترى في عينيها لمعانا يدل على الذكاء والدهاء أكثر
مما يدل على الصدق والوفاء . وكانت صغيرة الأنف مطمئنة
الفم ، رقيقة الشفتين ، بارزة الذقن ، بيضاء البشرة ، وخصوصا
العنق مع صفاء اللون . فلم تتمالك مريم عند وقوع نظرها عليها
من الاعجاب بما يتجلى على وجهها من الهيبة والجمال ، ورأت
نفسها مظلمة منقبضة بما التفت به من الكساء الأسود

فلما دخلت ميمونة ووقع نظرها على مريم هشت لها وابتسمت
ابتسامة انفتح لها قلب الفتاة ، وأحست للحال بأنس أنساها
ما كانت فيه من القلق ، وأجابتها بابتسامة يتوسم المتفرس فيها
غير ما يتوسمه في ابتسامة تلك ، ولا يميز ذلك الا الناقد
البصير . دنت ميمونة من مريم وحيتها ورحبت بها كأنها كانت
على موعد من لقاءها أو كأنها تعرفها من زمن طويل ، فازدادت
مريم استئناسا وطمأنينة ونسيت ما سبق الى ذهنها من التهيّب
عند مقابلة القهرمانة . أما هذه فانها عندما دخلت ميمونة خاطبت
مريم قائلة : « هذه هي ميمونة التي أخبرتك عنها الساعة فأرجو
أن تستأنسى بها وترتاحى الى مجالستها » وأشارت الى ميمونة
وقالت : « هذه ضيفة الأمير عبد الرحمن قد بعث بها إلينا
وأوصانا برعايتها »

فجلست ميمونة الى جانب مريم وهى تقول : « أهلا بالضيفة

الكريمة ، من أين أتيت يا حبيبتى ؟ » . قالت ذلك بكلام عربى تخالطه لهجة افرنجية ، فأدركت مريم من ملامح وجهها ومن لهجتها انها افرنجية الأصل كما قالت لها القهرمانة فأجابتها : « قد كنت فى جملة أهل بوردو الذين قضى عليهم بالوقوع فى أسر هذا الجند »

قالت : « هل قبضوا عليك وحدك وليس معك أحد من أهلك ؟ .. »

قالت : « كلا .. ولكنهم قبضوا على والدتى أيضا وخادم شيخ تركته مع خدم هذا الخباء خارجا »
قالت : « أراك تتكلمين العربية جيدا وتقولين انك من أهل بوردو فكيف ذلك ؟ .. »

قالت : « لا أدرى السبب ولكن هذا هو الواقع » . قالت ذلك وهى تعلم ان والدتها لا تريد التصريح بأكثر منه فقالت : « وهل قتل أبوك فى هذا الفتح ؟ .. »
قالت : « كلا .. »

فقالت : « وهل أسر ؟ .. أو فر ؟ .. »
فسكتت وأومأت برأسها أن : « لا هذا ولا ذاك .. »
فأدركت ميمونة أن والدها توفى من قبل ، ولكنها لم تكتف بذلك فقالت : « وما اسم والدتك ، لعلى أعرفها ؟ .. »
قالت : « اسمها سالمة .. »
قالت : « هى اذن عربية .. »

قالت : « لا أدري .. »

وكانت ميمونة في أثناء تلك المحادثة تنفرس في وجه تلك الفتاة وتستحث ذاكرتها لتستحضر صورة مثل صورتها ، اذ خيل لها انها تعرفها من قبل .. وأطالت السؤال لعلها تستدل على ذلك من كلامها ، فلما رأتها قطعت الحديث بقولها : « لا أدري » عدلت عن زيادة البحث ، والتفتت الى القهرمانة فرأتها قد أدلت رأسها على صدرها ونامت وأخذت في الشخير ، فقالت لمريم : « هلم بنا الى غرفتي فتمكثين عندي أثناء هذه الضيافة » فأطاعتها مريم ونهضت معها ، وتحولت الى غرفة من غرف الخباء فجلستا هناك ، وقد عادت ميمونة تستنجد بذاكرتها لعلها تستحضر صورة ذلك الوجه وأين شاهده ، ومريم في غفلة عن ذلك وفي شاغل مما عاد الى ذهنها من الهواجس بشأن هانيء وما تركه في فؤادها من لواعج الحب ، فغلب الانقباض عليها وبدأت في وجهها ملامح الاضطراب وظلتا صامتين مدة وكل منهما تضطرب في أحلامها ، واذا بصوت القهرمانة يقرع الآذان وهي تنادي : « ميمونة .. مريم »

- ١٦ -

سرّان

فدعرتا وخافت ميمونة من غضب القهرمانة لئلا تعد خروجها

من عندها على تلك الصورة ذنبا ، فتشكوها الى الأمير أو تسيء معاملتها لأنها الآمرة الناهية في أهل ذلك الخباء .. وللقهرمانات نفوذ عظيم في بيوت الأمراء والخلفاء والسلاطين في كل العصور ، وإذا كان الأمير أو الخليفة ضعيفا أصبحت القهرمانة صاحبة الأمر والنهى حتى في أعمال الحكومة ، تعزل وتولى وتسجن وتطلق كما تشاء .. فلما سمعت ميمونة نداءها نهضت للحال ، فنهضت مريم معها ومشيتا نحو القاعة ودخلتا ، وإذا هناك امرأة بلباس أسود يجللها من رأسها الى قدمها .. فلما رأتها علمت انها والدتها فتقدمت اليها وسلمت عليها فقبَّلَتها سالمة ، أما ميمونة فلم تكد تنفرس في وجه سالمة حتى ابجلت لها الصورة التي كانت تستحث الذاكرة في استحضارها ، فبدت في وجهها امارات الاضطراب والبعثة ولكنها تغلبت على عواطفها وتقدمت للسلام على سالمة وهي تهش لها وترحب بها . أما سالمة فحين وقع نظرها على ميمونة عرفت انها فخر قلبها دهشة لأنها لم تكن تتوقع ان ترى ذلك الوجه هناك ولا في أوربا ، فردت السلام عليها ببرود وهي تنفرس في وجهها لتحقيق ظنها فيها ، وميمونة تغالطها بعبارات الترحاب والمجاملة والممازحة كقولها : « لقد سرنى انك هنا سرورا مزدوجا لسبيين : الأول اننى استأنست بك وفرحت لفرح حبيبتي مريم برؤيتك ، وان لم يسبق لى شرف التعرف اليك ، والثانى لأن نداء خالتي القهرمانة لم يكن نتيجة غضب على » . قالت ذلك وضحكت وتشاغلت باصلاح شعرها هنيهة ،

ثم عادت الى الكلام وهى تعبث بكم ثوبها وتضحك وعيناها تبرقان ، وقالت : « مرحبا بك ، لقد أتيت أهلا فعسى أن نقضى مدة اقامتنا هنا معا بسرور »

ثم وضعت ميمونة يدها على كتف مريم كأنها تحاول ضمها اليها ، وقالت : « ولا تلومينى اذا أحببت ابنتك من أول نظرة فانها تعشق لما خصتها به العناية الالهية من اللطف والجمال ، فلا غرو اذا لاقت من الأمير عبد الرحمن هذه العناية والاکرام » وكانت ميمونة تتكلم وهى تضحك فى ظرف ، وسائلة تحقق فيها وتبين لهجة كلامها ونعمة صوتها لتحقيق ظنها فى معرفتها ، واستغرقت فى التفكير ، وتحيرت فيما عمله بعد أن علمت حقيقة تلك المرأة التى سمّت نفسها ميمونة وما هى ميمونة ، وتظاهرت بأنها من جملة نساء ذلك الجند الداعيات بدعوة المسلمين ، وقد تكون بلاء كبيرا على الجند وأهله .. فتحيرت سائلة بين أن تكشف أمرها أو أن تكتم خبرها وتتجاهل .. على انها لاحظت من ناحية أخرى ان ميمونة عرفت وعرفت حقيقتها ، فخشيت ان تبوح بها الى أحد وهى تود بقاء أمرها مكتوما كما علمت ، فعزمت على التجاهل مؤقتا لترى ما يكون فقالت : « انه ليسرنى أيضا أن تلازم ابنتى أختا حنونة مثلك ، وأن تكون فى رعاية الخالة . أيدها الله » . قالت ذلك وأشارت الى القهرمانة فضحكت العجوز حتى بانث لثتها وليس فيها من الأسنان القواطع الا اثنتان ، واحدة فى الفك العلوى ، والأخرى فى الفك الأسفل ،

وبينهما ثغرة مربعة الشكل ثم قالت : « ان ابتك يا سالة ضيفة عندي وما للضيف غير الكرامة ، وليست هي من نساء هذا الخباء أو سراريه أو جواريه ليجرى عليها الأمر والنهي » فقطعت سالة كلامها قائلة : « لا أعدها الا تحت أمرك ، واذا شئت أن تعتبرها ابنة لك كان ذلك من بعض فضلك » . فهتت القهرمانة بالوقوف وهي لبدايتها لا تستطيع النهوض الا بالاعتماد على يديها والتوكؤ كأنها تحمل حملا أثقل كاهلها . فلما قاربت الوقوف ، قالت : « هي ابنتي وأعز من ابنتي ، ولذلك فاني عهدت برعايتها الى أحب أهل هذا الخباء للأمير عبد الرحمن » وأشارت الى ميمونة

فأتمت ميمونة عبارتها قائلة : « كوني مطمئنة يا سالة ، فان مريم عندنا كأنها في رعايتك ... ومن يستطيع أن يرى هذا الوجه ولا يحبه ويتعشقه . ولا يفرك محيئها إلينا باسم الضيفة ، فان الأمير لا يلبث أن يراها حتى يتعلق بها ويود استبقاءها عنده ، فيزيد بذلك سرورنا ونفرح ببقائها بيننا » . قالت ذلك ونظرت الى مريم وابتسمت

فلما سمعت مريم ذلك بدت البغته في وجهها ، وخشيت أن يصح قولها فتخسر حبيبها وتضيع آمالها .. فتصاعد الدم الى وجهها حتى اصطبغ وأطرقت ، فظنت ميمونة انها أطرقت حياء على عادة الفتيات اذا خوطبن بمثل ذلك

فقطعت القهرمانة الحديث بقولها : « هلم بنا الآن الى النوم ،

فقد مضى معظم الليل « وصنفت فخالط صوت التصفيق خشخشة الأساور والدمالج ، وجاء أحد الخصيان فقالت له : « أعد غرفة خاصة بالضيفتين »

فقالت ميمونة للقهرمانة : « اجعليها بقرب غرفتي ان لم تكن هي نفسها ، لأنني قد استأنست بالحبيبة مريم وهي استأنست بي » فأشارت القهرمانة الى الخصى أن يفعل ..

— ١٧ —

العقد

وبعد قليل عاد الغلام وقال انه أعد كل شيء ، فانصرف جميعا وسارت سائلة ومريم في اثر الغلام نحو الغرفة ، وقبل أن تصلا اليها سمعتا صهيل فرس اختلج له قلب مريم اختلاجا سريعا لأنه يشبه صهيل جواد هانيء ، فلم تتمالك أن سألت والدتها قائلة : « كأنني أسمع صهيل فرس الأمير هانيء ، فهل هو هنا ؟ .. » قالت : « لقد جاء معي الى هذا المكان ، وكنت أحسبه قد عاد فور وصوله لأنه سائر في مهمة ذات بال تتعلق بأسقف بوربدو ، فالظاهر انه في شغل مؤقت هنا ، ثم ينصرف » فتوسمت مريم من بقاءه هناك خيرا ، ودلتها قلبها على انه انما بقي لمشاهدتها ، فانشغل خاطرها في ذلك الأمر ، وظهر الارتباك على وجهها .. ولو تفرست أمها فيها لرأت في عينيها

ارتباكاً وتفكيراً وقلقاً ، ولكنها لم تنتبه لشيء من ذلك لانشغالها بأمر نفسها واستعدادها للمسير في الغد الى بوردو

أما القهرمانه ، فلما خلت بنفسها أخرجت من جيبها منديلاً مطويًا على شيء في داخله ، ومشيت نحو المصباح وفتحت المنديل ، وأخرجت منه عقداً من اللؤلؤ بسلاسل من الذهب ، وفي وسط العقد صليب من الذهب مرصع بالياقوت والماس على شكل بديع ، فوضعت العقد على كفها تلبية وهي تبسم وتقول في نفسها : « لا بد من غرض لهانيء في اهدائه هذا العقد لي ، والا فليس في وجهي ولا في قامتي ما يدعو الى الشغف أو العشق ، ولا هو يحتاج الى وساطتي لدى عبد الرحمن لأنه صاحب الكلمة النافذة عنده » ثم أمسكت العقد بأحد طرفيه بين اصبعيها ورفعته أمام المصباح فأبرق بما فيه من الحجارة الكريمة ، فقالت : لا شك ان هذا العقد من جملة ما أصاب هانيء من الغنائم في وقعة اليوم ، فلا يهمل أن يتنازل عنه.. ولكن لا بد له من غرض في اهدائه » ثم تنبته بغتة وقالت في نفسها : « عرفت غرضه .. ولا بأس به » ثم صفقت فدخل غلامها فقالت له : « قل للأمير هانيء أن يوافيني الى غرفتي من بابها الخارجي .. خذ بيده الى هناك » قالت ذلك وأعدت العقد الى جيبها ، ومشيت نحو الغرفة وهي تتوكأ وتترجرج فوصلت اليها قبل هانيء بقليل ، فجلست على وسادة بجانب جدار الخباء ، ثم أقبل هانيء وعلى رأسه بدل العمامة خوذة من الفولاذ ، وقد أرخى العباءة فاتفتحت عن

صدره فبانت الدرع من تحتها ، وحول خصره حمائل يتدلى منها سيفه المعهود .. دخل مسرعا حتى اقترب من القهرمانة وهى جالسة لم تتحرك ولكنها قالت له : « مرحبا بالأمير هانىء .. تفضل اجلس »

قال : « لا صبر لى على الجلوس يا خالة لأنى ذاهب فى مهمة عاجلة وقد أحببت أن أراك قبل ذهابى »
 قالت : « بورك فيك يا بنى ، هل من حاجة أقضيها لك ؟ »
 فتبسم هانىء وقال : « لى حاجة سهلة جدا لا أظنك تضنين بها على » ..

قالت : « وما هى ؟ .. »

قال : « أرأيت مريم ؟ .. احب أن أراها وأخاطبها ساعة بحضورك حتى تكونى على بينة من سلامة نيتى »
 قالت : « أتراها الآن ؟ .. »

قال : « كلا .. غدا صباحا بعد ذهاب والدتها .. ولست أشك فى أنك ستجيبين سؤالى ، وليس فيه ما يخشى منه عليك »
 فتحنجت القهرمانة وضحكت ، وأشارت بعينيها انها ستفعل ما يريد ، فهم بيدها ليقبلها ، فمنعته .. فخرج وانصرف
 أما مريم فقد تركناها مع والدتها فى طريقهما الى مكان النوم ، وهى غارقة فى بحار الهواجس ووالدتها لا تخاطبها ، فوصلت الى غرفة جدرانها الأربعة من القماش السميك .. وفى أرضها بساط عليه فراش . وعلى أحد جدران الحجرة ركوة لشرب الماء

معلقة بخيط ، فجلستا على الفراش ومريم لا تزال ساكنة . فلما استقر بهما الجلوس قالت سالمة : « نحمد الله يا بنية على نجاتنا من هذه الواقعة ونجاحنا في اقناع أمير هذا الجند بما نريده وفيه خيره وخير هذه البلاد .. واعلمى يا مريم انى ذاهبة فى صباح الغد الى أسقف بوردو ، وربما أبقي عنده يوما أو يومين لقضاء بعض المهام ، فهل يشق عليك هذا الفراق ؟ .. »

فجالت مريم : « ولماذا هذا الغياب ؟ .. وما هى تلك المهام التى تقتضى أياما للفراغ منها ؟ .. وأنا لم أفارقك قبل اليوم مطلقا ، فهل أستطيع البقاء وحدى بين أناس لا أعرفهم .. اتركى اذن عندي حسانا فانى أستأنس به »

قالت : « انى فى حاجة اليه فى هذه المهمة .. والا فان غيابى يطول كثيرا »

قالت : « لقد شغلت بالى .. هل تكشفين لى عن سبب ذلك الغياب ؟ .. »

قالت : « لا أخفى عليك يا بنية انى اتفقت مع الأمير عبد الرحمن على أن أكون واسطة بينه وبين الغالين سكان هذه البلاد الأصليين ، على شرط أن يعاملهم بالرفق والاحسان كما عامل موسى بن نصير وابنه عبد العزيز نصارى الأندلس عند فتحها ، وأنا ذاهبة فى صباح الغد الى أسقف بوردو فألاقيه بعد أن تكون الآنية قد وصلتته وتأكد من صدق أمير المسلمين ، فأستعين به وأستعين بسواه من سراة هذه المدينة فى اقناع سراة

البلاد الأخرى ، وأساقفتها وكهنتها بأن المسلمين خير لهم من أود وغيره من أمراء الافرنج ، وأنا أعتقد انهم اذا وافقوني على ذلك أفلحوا .. واعلمى يا مريم انى كاشفتك بسر يجب أن يبقى مكتوما عن الجميع »

ولم تكن مزيم تهتم بهذا الحديث مع أهميته لما جاش فى خاطرها من أمر هانىء ، وودت لو انها تعود الى ذكره لعلها تستطلع شيئا من أمره . ولكنها لم تستطع ذلك لأن والبتها نهضت لتبديل ثيابها التماسا للنوم .. فسأيرتها مريم وذهبت الى فراشها ، ولكنها لم يغمض لها جفن معظم ذلك الليل ، وهى تتوقع أن يناديها هانىء أو يناديها أحد عنه ، فلما طال انتظارها يئست من ذلك ..

- ١٨ -

دسيئة

أما ميمونة فانها ذهبت الى مضجعها بازاء مضجع سالة لا يفصل بينهما الا الجدار ، وكانت مضطربة خاطر لما شاهدته من سالة ، فلقد بدا لها انها لم تدخل ذلك المعسكر الا لأمر هام فتظاهرت بالسكون وأصغت لما عساه أن يدور من الحديث بين سالة وابنتها ، فسمعت ما دار بينهما .. فلما اطلعت على السر أهمها أمره كثيرا لأنه يحول دون الغرض الذى من أجله رافقت

تلك الحملة فباتت وهى تدبر الحيل وتهيب الشراك
وقبل أن ينبجج الصباح نهضت ميمونة من فراشها وتزملت
بردائها وتظاهرت بالخروج الى خباء بالقرب من خباء الأمير ،
وكانت على موعد فى كل صباح مع رجل من الجند تزعم أنه كان
من غلمانها يوم كانت بعمية لمباجة فى أيام المنذر الافريقى ، فرأت
فى أثناء خروجها فارسا قادمًا من المعسكر عرفت من زيته ولون
جواده انه هانىء ، فاستغربت قدومه فى ذلك الصباح ، فلما
توارى عن بصرها ذهبت الى مواعدها ، فمكثت هناك حتى جاءها
الرجل وهو بربرى عليه ثياب الجند قصير القامة خفيف الشعر
خفيف العضل ، فى الثلاثين من عمره ، وفى عينه حول شديد
فاذا نظر اليك يوهمك انه ينظر الى رجل على مسافة بعيدة
منك . فلما أقبل عليها تبسم وأشار بحاجبيه وبعينه الشاردة انه
فى شوق شديد الى رؤيتها وانه قتيل هواها

فابتسمت ميمونة له وأظهرت الدلال وقالت له : « يظهر
ياعدلان انك نسيت سيدتك وتغافلت عن وعدك ، فان الغنائم
شغلتك عن ميمونة وظننتها تنسى مثلك »

فأعجبه ذلك العتاب واستدل من ورائه على ما له من المنزلة
عند تلك الحورية ربة الجمال . وقد كان يعلم ان بينه وبينها فارقا
كبيرا ، ولكنه كان يطمع فى حبها .. وكان يقنعه من ذلك الحب
أن يسمع مثل تلك العبارة ، فهو ممن يسمونهم « أذئاب
العشاق » لأن العشاق ثلاثة : عاشق لا يقنع بغير الحب المتبادل

الذى يملأ القلبين ، وعويشق يقنعه أن يقدم لمعشوقته باقة من الأزهار أو عقدا من الجواهر ، ويكفيه منها قبول هديته ولا مطمع له فيما وراء ذلك ، و « ذنب العشاق » وهمه أن يخدم معشوقته خدمة تروقها ، كإيصال كتاب ، أو ابتياع بعض حاجات الطعام ، أو نحو ذلك . وكان عدلان من النوع الثالث ، وقد جعله يعشقها ويتفانى في خدمتها ما كانت تبديه له من التلطف ، حتى أطلعتة على بعض سرها ، ووعدته بالرضا التام حين يتم لها خدمة وعدها باتمامها منذ تشتت شملها بقتل المنذر الإفريقي الذى ذكرناه فى غير هذا المكان . فلما سمعها تعاتبه وتستعطفه ابتدرها بالجواب وهو ينظر الى وجهها الجميل نظر المحب الولهان وقال : « كيف تقولين ذلك يامولاتى وأنت تعلمين اندفاعى الى خدمتك منذ أعوام . وأما الغنائم فلا يخفى عليك ما تركه أولئك العرب منها خصوصا اليوم ، فانهم بعد أن وزعوا الغنائم بيننا عادوا فاسترجعوها وأهانوا الأمير بسطاما اهانة ليس بعدها اهانة » قالت : « الأمير بسطام ؟ .. وكيف تركته يقبل ذلك ، ولماذا لم تعرضه على المطالبة بحقه .. الى متى هذا الذل ؟ .. » قال : « لقد حرضته ولكن غريمه صعب لا ينال .. » قالت : « ومن هو غريمه ؟ » قال : « هو الأمير هانىء نفسه وأظنك رأيته قادما فى هذا الصباح الى هذا الخباء .. » قالت : « نعم رأيته .. ولماذا قدم ؟ »

قال : « قدم لتلك الفتاة الجميلة التى بعثها الأمير عبد الرحمن اليكم بالأمس فانها غنيمة الأمير بسطام ، وقد أخذها الأمير هانىء رغم أنفه وساعده الأمير عبد الرحمن على ذلك » فقالت : « وهل رضيت هى بهذا العربى وفضلته على ذلك الأمير ؟ .. »

قال : « يظهر انها أحبت هائثا وتعلقت به » فأدركت ميمونة ان الحب قد تمكن بين مريم وهانىء وان هائثا انما جاء فى ذلك الصباح لمقابلتها ، فرأت أن تغتحم تلك الفرصة وتدس الدسائس وتوقع الخصام بين الأميرين فقالت : « وهل رضى بسطام بهذا الذل ؟ وكيف يرضى أن تخرج فريسته من بين يديه ويصبر على الهوان ؟ .. اذا قبل هو ذلك فأنا لأقبل . هل لك أن تخبره انى سأبذل غاية جهدى لأرجع هذه الفتاة اليه ؟ قل له ذلك دون أن تشعره بما دار بينى وبينك . هل فهمت يا عدلان ؟ .. انه يسوءنى أن يستأثر هؤلاء العرب بالطيبات ويحملونكم الأثقال والأخطار فتفتحون لهم الحصون وتجمعون لهم الغنائم ، ثم لا تنالون غير التعب والشقاء . ولكن لا بأس ، سوف ترى منى ما يسرك » ثم رأت وهى تخاطبه فارسا خارجا من خباء الأمير عرفت من سواد ثيابه انها سالمة تنطلق فى مهمتها ، وثبت لها ذلك من مسير حسان فى ركابها وهو يعدو خلفها ، فعلمت ان هائثا سيظفر بعد ذهاب سالمة بقاء مريم فقطعت ميمونة حديثها مع عدلان بقولها : « اذهب انت الآن فى حراسة

الله » : قالت ذلك وتحولت نحو الخباء على عجل ، وظل هو واقفا ينظر الى قامتها ويتمتع بمنظر ذلك الشعر الجميل حتى اذا كادت تتوارى التفتت نحوه وابتسمت ، فأحس كأنها ملكته الأرض وما عليها .. وخفق قلبه ابتهاجا ، وعاد ..

أما هي فلما أيقنت بوقوع التنافر بين هانىء وبسطام ، عادت الى التفكير فى وسيلة للإيقاع بين هانىء وعبد الرحمن ، ليتم لها افساد أمر ذلك الجيش الكبير لعلمها ان فوزه انما يقوم على اتحاد هذين الأميرين . وكانت قد علمت ان عبد الرحمن انما أرسل مريم الى الخباء لتكون فى مأمن من سواه ، وعلمت أن « حب » هانىء لمريم يسوء عبد الرحمن ، فعزمت على اشعال نيران الغيرة بينهما ، فسارت توا الى غرفة مريم فلم تجدها وبحشت عن القهرمانه فقيل لها انها فى غرفتها ، فتحقق ظنها .. فعادت الى غرفتها بسرعة وقد خطرت لها حيلة ظنت انها تنال بها مأربها ، فنادت غلاما من غلمان الخباء كان فى الأصل من غلمان المنيدر الافريقى ، وأخذ فى جملة من أخذ من الأسرى ، وأصله من الافرنج الذين أتوا مع لمباجة بنت أود يوم زواجها بالمنيدر ، ولما أخذت ميمونة ظل هو فى جملة الخدم ، وقد استبقته هى لخدمتها والاستعانة به عند الحاجة ، فلما جاء الغلام قالت له : « أسرع يا داود الى الأمير عبد الرحمن ، هل لك أجنحة لتطير بها اليه ؟ »

قال : « نعم يا مولاتى .. »

قالت : « طر الىه على عجل ، وقل له ان ميمونة تقرئك

السلام وتقول لك بادر اليها الآن لأمر هام تريد أن تطلعك عليه
في هذه الساعة »

فقال : « حبا وكرامة » وتحول وسار وهو يشب كالغزال
النافر متجها نحو المعسكر ، وجلست ميمونة في مكان ترى منه
كل من يخرج من الخباء ..

- ١٩ -

لقاء الحبيين

أما هانيء فانه جاء الى الخباء مبكرا - كما رأيت - لشدة
شوقه الى لقاء مريم ، ولا نظنه قد نام كثيرا في تلك الليلة . ولما
وصل الى غرفة القهرمانه استقبلته واستمهلتة ريشما تنصرف
سالمه ، وسارت الى سالمه حتى تهيأت للخروج فودعتها .. فأوصتها
سالمه بابتها خيرا وركبت وسار حسان في ركبها ، فعادت
القهرمانه وقد سرها أن لا تكون ميمونة في الخباء لئلا تطلع على
سر تلك المقابلة . فلما مضت سالمه صحبت مريم الى غرفتها فمشت
معهما وهي تفكر في هانيء وبعده عنها ، فلما دخلت الغرفة ورأته
هناك بغتت وتصاعد الدم الى وجنتيها ، وغلب عليها الحياء ..
فأرسلت خمارها على عينيها ، وأطرقت وقد صبغ الحياء وجهها ..
فأضفى عليها ذلك مزيدا من الجمال والجازبية في عيني هانيء . أما
هو فقد كان أثناء انتظاره في الغرفة على مثل الجمر ، وقد خيل

اليه أن الساعة التي مضت في أثناء انتظارها بضعة شهور ، فلما سمع وسوسة الخلاخل والدمالج وراء جدار الغرفة علم أن القهرمانة قادمة ، ثم ما لبث أن رآها تدخل ومريم في أثرها ، فلما رأى اصطباغ وجه مريم بالحياء زاد هياما بها فنهض لاستقبالها ، فسمع القهرمانة تقول وهي تتظاهر بأن وجوده كان هناك اتفاقا : « ما الذي جاء بك في هذا الصباح يا حضرة الأمير ؟ »

قال : « لقد جئت لأرى وجهك يا خالة .. » فضحكت القهرمانة وقالت : « لا أظن ان وجهي تعجبك تجعداته ، وكأني قد علمت بقدومك فأتيت اليك بهذا الوجه ، فهل تعرفه ؟ » ..

فابتسم هانيء وقد غلب عليه الغرام وقال : « لقد عرفته وكلفت به .. ولكن هل هو يعرفني ؟ .. لست أدري .. » وكانت مريم مطرقة ، فلما سمعت كلامه رفعت بصرها ونظرت اليه — بعينين قد أذبلهما الغرام وتلألا فيهما ماء الحب — نظرة تغنى عن خطاب ، فلم يتمالك هانيء عند ذلك ان قال : « فهمت الجواب .. »

فضحكت القهرمانة وأمسكت بيد مريم وأجلستها وقالت وهي تحاول الجلوس : « ما أسرع ما فهمت جوابها وهي لم تتكلم .. » فجلس هانيء وهو يلتف بعباءته ويصلح عمامته وكان قد أبدلها بالخوذة في ذلك الصباح وقال : « لقد دلني قلبي يا خالة .. » ثم التفت الى مريم وقال : « لا تخافى يا مريم ، انى لم آت

لأزعجك. وانما جئت لأتحقق مما حدثتني نفسى به ، حتى اذا صدق ظنى وخدمنى حظى وقفت نفسى لخدمتك وجعلتك أسعد الناس ، الا اذا كان هذا الخبر يسوءك ..

فتنهدت مريم تسكينا لما جاش فى صدرها من الخفقان مما لم تعهده من قبل ، وهمت بالكلام فمنعها الحياء ، وكانت لا تبالى ان لقيت الرجال فى ساحة الوغى ، فكيف تلثم لسانها بين يدي رجل يتمنى رضاها ويتوقع كلمة منها ليتغنى بها ويجعلها تعويذة له .. ولكن هو الحب يذل النفوس ويلعثم ألسنة الفصحاء . وظهر من خلال شفتى مريم مع ذلك انها تكتم أمرا تؤد التصريح به لولا الحياء . فأدرك هانىء ذلك فيها فتوجه بكليته نحوها وقال وقد أخذ الهيام منه مأخذا عظيما : « قولى ، يا مريم ، لا تخافى ولا تكتمى عنى شيئا .. فان خالتى القهرمانة لا يستحى منها ، بل هى خزانة أسرارنا ، قولى .. هل تحبيننى ؟ »

فالتفتت اليه وتجلدت وقالت : « وما الفائدة من الحب اذا لم يكن متبادلا ، وأنتم معشر الأمراء قد تعودتم اقتناء النساء بال عشرات ، والحب لا يكون صحيحا الا اذا كان بين اثنين ليس معهما ثالث .. »

فبغت هانىء لهذا التعريض وهو لا يرى له محلا وقال : «لست من هؤلاء يا مريم . وهذه الخالة تعلم انى بلغت هذه السن ولم أتخذ زوجة ولا جارية ولا سرية .. اسأليها تنبئك فانها مطلعة على أحوال سائر الأمراء فى هذا الجند ، فان لكل واحد منهم

خباء لنسائه وجواريه ، وأما أنا فلا خباء لى ولا أحبيت امرأة ولا فتاة ، ولم يكن يخطر ذلك ببالى قبل أن رأيتك فى صباح الأمس فعزمت على أن تكونى نصيبى فى هذه الدنيا ، وتأكيذا لذلك فانى أعاهدك من هذه الساعة على انى لا أميل الى سواك .. فهل تعاهديننى أنت أيضا ؟ .. »

فأبرقت أسارير مريم وأشرق وجهها ، وتجلت فى عينيها وحول فمها ابتسامة طار عقل هانىء لها ، وخفق قلبه سرورا وقال : « ولكن لى شرطا واحدا عليك وعلى نفسى وهو انى لن أتم شيئا قبل الفراغ من هذه الحرب .. فاذا عدنا منها فائزين ، ونحن فائزون باذن الله ، كان ما تتمناه .. فهل تعاهديننى على ذلك ؟ » فقالت وهى مطرقة حياء : « وذلك هو الشرط الذى أشرطه أنا أيضا لأنى اذا فزت بك ، أكون عند ذلك قد نلت السعادتين .. » فقال : « فلنتعاهد اذن على هذا الشرط » ومد يده نحوها ببطء وهى ترتجف من شدة التأثير ، فأمسكها بيده وضغط عليها فأحس كلاهما بتيار كهربائى ارتعدت له فرائصهما ، ثم نهض هانىء وهو يقول : « لا بد لى من الذهاب الساعة الى المعسكر لتأهب للقاء العدو ، وأعدك انى سأبلو فى ساحة القتال بلا الأبطال لعلمى ان ذلك يسرك .. فادعى لى بالنصر .. »

ثم مد يده الى كفه وأخرج قارورة تفوح منها رائحة الطيب قوية ، وقدمها الى مريم وهو يقول : « وهذه قارورة من طيب خاص ليس مثلها عند أحد فى هذا الخباء .. تطيبى بها وحدك ؛

حتى اذا أتيت لزيارتك تنسّمت ريحك قبل وصولي اليك فأستدل على وجودك قبل أن أراك ، وأنت أيضا كلما شممت رائحة هذا الطيب تتذكرين قتيل هواك .. » . قال ذلك وعيناه تتلألآن من شدة الهيام ، ونظر اليها نظر المحب الولهان ..

فمدت يدها وتناولت القارورة وهي تبتسم ، ثم تذكرت فراقه لها في تلك الساعة فانقبضت نفسها ، فالتفتت نحو السماء وترقرقت في عينيها العبرات

وكانت القهرمانة في أثناء ذلك الحديث قد استغرقت في النوم وهي جالسة ، لأنه لا يهمها في هذا الاجتماع الا ما نالت من التحف وما ترجوه من الهدايا المتواصلة . وبينما هي غارقة في أحلامها علت الضوضاء خارج الحباء فانتبهت فسمعت قرقة اللجم ودبابة الخيل فبغتت وبغت هانئ ومريم . وقبل أن تنهض سالمة سمعت أحد الغلمان يصيح في الخارج : « أين السيدة القهرمانة ؟ .. »

فنهضت القهرمانة وصاحت : « من يناديني ؟ » وخرجت فاستقبلها أحد الغلمان وهو يقول : « ان الأمير عبد الرحمن يدعوك إليه .. »

فقال وقد علتها الدهشة : « وأين هو ؟ .. » وهرولت نحو القاعة ، فقال الغلام : « هو ينتظرك في القاعة » فعادت الى هانئ وقالت : « أسرع يا مولاي الى جوادك وامض قبل أن يراك الأمير هنا فلربما شك في أمرك » ..

فأكبر هانىء أن يخرج خروج الهارب فتجلد ، وقال : « اذهبي أنت اليه ولا تخافى فانى خارج على مهل .. »

- ٢٠ -

البغته

فدخلت القهرمانة وقد أرادت أن ترسل مريم من باب آخر يؤدي الى غرفتها وتسير هي توا الى القاعة لمقابلة الأمير عبد الرحمن ..

وخرج هانىء من الباب الخارجى وهو رابط الجأش حتى وصل الى جواده ، وهمّ بأن يركبه فلقى بجانب الجواد رجلا من ملازمى الأمير عبد الرحمن وقد أمسك بشكيمته . فلما دنا هانىء منه قال له : « ان الأمير يطلب اليك أن توافيه الى خيمته فى المعسكر فانه عائد اليها على عجل »

فقال : « ومن أنبأه انى هنا ؟ .. »

قال : « عرف ذلك من جوادك »

أما القهرمانة فلم تكذ تخرج من حجرتها ومريم معها حتى لقيها عبد الرحمن ، وكانت مريم قد ازدادت بتلك البغته احمرارا وتجلت دلائل الحب فى عينيها مع ما يغشاها من الدمع . فلما رأت الأمير عبد الرحمن استردت جأشها ووقفت للسلام عليه أما هو فحالما رآها ، تذكر والدتها فخطبها أولا ولم يلتفت الى

القهرمانة وقال : « مريم .. أين والدتك ؟ هل سافرت ؟ .. »
 قالت : « نعم يامولاي سافرت في الصباح الباكر » . قالت
 ذلك بلغت المعهودة ولم يكن عبد الرحمن قد سمعها تتكلم بعد ،
 فأعجبه تلك اللثغة ، وكان لفرط ذكائه وصدق فراسته قد رأى
 على وجهها آثار البغته وتذكر انه رأى جواد هانيء بباب
 القهرمانة من الخارج ، فأدرك ان هانئا كان هناك معها . فتظاهر
 عبد الرحمن بعدم المبالاة ، وليثبت عدم مبالاته خاطب القهرمانة
 ببرود وسذاجة قائلاً : « وهل رجع الأمير هانيء ؟ »

فلما سمعت القهرمانة سؤاله لم تدر بماذا تجيبه وكاد يرتج
 عليها لو لم يتدارك الأمر هو بقوله : « ولكن لا بأس من ذهابه
 فاني سألقاه بعد رجوعى » ثم مشى نحو مريم وهو يخاطب
 القهرمانة قائلاً : « قد أوصيتك ياخالة باكرام هذه الضيفة ،
 وأعيد التوصية الآن بأن تبالغي في رعايتها واکرامها ولا تمنعي
 عنها شيئاً ولا تدعيها تستوحش في هذا الخباء فانها أعز نسائه
 عندي » ..

فانبسطت نفس القهرمانة لذلك واطمأن بالها ، وتبادر الى
 ذهنها ان عبد الرحمن غافل عما حدث من أمر هانيء ومريم
 وقالت : « انى فاعلة حسب أمر مولاي .. والحقيقة ان مريم
 لا يراها أحد الا أحبها وأكرمها »

فقطع عبد الرحمن كلامها قائلاً : « أين ميمونة ؟ .. هل
 هي في غرفتها ؟ »

قالت : « أظنها هناك » ومشيت لتبحث عنها
فقال لها عبد الرحمن : « امشى هنا مع مريم أو امض بها الى
حيث تشائين ، وأنا أذهب الى ميمونة فاني أعرف مكانها .. »
وكانت ميمونة قد رأت الأمير عبد الرحمن عند وصوله الى
هناك ، وعلمت انه رأى جواد هانيء ، ورأته يخاطب أحد غلمانة
ويشير الى ذلك الجواد ، فدخلت وجعلت تتنسم ما عساه أن
يكون من أمره بعد أن يرى القهرمانه ومريم ومعهما هانيء ،
فشعرت انه لقيهما خارجين من تلك الحجرة ، وسمعت ما دار بينه
وبينهما فظنته لم يلحظ اجتماعهما فعزمت على التصريح بذلك
أما عبد الرحمن فمشى يلتمس حجرة ميمونة والخدم يتناثرون
بين يديه تهييأ ، أو يقفون له وقارا ، حتى اقترب من باب الحجرة
فتظاهرت ميمونة أنها قلقت لابطائه في الوصول اليها ، فأسرعت
الى الباب وهي تبدو كأنها كانت في انتظاره على مثل الجمر .
فلما أقبل حيته وتأدبت وعيناها تنظران اليه نظر المحب العاشق
بلا تصنع مع أنها غير عاشقة ، وانما كان ذلك منظر عينيها لما
فيهما من اللعان مع ما تتكلفه من اظهار الوجد بالابتسام
والاطراق فينخدع الناظر اليها ويحسبها متفانية في حبه ، ولا
سيما اذا كان هو يحبها . أما عبد الرحمن فكان يستلطف ميمونة
كثيرا ويحب قربها ولكنه كان ينظر اليها نظره الى بعض جواريه ،
وكان من جهة أخرى قد عاهد نفسه على ألا يقرب النساء
حتى يفرغ من تلك الحرب ويقطع نهر لوار ، فضلا عن اشتغال

خاطره بمهام الفتح عن مجالسة النساء ومسامرتهن . ولذلك قلما كان يأتي الى الحباء ، واذا أتاه خص ميمونة بلطفه ومداعبته وذلك لغرض في نفسه لم يكشف به أحدا . وربما كانت قد أدركت غرضه ثم تجاهلته ، أو انها تظاهرت بأنها تفعل ما يريد هو وتبتغي من ورائه مآربا لو تصوره عبد الرحمن لعجل بها الى الفناء ..

- ٢١ -

المكر المتبادل

علمت مما تقدم ان ميمونة سبية افرنجية كانت في جملة خدم لمباجة بنت الكونت أود حاكم تلك المقاطعة في فرنسا ، وقد سبيت في جملة غنائم المنير الافريقى زوج لمباجة المذكورة . وكان أهل الحباء يعتقدون ان ميمونة كانت من خاصة نساء لمباجة وأقرب المقربات اليها . فكان عبد الرحمن يرجو الانتفاع من ذلك في بعض المخابرات مع أود أو بعض قواده ولكنه كتم هذا الأمر في نفسه ولم يظهره حتى ولا لهائىء . فلما بعثت ميمونة اليه في ذلك الصباح أسرع اليها على عجل يتوقع منها خبرا يتعلق بالحرب من قبيل ما تقدم

فلما رآها على تلك الصورة خيل له انها تعشقه وتتفانى في خدمته فسرته ذلك على أمل الاستعانة بها في تحقيق غرضه ، فابتسم لها ودخل حتى جلس على وسادة هناك وهو يقول :

« ما الذى تريدينه منى يا ميمونة ؟ »

فقلت وهى تحاول الجلوس بتأدب : « أريد أمورا كثيرة ، يا مولاي ، لا أدري أيها أقوله أولا » . قالت ذلك وتنهدت وأنزلت دمعين رآهما عبد الرحمن تتساقطان على خديها وهى مطرقة تظهر انها استحييت من افتضاح سرها بهما فانخدع عبد الرحمن ، ولكنه أجابها على الفور : « لا أرى حاجة الى ذلك وأنت تعلمين ما عاهدت عليه ربي منذ عزمت على هذه الحرب »

فأسرعت فى الجواب كأنها تريد اصلاح ما تبادر الى ذهنه مما عسى أن يكون قد فهمه خطأ فقلت : « لايتوهم مولاي انى أطمع فى غير رؤية هذا الوجه الصبوح . ولكنى مخطئة فى التناول الى ما لا أستحقه ، فان فى خباء مولاي الأمير عشرات من أمثالى وليس بينهن من تجرؤ على هذه الكلمة . أما أنا فلا أدري ما الذى جرأنى عليها . فهل دلى قلبى على الصواب أو لعله خدعنى ؟ لا أدري .. وعلى كل حال يكفينى أن يكون الأمير عالما بما له فى القلب من الحب الشديد ، على انى لا أكلفه مثله أو جانبا منه لأن الحب لا يكون قهرا » . قالت ذلك وغصت بريقها وسكتت ..

وكان عبد الرحمن يعتقد أن ميمونة تحبه ، ولكنه لم يسمع منها مثل ذلك العتاب قبلا ، فتبادر الى ذهنه انها اندفعت الى العتاب غيره عليه من مريم ، والغيرة تفعل العجائب .. فأراد أن

يتأكد من ذلك ، فقطع حديثها قائلاً : « هل رأيت الضيفة الجديدة ؟ » ..

فسرّت ميمونة لأن عبد الرحمن بدأ بذكرها ، فأجابت على الفور : « كيف لم أرها وقد وقتت نفسي لخدمتها منذ أن وصلت ، لعلمى أن ذلك يرضى الأمير .. ولم أفارقها الا ساعة في هذا الصباح لاشتغالها في غرفة القهرمانة مع الأمير هانىء ! » . قالت ذلك وهى تتظاهر أنها تقوله بسذاجة وسلامة ضمير ، وأصغت بكل جوارحها لما عساه أن يبدو من عبء الرحمن بعد سماعه ذلك الخبر

أما هو فأحس بشيء من الغيرة وتذكر أن والده مريم انما ادخرتها له ، وفكر فى اختلاء هانىء بمريم على تلك الصورة ، فلم ير سببا غير الحب المتبادل بينهما ، فحدثته نفسه لأول وهلة أن يمنع هانئا من ذلك ، ولكن حبه لهانىء ورغبته فى أن يستمر الوفاق معه الى نهاية تلك الحرب — كما شرطاه على نفسيهما — غلب على ذلك الشعور ، وتصور ما هم فيه من الأمر العظيم والخطر الشديد ، فأسرّ فى نفسه أنهم اذا فرغوا من هذه الحرب فائزين وظل هانىء على ما شرطه على نفسه من البسالة والثبات ساعده على الظفر بها . فتجلد عبد الرحمن وأجاب ميمونة وهو يظهر عدم المبالاة : « لكن هانئا خرج الآن من عندها ، وشاهدت مريم مع القهرمانة . وقد سرّنى ارتياحها للاقامة فى الخباء ، فأرجو أن تعيرها اهتمامك لأنى موص باكرامها .. ولى فى ذلك

غرض أرجو أن تساعدني على تحقيقه «
فلما سمعت ميمونة قوله استغربت ما يكتمه من أمر هذه
الفتاة ، وتأسفت لذهاب سعيها هباء منثورا ، ولكنها أرادت أن
تتحقق من الأمر ، فبالغت في التجاهل واطهار السذاجة ، وقالت
« أوكد يا مولاي انى فاعلة ما تريده ، وفي الحقيقة ان هذه الفتاة
من نواذر الخلق جمالا وعقلا ورزانة وهى قريبة الى كل قلب ،
لا يستطيع جليساها الا أن يحبها فاذا كنت لا أكرمها اكراما
لمولاي الأمير فانى أفعل ذلك حبا لها .. ولا بأس اذا أحبها
الأمير أكثر من سائر نسائه لأنها أهل لذلك »
فخشى عبد الرحمن اذا طال الحديث أن يبدو منه ما لا يريد
التصريح به ، فابتدرها قائلا : « لقد خرج بنا الحديث عن
الموضوع ، ما الذى دعوتنى من أجله الآن ؟ »
فأظهرت الاهتمام وقالت : « دعوتك لأمر هام ، وكان يجب
ألا أتحدث عنه .. وربما كان فيه وحده ما يغينى عن الأدلة على
حبى للأمير عبد الرحمن وتفانى فى خدمته .. فاعلم يا مولاي انى
بثت العيون من بعض الأفراد الذين تركتهم لخدمتى لاستطلاع
أحوال العدو بعد سقوط بوردو ، فعلمت ان الكونت أود
ورجاله متربصون لكم فى مضيق دردون (١) على مقربة من هذا
المكان . والمضيق فى طريقكم الى نهر لوار »
ولم يكن عبد الرحمن غافلا عن أخبار عدوه لأن جواسيسه

(١) دبنو

كانت في كل الأنحاء .. وأكثرهم من أهل البلاد الأصليين وخصوصا اليهود فانهم كانوا يبذلون كل رخيص وغال في سبيل مساعدة المسلمين انتقاما من المسيحيين ، وطمعا في الغنائم كما تقدم . فلم يكن خبر أود ودردون ليخفى على عبد الرحمن ولا كانت ميمونة تجهل اطلاعه عليه .. ولكنها تجاهلت وأظهرت الاهتمام بأمر الجند ، وأوهمته أنها اطلعت على السر بسعيها الخاص .. ولو علمت انه يجهل ذلك الخبر لبالغت في كتمانها . فسايرها عبد الرحمن وأظهر انه فرح بذلك الخبر كي يحفزها على مصارحته بأخبار أخرى ، فقال لها : « بورك فيك يا ميمونة .. قد تحققت الآن من حبك لنا وسعيك لنصرنا ، وأرجو ألا تغفل عن مثل هذه الأخبار »

لم تكن ميمونة تجهل اطلاع عبد الرحمن على ذلك الخبر من قبل ، ولكنها تجاهلت التماسا لما يبرر لها استقدامه في ذلك الصباح لتطلعه على حب هانيء لمريم ايقاعا للفتنة بين الأميرين ، وقد ساءها ان حيلتها لم تأت بالفائدة المطلوبة ، ونسبت اخفاق مسعاها الى سعة صدر عبد الرحمن وطول اناته ، فأضمرت أن تحول سهام مساعيها نحو هانيء لأنه شاب لا يصبر على الغيظ . وغرضها الأول ايقاع الفتنة بين القائدين .. وفي خصومتها فشل الجند الكبير ، فعزمت على تدبير الحيلة في وقت آخر . ولما سمعت ثناء عبد الرحمن على سعيها في خدمته ابتسمت ونظرت اليه نظرة عتاب ودلال واستعطاف .. ولولا رزاة عبد الرحمن وقوة

ارادته لخرقت تلك النظرة صدره الى قلبه ، ولهاجت فيه لواعج الغرام وأنسته الجند والنصر الذى يسعى اليه ، لما فى عينيه من عوامل الجاذبية وما حول فمها من الملامح الفتانة وما فى مجمل ذلك من السحر الآخذ بالألباب . ولا غرو اذا عبّر الشعراء عن تلك الجاذبية بالسحر لأن أثرها لا يمكن تعليله بغير السحر . وربما عبّر عنه بعض علماء الطبيعة اليوم بالكهربائية ، فمن كان حسنه جذابا قالوا ان كهربائيته قوية .

- ٢٢ -

من شق الحائط

فلما نظرت ميمونة الى عبد الرحمن تلك النظرة فهم أنها تعاتبه على ذلك القول ولسان حالها يقول له : « انى قتيلة هواك ، متفانية فى خدمتك » فسرّه افتتانها به رغبة فى الافادة منها لما ينفع الجيش ، فابتسم لها وهشّ.. وفى ظنه انه بذلك يزيدا تفانيا فى خدمته ، وهى كلما رأت منه عطفًا بالغت فى اظهار الافتتان به . فلما علم عبد الرحمن انها فرغت من التصريح بالخبر الذى استقدمته لأجله نهض وهمّ بالخروج ، فنهضت ميمونة وهى تقول : « لولا علمى بالمهام الكثيرة التى تتعلق بذهابك أيها الأمير لتوسلت اليك أن تبقى هنيهة أخرى .. فهل أنت عازم على الذهاب لملاقاة العدو قريبا ؟ .. واذا ذهبت فهل تتركنى هنا ؟ .. »

فأدرك انها تقول ذلك تدللا فلم يجيبها بغير الابتسام ، وخرج مسرعا يلتمس جواده ليرجع الى المعسكر ، فمشت ميمونة في أثره حتى إذا أوشك على الوصول الى باب الخباء سمعته يقول : « مرحبا بالأمير هانىء .. ألا تزال هنا ؟.. لماذا لم تدخل الى الخباء ؟.. » فازدادت ميمونة استغرابا من ذلك الترحاب

فتقدم هانىء وهو يلتف بعباءته وليس فى وجهه وجل ولا خجل ، وقد أكبر أن يرجع الى المعسكر رجوع الهارب بعد أن علم عبد الرحمن بوجوده هناك .. شق عليه أن يفعل ذلك انفة وكبرا وخصوصا بعد أن علمت مريم به . فلما أوعز اليه غلام عبد الرحمن بالذهاب الى المعسكر وقف ورجله فى الركاب لا يتكلم ولا ينتقل . وخيل له ان مريم تنظر اليه تراقب حركاته ، فلبث حيناً واقفا ثم تحول عن الجواد بغتة ومشى نحو باب الخباء يلتمس لقاء عبد الرحمن ، فقبل له انه فى خلوة لا يراه فيها أحد .. فعزم على انتظاره ، فجعل يخطر أمام الخباء وعيناه تراقبه

وكانت مريم لما تركها عبد الرحمن مع القهرمانة عادت الى التفكير فى هانىء وخروجه على تلك الحالة ، فأرادت أن تستطلع أمره فتحولت الى جدار الخباء ، ونظرت من شق فرأت هائبا يتمشى خارجا وعباءته وسيفه يجران وراءه وهو يلعب شاربه ولحيته ويتمايل بمشيته كالأسد . فاختلج قلبها فى صدرها سرورا

برؤيته ، وودت لو أنها تخاطبه ولكنها خافت من القهرمانة ، فاكثفت بالنظر اليه وتأمل حركاته على غفلة منها . وبعد قليل سمعت ضجة في الخباء فعلمت ان عبد الرحمن خارج ، فأجبت أن تعلم ماذا يكون من أمره اذا لقي هانئا ، فتحولت بحيث تراهما ولا يراها أحد لاشتغال القهرمانة وسائر أهل الخباء بوداع الأمير . فرأت هانئا يمشى نحو عبد الرحمن حتى التقيا ، وسمعت عبد الرحمن يخاطبه مخاطبة الأخ ويعاتبه على تخلفه ، وهانئ يدل عليه دلال الابن على أبيه ، وعبد الرحمن يتسم له ويرحب به ، وسمعت هانئا يقول وهو يخطر نحوه : « بلغنى انك سألت عنى .. »

فأجابه عبد الرحمن وهو يقترب منه حتى وضع يده على كتفه : « وهل يسأل المرء الا عن أخيه أو حبيبه ؟ » . قال ذلك وابتسم وأهل الخباء يسمعون ، وأكثرهم سرورا بذلك مريم وأشدهم غيظا ميمونة ، ثم مشى عبد الرحمن ويده بيد هانئ فقدموا لهما الأفراس فركبا الى المعسكر وحولهما الخدم والأعوان



وظلت ميمونة ومريم تنظران الى ذلك الركب وكل منهما في ناحية وقلبها في ناحية أخرى حتى تواروا ، فعادت ميمونة الى خلوتها وأعملت فكرتها في حيلة أخرى وقد أسفت أسفا لا مزيد عليه لفشلها وذهاب سعيها هباء

- ٢٣ -

المكاشفة

أما مريم فانها عادت من وراء ذلك الجدار وقد شبت نيران
الحب في قلبها ، والتمست الخلوة لتسترجع ما دار بينها وبين
حبيبها استئناسا بذكره ، ومخافة أن يكون قد بدر منها
ما تؤاخذ عليه . جلست في غرفتها هنيهة كأنها في عالم الخيال ،
ثم انتبعت للقارورة وكانت لا تزال في قبضتها ، فنظرت اليها
وفتحتها واشتمت رائحتها فطربت لها واستأنست بها لأنها من
هانئ ، وصبت قليلا من الطيب على كفها دهنت به شعرها
ووجهها. وكفيها ففاحت رائحة ملأت الخباء بطيبها

وبينما هي في خلوتها دخلت ميمونة وهي تبسم ابتسام محب
معجب بحبيبه ، فقابلتها مريم بمثل ابتسامتها وقد ارتاحت اليها
وتأقت الى مكاشفتها بما شغل خاطرهما من الحب ، ولكنها
أمسكت لئلا يكون في ذلك ما يغضب حبيبها ، على أنها رحبت
بميمونة وتحفزت للوقوف احتفاء بها .. فسبقتها ميمونة الى
الحديث ، فقالت وهي تهش لها : « أراك عدت من غرفة القهرمانه
وقد زدت طيبا »

وكانت القارورة لا تزال في قبضتها ، فضحكت وبدا الحياء في
وجهها ، وبادرت الى القارورة فخبأتها في جيبها ولم تحر جوابا

فأدركت ميمونة أن بين تلك القارورة وهانىء علاقة ، فعمدت الى اكتشاف سرها منها ، فقالت : « لقد زادك الحياء طيبا يا حبيبتي .. لعل هذا الطيب من ضيفك البطل الصنديد الأمير هانىء . أرجو ألا يكون من سواء لأنه يليق بك . ولو خيرت أن تنتقى لك حبيباً من بين رجال العالمين لما وقع اختيارك على خيرٍ منه » ..

فأدركت مريم اطلاع ميمونة على ذلك السر ، ولكنها تجاهلت وقالت : « كيف تحكمين على الأمر قبل التثبت منه ؟ .. من أين عرفت ذلك ؟ »

قالت وهى تضحك وتقترب من مريم : « عرفته من مصدر وثيق ، وتحققت منه بقرائن الأحوال .. واذا كنت تنكرين ذلك علىّ فإن ملاحظك تشهد عليك ، على أننى لا ألومك على التستر ، لأن الحب يحلو بالكتمان .. وقد كان يجدر بى أن أسايرك وأظهر اقتناعى بانكارك ، ولكننى لم أرض بذلك شفقة عليك وحبا لك » فلما سمعت مريم قولها استغربت تلميحتها بالشفقة ، ولم تفهم مرادها ، فرفعت بصرها اليها وقالت : « لم أفهم مرادك من الاشفاق .. هل فى حالتى ما يبعث على الشفقة ؟ .. افصحى .. » قالت ميمونة : « لا أقول شيئاً قبل أن تثقى بحبى لك وغيرتى على مصلحتك .. »

فقالت مريم : « أنت تعلمين انى أحببتك وقد وثقت بك من أول نظرة ، وخصوصاً بعد ما شاهدته من مظاهر حبك ، فلا حاجة

بعد ذلك الى برهان »

قالت ميمونة . « صدقت يا حبيبة ، انى أشعر من قلبى
 باخلاصك .. ولكننى أخشى أن أقول لك قولاً تحميلينه على غير
 محمله ، ومع ذلك فانى أفعل ما تدعونى اليه محبتك . نعم ليس
 هناك ما يدعو الى القلق الكثير ، ولكننى اختبرت هؤلاء العرب
 واطلعت على سجاياهم - وفي جملتها انهم يغارون على أعراضهم
 غيرةً شديدة - وأنت تعلمين انك هنا فى خباء الأمير عبدالرحمن ،
 وكل مَنْ فى هذا الخباء من نسائه .. فيجدر بك أن تحاذرى من
 التظاهر بشدة ميلك الى الأمير هانىء فى حضرته ، وأظن أن الأمير
 هانثا نفسه يتوقع ذلك .. لا تُظنى اننى أقول هذا بناء على قول
 سمعته ، فانى واثقة من حب الأمير عبد الرحمن لهانىء فهو لا يمنع
 عنه شيئاً يريد له لأنه يعتمد عليه فى هذه الحرب ، وهو يمينه التى
 يناضل بها ، ولكنى أردت أن أنبهك لعلنى ان هانثا يريد ذلك
 منك وان كان لا يظهره لك أنفةً وترفعاً ، وأما أنا فقد خبرت
 عادات القوم وآدابهم فى هذا الشأن . ولعلك سمعت عن منزلتى
 عند الأمير عبد الرحمن ، والا فانى أخبرك انى أقرب نسائه اليه
 وهو يعتمد علىّ فى كثير من المهام ، فاذا علمت ذلك فكونى على
 يقين من أن الأمير عبد الرحمن لا يفعل الا ما يرضيك »

فقبلت مريم تلك النصيحة باخلاص وازدادت ثقة بميمونة
 بعد ما عرضت من مساعدتها ، وهان عليها مكاشفتها بما فى قلبها
 فالتفت اليها وقد انبسطت نفسها ، وقالت : « أشكر على ذلك

ياسيدتى ، وسأعمل حسب اشارتك .. ولا ريب انك تعلمين
بذلك كله ، وأنت من أكثر نساء هذا الخباء ذكاء وفطنة «
فاكتفت ميمونة من ذلك الحديث بما وصلت اليه ، وأرادت
الانتقال الى موضوع آخر فقالت : « ذكرت لك الطيب فلم
تجيبينى عليه .. أين القارورة ؟ »

فمدت مريم يدها وأخرجت القارورة ودفعتها الى ميمونة
ففتحتها واشتمت رائحتها ، وهى تقول : « لم أصادف فى حياتى
مثل رائحة هذا الطيب ، إنه طيب خاص ليس عند أحد من أهل
هذا الخباء مثله » . قالت ذلك وأرجعت القارورة ولم تمس مافيهما
فقالت مريم : « تطيبي بشيء من هذا الطيب ، فانك أهل
لذلك » ..

فامتنت ميمونة وهى تسد القارورة وتقول : « لا يجوز
لأحد سواك أن يمس هذا الطيب لأنه هدية لك خاصة »
ودفعت اليها القارورة وهى تبالغ فى الامتناع

فاستحسننت مريم تمنعها وازدادت ثقة بصدق مودتها ، ففتحت
لها قلبها وصارت لا تستأنس الا بقربها مع ميل الى مكاشفتها
بعواطفها ، وميمونة تعمل فكرتها لاستخدام ذلك عند الحاجة

- ٢٤ -

الاطمئنان

أما عبد الرحمن وهانىء ، فانهما ركبا وسارا نجو المعسكر وحولهما الفرسان فى موكب ، وكل منهما يفكر فى جهة ، ومرجع التفكير الى مريم .. فكان هانىء يتذكر ما دار بينه وبينها ، وما آنسه من مجاملة عبد الرحمن ولطفه على حين انه كان يتوقع امتعاضه .. فاذا تذكر ذلك انشرح صدره لأنه كان يخشى اذا بدا له من عبد الرحمن برود أن يؤول ذلك الى نفور ضار .. وكان عبد الرحمن يفكر فى سائلة وما دار بينه وبينها فى أمر مريم وتلميحتها بأنها ستكون له بعد الفراغ من تلك الحرب لسر لم تصرح له به ، وتذكر استلطافه مريم .. وتصور ما هى عليه من الجمال والهيبة ، ثم مظهر له من الحب المتبادل بينها وبين هانىء فلما بلغت تصوراتها الى ذلك الحد شعر بغيرة شديدة ، ولكنه تذكر ما هم فيه من الحرب وشدة احتياجه الى هانىء حتى ان النجاح يتوقف على اتفاقهما . وعلم ان ذلك الاتفاق لا يتم الا بارتياح هانىء ، وارتياحه لا يكون الا بتيسير ظفريه بمريم .. فلما تمثل له ذلك ، عاد الى عقله وسعة صدره ، فهان عليه ارضاء هانىء وخشى أن يكون فى سكوته فى أثناء الطريق باب للشك ، ففتح الحديث قائلاً : « ألم تحمد الله على انتصارنا فى هذه الحرب يا هانىء ؟ .. »

قال : « لقد حمدته كثيرا على ذلك ، والفضل فيه يرجع الى
بسالة الأمير عبد الرحمن وتديره »

فقال الأمير عبد الرحمن : « بل الفضل فيه للأمير هانيء
قائد فرساننا .. بل أرى الفضل فيه لما وفقنا اليه من الوفاق
المتبادل ، وأرجو أن يبقى ذلك الى نهاية هذه الحرب »
قال : « وأنا أرجو ذلك أيضا ، وإذا تم لنا الفتح كان فيه
الفخر للعرب كافة ، لأننا فتحنا لهم بلادا واسعة يحكمون أهلها
ويجبون خراجها وينشرون الاسلام فيها »

فقال الأمير عبد الرحمن : « وأظن سرورك بفتح بوردو يعادل
سرورنا جميعا بما فتحناه وسنفتحه من البلاد ؟ » .. قال ذلك
وابتسم ..

فأدرك هانيء تلميحه الى مريم ، فضحك وقد انشرح صدره ،
وقال : « لا أستطيع انكار ذلك أيها الأمير لأنه يبدو في كل
حركة من حركاتي ، وأرجو أن يكون أخى مسرورا معي »
قال : « انى أسر بكل ما يسرك .. وثق انى عون لك في كل
ما تريده . ولكنك تعلم ما عاهدت نفسى عليه مذ ركبت هذا
المركب الخشن »

فلم يفهم هانيء مراده ، فقال : « وأى عهد تعنى ؟ »
قال : « انى عاهدت الله ألا أقرب النساء قبل أن أفرغ من
هذه الحروب أو أن تقطع نهر لوار على الأقل .. فهل أنت على
هذا الرأي ؟ »

ففهم هانىء مراده ، فقال : « نعم انى أعاهد الله على هذا أيضا ، وقد كان اهتمامى بالنساء كما تعلم ضعيفا فلم أتزوج امرأة ولا اقتنيت جارية .. ولولا وقوع هذه الفتاة من نفسى موقعا عظيما ما غيرت رأى . أما الآن ، فأعترف لك انى قد تعلقت بمریم وهى كما ترى أهل لذلك »

فقطع عبد الرحمن كلامه قائلا : « انها من خيرة النساء جمالا ، واذا وفقنا الى ما نرجوه من النصر كنت أول من يسر بظفرك بها .. غير انى أرجو أن يبقی ذلك مكتوما عن كل انسان لأسباب تعلم بعضها وتجهل البعض الآخر ، ولا تكلفنى التصريح بأكثر من ذلك »

فأحس هانىء من تلك الساعة بثقل أزيح عن صدره وارتاح باله ، وإن كانت اشارة عبد الرحمن الى الأسباب التى لا يعلمها قد شغلت خاطره قليلا . على انه شعر بميل شديد الى مكاشفة مریم بما دار بشأنها مع عبد الرحمن .. وذلك طبيعى فى المحبين ، فانهم يتلذذون بمكاشفة بعضهم بعضا بأخبار الناس .. فكيف بما يتعلق بهم ولا سيما ما كان مرجعه الى تحقيق أمانيتهم ، وعلى الأخص اذا أوّتمن أحدهم على سر وطلب اليه كتمانته ، فانه يزداد ميلا الى مشاركة حبيبه الاطلاع عليه ، كأنه يعد ذلك اكراما له بشيء ثمين أوّتمن هو عليه

ثم عاد الأميران الى السكوت مدة ، والركب ماش ، حتى دخلوا المعسكر .. وكان الجند قد فرغوا من اقتسام الغنائم

وهم فرحون بما نالوه منها وخصوصا البرابرة لما علمت من
مطامعهم .. وظل الأميران سائرین حتى وصلا خيمة الأمير عبد
الرحمن فدخلاها ، ثم صفق عبد الرحمن فجاءه أحد الغلمان
فقال له : « ادع الأمراء الى هنا الساعة »

فلما خرج الغلام التفت عبد الرحمن الى هانيء ، وقال له :
« قد علمت من أخبار الجواسيس وغيرهم ان طاغية اکتانيا
الکونت أود معسكر بجنده في مضيق دردون على بضع
ساعات من هذا المكان (١) ، فينبغي لنا أن نبادر بالهجوم قبل أن
يتأهبوا للدفاع .. فاذا غلبناهم وقتلنا أميرهم ذهب عنا نصف
العناء في هذا الفتح أو هو العناء كله ، ولم يبق من يقف في
سبيلها الى نهر لوار .. فماذا ترى ؟ »

قال هانيء : « أرى أن نبادر الى الحرب ، وروح الجند
المعنوية ما تزال عالية من أثر النصر »

قال عبد الرحمن : « متى حضر الأمراء استشرناهم ، ولا
أظنهم الا موافقين على الزحف ، فنرحل برجالنا وتترك الأخبية
في مكانها وعندها بعض الحامية والغنائم .. فاذا هزمنا الافرنج
باذن الله حملنا نساءنا وغنائمنا ، وسرنا الى تورس على
نهر لوار »

وبعد قليل جاء الأمراء وهم بضعة عشر أميرا ، وفيهم العربی
والبربری والشامي والمصري والنبطي وغيرهم ، وفي جملتهم

(١) دينو - والمسافة اطول من ذلك

الأمير بسطام . فعرض عبد الرحمن عليهم رأيهم ، وساعده هانىء على تنفيذه فوافقوا جميعا على الرحيل فى صباح الغد على أن يتركوا النساء فى الأخبية حيث أقيمت . فلما أجمعوا على ذلك ، التفت عبد الرحمن اليهم وقال لهم : « أتم تعلمون اننا سائرون لمحاربة هؤلاء الافرنج فى معسكرهم ، والمسافة بيننا قرية وهم متحصنون فى جبالهم فينبغى لنا أن نسير اليهم خفافا . ولا يخفى عليكم ما أصابه رجالنا من الغنائم فى أثناء الفتوح التى وفقنا اليها منذ خروجنا من الأندلس وهى ثقيلة ، حتى لقد ثقل على الرجل حمل غنائمه وحدها بلا حرب (١) .. فكيف اذا اضطر الى الهجوم والركض ، فالرأى على ما أرى أن يتركوا غنائمهم فى هذا المعسكر بقرب الأخبية ، فتبقى هناك هى والنساء ونجعل معها حامية من رجالنا .. فاذا بلغنا من عدونا ما نريده أضفنا اليها ما نغتمه منهم .. » . قال عبد الرحمن ذلك وهو يتوقع معارضة بعضهم لعلمه بحرص أولئك القوم على حطام الدنيا ، وفيهم من لم يأت الى تلك الحرب الا رغبة فى الأموال .. فاستدرك هانىء ما خشيه عبد الرحمن قائلا : « ان الأمير مصيب فى رأيه ولا أظنكم الا موافقين عليه ، لأننا نخشى اذا جاهد رجالنا وهم مثقلون بالغنائم أن يعجزهم حملها فينوءون تحت أثقالها ، ولا يقاتلون كما ينبغى فى ساحة الوغى .. ولا يخفى عليكم ما يترتب على ذلك من الفشل »

وكان عبد الرحمن يخشى الاعتراض خصوصا من الأمير
بسطام لحرص رجاله على الأموال لسبب تقدم ذكره ، وكان
عبد الرحمن في أثناء كلام هانىء يتفرس في وجوه الأمراء ..
فوجد التردد ظاهرا وخاصة في وجه بسطام ، فاستأنف الكلام
قائلا : « والذي أراه أن نعهد بحراسة تلك الغنائم الى الأمير
بسطام ومن يختارهم من رجاله ، ومعهم جماعة من رجال سائر
الأمراء .. »



فوقع ذلك رأى موقع الاستحسان عند الجميع ، فوافقوا
عليه وخرجوا لتنفيذه وليأمرؤا رجالهم بالتأهب للرحيل في
صباح الغد ..

فذهب هانىء الى خيمته ، ولم ينم تلك الليلة لما خالج أفكاره
من الهواجس بمريم على أثر ما سمعه من عبد الرحمن ، حتى
حدثته نفسه أن يطير اليها في ذلك الليل ويكاشفها بما دار بينه
وبين عبد الرحمن بشأنها ، ويخبرها بعزمهم على الرحيل الى
محاربة الافرنج ، ويصبرها حتى ساعة الرجوع . وقد زاده رغبة
في الذهاب اليها انه فارقها ولم يتمكن من وداعها كما يريد ،
ولكنه تذكر أهمية وجوده في الصباح هناك وخشى أن يغضب
عبد الرحمن فرجع عن عزمه

- ٢٥ -

المنديل

وفي الصباح ، قام المسلمون للصلاة .. ثم نفخ في النفير فتأهبوا للسير ، وساروا كأنهم بحر يتلاطم بالأمواج وفيهم الفرسان والمشاة وبينهم الرماحة والرماة .. وقائد الفرسان العام هانىء ، وقد ركب جواده ولبس خوذته والتف بعباءته ، وقوضوا الخيام ، ولم يتركوا منها الا ما وضعوا فيه غنائمهم ، ومعها الأمير بسطام وبعض رجاله ونفر من رجال القبائل الأخرى وبعد المسير بضع ساعات ، أشرفوا على جبال أخبرهم الجواسيس ان أود ورجاله متحصنون فيها .. فنزل المسلمون فى سهل بالقرب من ذلك المضيق ، وترجّل الفرسان وسرحوا خيولهم للعلف والراحة ، على أن يستريحوا ريثما يطيب لهم الهجوم .. وقد أقاموا الحراس حول المعسكر ، وبثوا سراياهم يستطلعون أحوال أعدائهم ومناعة مواقعهم ليعلموا من أين يهاجمونهم ، وذهب هانىء للاستراحة فى خيمته . وفى المساء جاءت الطلائع فأخبروا ان الافرنج مقيمون فى الجبال - وهم كثيرون - وقد تحصنوا وأقاموا لا يبدون حراكا . فاجتمع أمراء المسلمين وتفاوضوا فى الأمر ، فرأوا ان الهجوم على حصون الافرنج شديد الخطر ، فتمهلوا ليروا ما يبدو منهم .. فاذا لم



« فنزل المسامون في سهل بالقرب من المضيق ، على ان يستريحوا ريثما يطيب لهم الهجوم . وقد اقاموا الحراس حول المعسكر . وبثوا سراياهم يستطلعون احوال اعدائهم »

يخرجوا من حصونهم فكروا في الهجوم عليهم
فبات هانىء تلك الليلة وقد عادت اليه هواجسه ، وعاد الى
التفكير في مفارقة المعسكر بضع ساعات ، ولا خطر على الجند
في غيابه للأسباب التى قدمناها .. على انه ظل مترددا في الذهاب
خشية الفشل ، وحياءً من عبد الرحمن ..

فأصبح فى اليوم التالى وخرج على قدميه ، وقد تراكت عليه
الهواجس ، وهو يفكر فى حاله وحال مريم وحال الجند . وبينما
هو يتمشى فى سهل خارج المعسكر ، رأى رجلا بلباس عربى
قادما من عرض البر يهرول نحوه ويشير اليه ، فوقف .. فلما
دنا الرجل منه تفرس هانىء فيه فاذا هو ملثم ، فناداه فمد الرجل
يده الى جيبه وأخرج منديلا وسلمه الى هانىء . فلم يكده
هانىء يتسلم المنديل حتى شم منه رائحة مريم .. عرف ذلك من
طبيها الذى أعطاه لها بالأمس ، فصاح فى الرجل : « من أنت ؟
وما خبرك ؟ »

فقال : « ان هذا المنديل ينبئك نيابة عنى ان صاحبه فى حاجة
اليك على عجل » . قال ذلك وسار يعدو فى عرض البر .. فبهت
هانىء ثم انتبه لنفسه وصاح فى الرجل أن يقف فلم يلتفت اليه .
فوقف هنيهة وهو يفكر فيما عسى أن يكون سبب تلك
الدعوة المستعجلة ، ولم يشك فى ان المنديل مرسل من مريم وان
الطيب طيها ، فلم ير بدا من المبادرة الى اجابة الدعوة وهو
مطمئن البال على المعسكر ، وأسرع الى خيمته فركب جواده

والتف بعباءته وسار يلتمس الخباء ، ولم ينبىء أحدا بمسيره لعلمه انه سيعود قبل انقضاء النهار ، فلا بأس من غيابه ، وخشى اذا شاور عبد الرحمن أن يستخف بعمله أو أن يمنعه من الذهاب سار هانىء وهو يستحث جواده لا يلتفت يمينا ولا شمالا حتى وصل الى الخباء ، وقد مالت الشمس على خط الهاجرة وتبطل هو وجواده بالعرق . وحال وصوله ترجل ودخل توا الى خباء الأمير عبد الرحمن ، واستدعى القهرمانة فجاءت وهى تتوكأ على فخذيها وتمشى الهوينى .. وحالما وقع نظرها عليه ابتدرته قائلة : « أين مريم ؟ .. »

فبغت لسؤالها ، وقال لها : « أتسألينى عن مريم وأنا انما جئت لأسألك عنها .. أين هى ؟ .. »
 قالت : « هى عندك .. ألم تبعث فى طلبها هذا الصباح ؟ »
 قال هانىء : « أنا ؟ .. بعثت فى طلبها ؟ .. أين هى ؟ .. »
 قولى .. ان الوقت لايساعدنا على المزاح .. »

فقلت وقد ظهرت علامات الدهشة على وجهها الكالح وامتقع لونها : « أظنك أنت الذى تمزح ، ألم تبعث اليها فى هذا الصباح مع رسولك ومعه جوادك وعباءتك وخوذتك ؟ . »
 فصاح فيها وقد اشتد غضبه : « كلا لم أبعث أحدا ، وهذا جوادى معى ، وهذه عباءتى .. فكرى فيما تقولين . قولى الحق والا قطعت رأسك بهذا السيف » . قال ذلك ويده تمسك بسيفه .. فخافت القهرمانة وتحيرت بماذا تجيبه ، وقد ارتج عليها من

الخوف والدهشة ، وقالت : « تمهّل يا بنى لأقص عليك الخبر ..
 جاءنا فى هذا الصباح رجل أظنه من رجالك ، وقد ركب جوادا
 ومعه جواد آخر أدهم لم تشك أنه جوادك .. عليه عباءة
 وخوذة ، وقال لى انك تطلب مريم حالا بأمر الأمير عبد الرحمن
 لأمر ضرورى يتعلق بوالدتها ، ودفع الىّ هذا الكيس (ومدت
 يدها وأخرجت كيسا فيه دراهم) فامتنعت فى بادىء الأمر ولم
 أطعه ، فألح علىّ وأرانى الجواد والعباءة ، وقال لى انك تطلب
 مريم لغرض عاجل يتعلق بالحرب ، وانك بعثت لها جوادك
 لتركب عليه فرفضت طلبه .. فذكر لى علامة لا يعرفها أحد سوانا
 وهى قارورة الطيب . وذكر أيضا تدليلا على صدقه انك اجتمعت
 بمريم عندى وأعطيته قارورة الطيب فلم أستطع الا تصديقه ،
 ومع ذلك فانى لم أسلم بارسالها الا بعد أن أتى بعلامة من الأمير
 عبد الرحمن لا يعرفها سوى ، وأخيرا سلمته اياها وأنا خائفة
 عليها ، ولشدة خوفى أخرجت معها أكثر نساء الأمير عبد الرحمن
 حظوة عنده وأوصيتها بها »

وكان هانىء يسمع كلام القهرمانه وهو يرتعد من شدة
 الغضب .. فلما تحقق من ذهاب مريم ، قال : « ومن هى تلك
 الحظية ؟ .. »

قالت : « هى ميمونة !الفرنجية .. أظنك تعرفها .. »
 فقال : « نعم أعرفها ، والى أين ذهبا ؟ .. وكيف ؟ .. »
 قالت : « حينما توهمت صدق ذلك الرسول ، ورأيت مريم

راغبة فى الذهاب أذنت لها فيه ، فركبت الجواد الأدهم وركبت
ميمونة جوادا آخر ، ومضوا نحو المعسكر .. »

- ٢٦ -

البحث عن مريم

فوقف هانىء وهو ينتفض انتفاضا شديدا من شدة التأثر ،
والقهرمانه واقفة بين يديه وقلبها يخفق خوفا ، وقد أخذت
تخفف من غضبه قائلة : « لا بأس عليها يابنى .. ان ميمونة تحبها
حبا شديدا ، وأظنها تحرص عليها كثيرا .. اجلس وخفف عنك ..
لا بأس عليها .. »

فلم يلتفت هانىء الى كلامها ولكنه ثاب الى رشده وفكر
فيما سمعه ، فتذكر ان القهرمانه ذكرت والدته مريم ، فظن ان
للأمر سببا متصلا بسر تلك الوالدة منذ رأوها لأول مرة بعد
فتح بوردو ، وخيل له ان سألته احتالت تلك الحيلة لاسترجاع
ابنتها . ولكنه تذكر القارورة ، فرأى ان ذكرها لا ينطبق على
ذلك الظن ، فلم يدر ماذا يقول . فلما تشابه الأمر عليه ، رأى
أن يسرع الى المعسكر للبحث عنها ، فتذكر للحال ان الأمير
بسطاما هناك ، فتبادر الى ذهنه ان الأمير المذكور هو الذى
احتال هذه الحيلة لاختطاف مريم منه ، لأنه لم يزل عالقا بها منذ
يوم الفتح . فالتفت هانىء الى القهرمانه وقال : « تقولين انهما

سارا نحو هذا المعسكر ؟ » وأشار الى معسكرهم بالأمس
 قالت : « نعم يامولاي .. »
 فأسرع الى جواده فركبه وحوّل وجهته نحو ذلك المعسكر ،
 وهمز الجواد وأطلق له العنان
 وقد عزم على أن يقتل بسطاما اذا رأى مريم عنده ، ومع
 سرعة عدو الجواد فقد كان يحسبه واقفا
 وكان في المعسكر مضارب قليلة للغنائم ، وحولها الحراس
 من رجال بسطام وغيرهم .. ولما أشرف عليهم هانئ رآهم
 يختصمون ويتضاربون وقد علا ضجيجهم ، فلما رأوه تقدم
 بعضهم وهم يستغيثون . فصاح فيهم : « ما الخبر ؟ .. »
 فقال أحدهم : « نشكو اليك ظلم الأمير بسطام ، فانه أوصى
 رجاله فاستأثروا بالغنائم ، وأخذوا من أنصبه رجالنا فأضافوها
 الى أنصبتهم .. ولم يسمع هو لصراخنا »
 فازداد هانئ غيظا من بسطام ، وصاح : « أين بسطام ؟ ..
 أين هو ؟ .. »

ولم يتم كلامه حتى خرج اليه بسطام وهو يمشى الهوينى ،
 ويترنح ترنح السكران .. فلما رآه هانئ لم يتمالك أن صاح
 فيه : « ما هذه الجرأة على اغتصاب أموال المسلمين ؟ .. قد
 أمنك الأمير على الغنائم فاستأثرت بها وسطوت على حقوق
 المسلمين .. لقد صدق القائلون انك لست مسلما .. »
 فقهقه بسطام وهو يمسح لحيته من بقايا طعام تساقط عليها

كأنه كان على المائدة ، وقال : « مالك وللغنائم .. ألم تشغلك تلك النصرانية عنها ؟ دع الحرب واذهب الى الخباء فانك أولى بمعاشرة النساء .. ولكنك ستذوق عاقبة غيئك قريباً » . قال ذلك وهو يضحك كأنه قد ضمن فوزه

فحمى غضب هانيء من تلك العبارة حتى غاب عن رشده ، فاستل حسامه وساق جواده نحوه وأطلق الحسام وهو يعتمد قطع رأسه ، فخلا بسطام من الضربة فهوى هانيء حتى كاد يقع عن جواده فازداد حنقا وحوّل الشكيمة نحوه ، وانقضّ عليه انقضاض الصاعقة ، فتوسط بعض الرجال بينهما وهانيء لا يبالي بهم ، ولم يعد يصبر عن قتل بسطام .. ففرّ بسطام الى إحدى الخيام واختبأ فيها ، فهمّ هانيء أن يترجّل ويتبعه .. فأخاط بعض الرجال بجواد هانيء وتوسلوا اليه أن يغمد سيفه حبا للاسلام والمسلمين ، فرجع هانيء الى رشده ووقف وهو يرتجف من شدة الغضب ، كأن ذكر الاسلام خفّف من غضبه وسكن من روعه ، وخاصة حينما تصور ما قد ينجم عن قتل بسطام من الخصام بين فرق الجند . فأمسك نفسه وتجلد واكتفى بفرار بسطام .. وغاد الى الأمر الذي جاء من أجله ، فعمد الى البحث عن مريم هناك .. فجعل ينظر في الخيول الواقعة حول الخيام ، فلم ير بينها جوادا أدهم ولا رأى هناك نساء ، فسأل بعض الوقوف ممن يثق بهم من رجاله عمن في الخيام ، فقالوا له : « ليس فيها غير الغنائم »

فخلا بنفر يعرفهم ، وسألهم : « هل مرَّ بكم ركب على أفراس
ومعهم نساء ؟ » فقالوا : « كلا .. اتنا هنا منذ الأمس ، ولم
ترَ أحدا » ..

فوقف في حيرة ، وقد عادت اليه هواجسه عن مريم وذهابها ،
والتفت الى ما يحيط به من السهل وأكثره عار من الأشجار الا
بعض التلال ، عليها الدالية من الكرم وبعض أغراس الزيتون ..
فلم ير أشباحا ، فتحير في أمره وحدثته نفسه أن يعود الى
دردون لعلهم ذهبوا بمريم الى هناك ..

وكانت الشمس قد مالت عن الهاجرة والجواد قد أنهكه
التعب فخشى اذا بالغ في سوقه وهو في تلك الحال أن يعجز عن
مواصلة السير ، وهو اذا لم يستحثه لا يصل الى المعسكر قبل
العشاء .. على انه لم يجد بدا من مراعاة حال الجواد ، فحوَّل
شكيمته وتوجَّه نحو دردون ..

— ٢٧ —

المنزل الخالي

أما مريم ، فانها خرجت في ذلك الصباح مع ميمونة — كما
تقدم — وقد ركبت على ذلك الجواد الأدهم ، وتزملت بالعباءة ،
وعلقت الخوذة بالسرج ، وسأقت الجواد في أثر الرسول ..
وميمونة على جواد آخر بجانبها وهي تنظر الى مريم على

الجواد ، منتصبه !لقامة كأفرس الفرسان . وكانت ميمونة تظهر دهشتها لذلك الطلب العاجل ، وأنها انما رافقتها لحمايتها مما قد يكون من بواعث الخطر على أثر ذلك . أما مريم فكانت تستحث جوادها وأفكارها تائهة في عالم التصورات ، وصورة هانىء تتخلل كل خيال يمر في ذهنها

ساروا ساعة ثم أدركوا المعسكر القديم الى يسارهم عن بعد ، وكانت مريم تحسب انها ستذهب الى ذلك المعسكر . لأنها لم تكن تعلم بانتقال الجند الى دردون .. فلما زأت الخيام قليلة سألت الرسول عن مقر الجند وعن المكان الذى يقصدونه ، فقال : « ان الجند انتقلوا الى دردون لملاقاة الافرنج هناك ، وسيعودون الى هنا .. وأما نحن فانتا سائرون الى مكان على مقربة من دردون ، أمرنى مولاي والأمير أن أوصلك اليه ، فاما أن يكون هو فى انتظارك هناك أو انه يأتى بعد وصولك » فصدقته مريم وامتلأت نفسها شوقا الى لقاء الحبيب ، وساروا على تلك الصورة بضع ساعات ، وقد تركوا بوردو الى يسارهم أيضا حتى وصلوا الى بناء منفرد قد تدأعت جدران سوره ، فدخل الرسول أمامهم من باب السور الى حديقة قد غشيها الاهمال ، ولا يخفى على المتأمل فيها انها من مساكن أهل اليسار وانهم غادروها منذ بضعة أسابيع .. فترجلتا ودخلتا الحديقة ، فتصدت ميمونة للاعتراض على الرسول غيرة على مريم ، فقالت له : « الى أين أنت سائر بنا ؟ .. اتنا على مقربة من دردون على

ما أظن.. وما هذا البيت الذى أدخلتنا فيه ؟ احذر أن تكون مخطئا»
فوقف الرجل متأدبا ، وقال : « لست مخطئا يا مولاتى ، اتنا
فى قصر أحد أمراء اكيثانيا وقد هجره أهله فرارا من جند
المسلمين . وفى هذه المزارع قصور كثيرة هجرها أهلها وبقيت
غنيمة للمسلمين »

فقلت : « وأين الأمير هانىء ؟ .. »
قال : « يبدو انه لم يأت بعد لأنى لم أر أثرا يدل على مجيئه ،
ولكنه لا يلبث أن يأتى سريعا » . قال ذلك ومشى بهما حتى
أدخلهما البيت من باب كبير كان مفتوحا ، وليس فى المنزل الا
بعض المقاعد أو الكراسى الضخمة مما لا يستطيع حمله فى أثناء
الفرار . وقد استولى السكون على المكان الا ما كان يتردد من
صدى خطواتهم وصهيل الجوادين .. أما مريم ، فلما وصلت ولم
تجد هانئا ولا أثرا يدل عليه بدأت تشك فيما احتوته تلك
الرسالة ، ولكنها سكنت لترى ماذا يكون ، وألقت معظم الهم
على ميمونة لأنها أكبر منها سنا وأوسع علما بتلك البلاد وبأحوال
ذلك الجند . ولم تكن ميمونة تجهل ما يخالج أفكار مريم من
هذا القبيل ، فكانت تتظاهر بالدهشة أيضا ، وتسأل الرسول
مثل أسئلة مريم ، حتى وصلوا الى قاعة ليس فيها الا مقعدان
قديمان .. فجلست ميمونة ودعت مريم للجلوس فجلست وهى
تنفرس فى المكان وتنظر الى ميمونة ، وميمونة تشاركها فى
الارتباك .. قضتا برهة وهما ساكتتان ، ومريم تتوقع قدوم هانىء

وقد شاعت عيناها وهى تنظر الى الخارج من نافذة تطل على الحديقة ، وميمونة بجانبها والمكان هادئ والخادم الذى أوصلهما لم يعد يظهر . فتظاهرت ميمونة بالخوف ، وقالت : « ويلاه .. أين نحن ؟ ما الذى جرى لنا ؟ أين ذلك الرسول ؟ يا ليتنا اصطحبنا بعض الصقالبة من خصياز الخباء » ثم صفقت كأنها تستقدم الرجل ، فلم تسمع جوابا غير الصدى ..
 أما مريم فلما رأت ميمونة خائفة ، خافت هى أيضا ووقفت وقد ظهر الاهتمام فى وجهها ، وقالت : « هل خدعونا ؟ .. أين ذلك الرجل ؟ كيف يتركنا هنا ويذهب ؟ الى أين ذهب ؟ » وكانت الشمس قد أدركت الأصيل ولم يتناولوا طعاما من الصباح

- ٢٨ -

المكيدة

وبينما هما كذلك اذ سمعتا صوت سهيل وقرقة لجام .. فالتفتت مريم نحو الباب فرأت فارسا وفى ركابه رجلان ملشان ، وهو يركض جواده ركضا عنيفا حتى وصل الى باب البستان فترجّل .. فظنت مريم لأول وهلة انه هائىء فخفق قلبها ، ولم تتمالك عن الوثوب نحو الحديقة ، ولم تبال باختلاف ملابس ذلك الفارس وجواده عن لباس هائىء وجواده لاعتقادها انه أرسل اليها العباءة والجواد وقد جاء متكرا . ولكنها لم تكد

تفكر في ذلك حتى تطلعت الى القادم فوجدته رجلا بدينا يترنح في مشيته ، وسيفه يجر الى جانبه وعباءته مسترخية وراءه . ولا تسل عن اضطرابها حينما عرفت انه بسطام ، فسيطرت عليها رعدة ، واصطكت ركبتها ، وكاد الدم يجمد في عروقها ، والتفتت الى ميمونة فرأتها تظهر البغته وقد تصدرت لمقابلة ذلك القادم بالنيابة عن مريم ، فلما وصل بسطام استقبلته ميمونة وهي تقول : « ما الذى تريده أيها الأمير ؟ .. »

فأجابها وهو يلهث من التعب والرجلان يمشيان وراءه :
« وما الذى يعنىك من هذا الأمر ؟ .. »

قالت : « ليس في هذا المكان رجال ، ولا أحد يهتمكم أمره ، فلا حاجة الى دخولكم اليه .. »

قال : « ونحن انما جئنا لأجل النساء .. أليست مريم النصرانية هنا ؟ .. » . قال ذلك وهو يضحك ، ومد يده الى وجه مريم .. فنفرت وتباعدت ، فأمسكت ميمونة بيد بسطام وقالت :
« لا تفعل أيها الأمير ما لا يليق بالأمرء .. واعلم انك اذا مسستها عرضت نفسك لغضب أمير جند المسلمين .. »

فصاح بسطام فيها صيحة شديدة ، وقال : « من أقامك ناصحا أو نذيرا ؟ .. وما هو شأنك ؟ .. انى لا أخاطبك .. »
قال ذلك وحوّل وجهه ومشى نحو مريم ، فبالغت ميمونة في ممانعته وقبضت على زنده فتخلص منها بعنف ، فوقعت على الأرض ، فالتفت الى الرجلين وقال : « قيّدا هذه المرأة بيديها

ورجليها واحبسها في هذه الغرفة ، واقفلا الباب عليها «
ولم يتم قوله حتى انقض الرجلان على ميمونة بالأمراس ،
وقيّدا يديها ورجليها وهي تصيح وتستغيث وتحاول التخلص ،
ومريم تهم بانقاذها وبسطام يمنعها بدون أن يمسها بيده ، وهو
يقول لها : « لا تخافى يا جميلة ، اننا لن نصيبها بسوء .. وانما
أردنا ايقافها عند حدها » . فلما فرغا من تقييدها ، جرّها
الرجلان نحو تلك الغرفة .. فالتفتت نحو بسطام وهي تقول :
« لا بأس علىّ مما فعلتموه بى ، ولكننى أتوسل اليكم ألا
تمسوا هذه الفتاة بسوء »

ثم دخل الرجلان بميمونة الى بعض حجرات ذلك البيت
وأغلقا الباب . فلما خلوا هناك تركاها وشأنها .. فقالت بصوت
خافت : « من هو عدلان منكما ؟ .. »

فتقدم أحدهما وأزاح اللثام عن وجهه ، فبانت ملامحه ونظر
اليها بعينه الحولاء نظر المحب الولهان ، وقال : « أنا عبدك
عدلان ، أرجو أن أكون قد أديت مهمتك كما تشائين .. »

قالت : « بورك فيك » وابتسمت ، ثم أردفت : « قل لى
أين هو هانىء ؟ .. وماذا فعلت به ؟ .. »

قال : « فعلت ما أمرتنى به ياسيدة النساء .. وانما أرجو
أن تكونى راضية عن عبدك وأسير هواك ، وتتحققى انك
لا تجدين من يذعن لأمرى وينفذ ما ريك سوى »

فابتسمت ابتسامة أخرى وحركت أجفانها حركة الدلال

والرضا ، وقالت : « اذا كنت قد فعلت ما فعلته بخفة ولباقة فانى راضية .. قل لى أين هو هانىء ؟ .. »
 قال : « أظنه لا يزال تائها فى هذه الصحراء يفتش عن حبيته .. »

قالت : « وكيف أوصلت اليه المنديل ؟ .. »
 قال : « بعد أن أتيتك بالجواد الأدهم أمس ، وعهدت به لهذا البطل (وأشار الى رفيقه) وأفهمته كيف يخدع القهرمانة .. وكل ذلك بارشادك، ذهبت بالمنديل الى معسكر المسلمين فوصلت اليهم صباحا . ومن حسن حظ مولاتى وتوفيقيها أن رأيت الرجل خارجا يتمشى ، فأسرعت نحوه ودفعت اليه المنديل وأنا ملثم . فسألنى عما أهدف اليه ، فأخبرته ان صاحبة المنديل تدعوه اليها حالا ، وتركته وفررت الى مكان أراه منه ولا يرانى ، فرأيته قد أسرع الى جواده فركبه وساقه نحو الخباء . فلما تحققت من ذهابه أسرعت من طريق آخر الى معسكر مولاي الكونت أود وأخبرته بالواقع كما أمرت ، وحرصته على مباغته المسلمين حالا وقائد فرسانهم غائب .. فاقتنع ونادى رجاله وهجموا على المسلمين وهم فى غفلة . وقد رأيتهم فى فشل عظيم ، ولا أظنهم الا قد ذعروا وتقهقروا .. والغالب ان الافرنج قد استولوا على معسكرهم الآن .. »

وكان عدلان يتكلم وميمونة ترمق حركاته ، وكلما قال عبارة تبسم له وتبدى ارتياحها ، وهو يتكلم بحماسة وسرور . فلما

قال ذلك ، قالت : « ثم كيف فعلت بسطام هذا ؟ .. »
 قال : « ذهبت اليه في المعسكر القديم وأظهرت اني أخدمه
 خدمة تسره ، واني فاعل ذلك من تلقاء نفسي .. وأخبرته أن
 مريم خرجت من الخباء الى هذا المكان ، واني سأذهب به اليها
 فيبلغ منها ما يشاء على شرط أن يحافظ عليك .. فأثنى على
 غيرتي ودفع اليّ هدية ثمينة ، وكنت أتوقع أن يلتقى هانيء به
 فيقتتلا فيقضى أحدهما على الآخر .. فيكمل توفيقك ، وتتم
 رغبتنا بانقسام هذا الجند ، وقد جاء هانيء بعد ذهابه الى الخباء
 ولم يجد مريم فيه .. فظن ان بسطاما اختطفها، فلما لقيه في الخيام
 تشاجرا ، وكاد هانيء أن يفتك به لو لم يجبن هذا ويدخل
 خيمته . وبعد ذهاب هانيء حرضت بسطاما على الركوب سريعا ،
 فركب وسرت في ركابه .. والتقينا في أثناء الطريق بأخي هذا
 وكان قد جاء يستعجلنا ، فبدلت عباءته بعباءتي وغيّرت قيافته ،
 وجئنا في ركاب بسطام كما رأيتنا .. »

فقالت ميمونة : « بورك فيك من خادم أمين .. واذا تحققت
 أمنيّتنا بفشل جند العرب دعوتك بلقب آخر » . قالت ذلك
 وأشارت بحاجبيها ..

فأشرق وجهه وجعل ينظر اليها وقلبه يكاد يطفح سرورا لما
 شاهده من أنسها وتلطفها

- ٢٩ -

الختبر

أما مريم ، فلما رأت ميمونة مسوقة الى تلك الحجرة وهى مقيدة الأطراف ، وسمعت تضرعها الى بسطام بشأنها .. امنت بأنها تحبها ، ولكنها كانت فى شغل من أمر نفسها لأنها لم تتوقع بعد ما رآته الا الفتك الذريع من بسطام . وهو مع غلظته وخشوته كانت رائحة الخمر تفوح من فمه ، وقد احمرت عيناه واربد لون وجهه ، وتمنطق بجلد عريض غرس فيه خنجرا ضخما وضع يمينه على قبضته ويسراه على قبضة السيف ، فبدا لعينى مريم شيطانا رجيا .. فاستعاذت بالله من ذلك الشيطان ، وتضرعت اليه تعالى أن ينجيها منه .. على انها لم تتمالك عن الاضطراب الشديد من منظر ذلك الوحش الكاسر ، وكانت لا تزال متزملة بالعباءة الحمراء التى تعتقد انها عباءة هانىء فوق ردائها الأسود ، وعلى رأسها خمار أسود يغطى جبينها الى الحاجبين ، وقد تلثمت به من أسفل الذقن فبان وجهها من خلال ذلك مستديرا ، وقد تلالأت عيناها وزادهما الانقباض هية . ومع كل ما شاهدته من أسباب الخوف لم تخر عزيمتها . ولعلها كانت عند لقاء بسطام لأول وهلة أكثر اضطرابا منها بعد ظهور تلك الفظاعة بتقييد ميمونة وحبسها ، وقد أصبحت وهى معه

وحيدين في ذلك البيت الواسع ..

أما بسطام ، فلما اختلى بمريم على تلك الصورة دعاها الى الجلوس على كرسى هناك ، كأنه يريد أن يخاطبها بلطف على سبيل الاقتناع . فجلست ، وجلس هو على كرسى آخر ، والتف بعباءته حتى غطت السيف والخنجر ، وهو يقول بلغة عريضة مستعجمة في نغمة بربرية : « لا تخافى يا مريم .. انى لا أريد بك سوءا لأنى أحبك حبا شديدا (وبالع في تشديد الدال) وأنت على ما يظهر قد غشك ذلك الغلام العربى ، فانخدعت بأقواله .. على انك نصيبى وحدى من هذه الحرب ، ولو شئت أن أمنعه منك لمنعته من أول ساعة ، ولكننى تلطفت بك وأشفقت على مزاجك .. والآن قد وقعت بين يدى ، فلا مفر لك .. فأطيعينى » وكانت مريم تسمع كلامه وأطرافها ترتعد من شدة التأثير وهى تفكر فى مجيئه الى هناك : هل كان على موعد أو كان ذلك مصادفة .. وأحبت أن تماطله فى الحديث ريثما يأتى هانىء لاعتقادها انه قادم اليها فقالت : « دع عنك ذلك يا أمير فان لكل شىء وقتا ، وأتمم الآن فى حرب فبعد انقضائها يأخذ كل ذى حق حقه .. »

فقال : « لاتماطينى بالمحال ، ولا تظنى ان هائئا سيبلغ منك شعرة ، فقد صرت فى قبضة يدى ولن يخلصك منها أحد ، فالأفضل لك أن تطيعينى والا فانى بالغ منك ما أريد قهرا » فلما سمعت تهديده عظم عليها الأمر .. ولكنها ظلت تحاول

مماطلته ريثما يأتي هانىء لثقتها بأن هائثا آت لا محالة ، فقالت :
« لا أرى باعثا الى التهديد أيها الأمير ، فان من يعد نفسه أميرا
ويفتخر بشجاعته وشدة بأسه لا يليق به أن يهدد فتاة بمثل هذه
العبارات ، وخصوصا في مثل ما أتم فيه من الجهاد »

فضحك بسطام ضحكة استخفاف ، وقال : « نعم انى أمير
شجاع وساحة الوغى تشهد لى بذلك .. ولولاى لم يكن لذلك
الغلام ذكر بين الرجال ، ولا كان لأولئك العرب راية تخفق
فى هذه البلاد ، فاذا علمت ذلك فاقلى عن ذكر سواى »

فلما سمعت تعريضه بهانىء وبالعرب ، ورأت ان اللين لا يجدى
معه نفعا ، عادت الى ما شبت عليه من الأنفة ، وقالت : « دع
عنك التعريض والتلميح فانك لست من رجال الأمير هانىء ، ولو
حضر الآن ما تجاسرت على التحدث فى حضرته بمثل هذا الكلام »
فحملق بسطام بعينه ، ووقف بغتة وأمسك بذراع مريم ،
وضغط بكل قوته كأنه يريد أن ييغتها لعلها تلين .. فشعر بصلاية
عضلها كأنه قابض على حديد ، ثم جذبت يدها من قبضته ، فلم
يستطع منعها ، ووقفت وهى تقول : « ابعد عنى ولا تمسنى ،
فقد بالغت فى الاستخفاف حتى نفد صبرى »

فلما شاهد منها هذا الاصرار ، ورأى فيها تلك القوة اشتد
غيظه وقال لها غاضبا : « لا تعللى نفسك بالمحال ، فانى ضاربك
بهذا السيف ضربة أقضى بها على حياتك .. هل أنت الا سبية
تباعين ببضعة دراهم ، وقد أخطأت فى محاسنتك فظننت ان

المحاسنة ضعف .. وأنت تعلمين ان في خبائى عشرات من أمثالك
يتمنّين رضائى «

— ٣٠ —

المعركة

وهمتّ مريم بأن تجيب بسطاما ، فسمعت ضجيجا في
البستان وقد علت الضوضاء ، وسمعت رجلا يقول : « ان الأمير
هانئا هنا .. »

فلما سمعت اسم هانىء بغتت واشتغلت عن بسطام باستطلاع
الخبر ، فأسرعت الى الباب وأسرع هو أيضا .. فرأت جماعة من
العرب قد وقفوا حول الجواد الأدهم ، وهم يقولون : « أليس
هذا جواد الأمير هانىء ؟ .. فأين هو ؟ »
فأجابهم بسطام : « ليس هانىء هنا .. ماذا تريدون منه ؟ »
فتقدم أحدهم وقد غشيه الغبار وتجلت البغته في وجهه
وتصبب العرق من جبينه ، وقد عرف الأمير بسطاما فقال : « ان
الافرنج هاجمونا واشتبك القتال بيننا وبينهم ، والأمير هانىء
غائب من الصباح ، وقد فشل فرساننا وكادت الدائرة تدور
علينا .. فخرجنا للبحث عنه ، فاذا لم يدركنا لم تقم لنا قائمة .
والأمير عبد الرحمن لم يستطع قيادة الفرسان لاشتغاله بسائر
الجند .. فلما رأينا هذا الجواد الأدهم ظنناه هنا »

فقال بسطام : « ليس هذا جواده .. والظاهر انه طلب النجاة بنفسه .. ابحثوا عنه في غير هذا المكان » . قال ذلك ، وتحول الى الداخل ..

فرجع الرجل ورفاقه الى الجواد ، وتأملوه جيدا ، فتحققوا انه ليس جواد هانيء ، فرجعوا

وكان جند العرب قد ضعف لغياب هانيء ، لأنهم لم يكونوا يتوقعون نشوب الحرب في ذلك اليوم ، وانما خرج اليهم الافرنج بغتة وهم في خيامهم لأسباب تقدم بيانها في أثناء حديث ميمونة . وكان عبد الرحمن في صباح ذلك اليوم في خيمته يصرف بعض الشئون منتظرا مجيء هانيء اليه للمداولة في أمر الجند ، فأبطأ هانيء عليه فانشغل خاطره وهمم باستقدامه ، واذا ببعض الرجال قد جاءوه مسرعين ينادون : « ان الافرنج قد خرجوا الينا كالسيل الجارف » وعلت ضوضاء الجند ، فخرج عبد الرحمن الى فرسه وبعث رسولا الى الأمير هانيء وسائر الأمراء ليجمعوا رجالهم ويتأهبوا للهجوم على عاداتهم . ولم يكذ يفعل ذلك حتى انهالت النبال على خيمته ، فتطلع الى ميدان المعركة فرأى الافرنج يهجمون وقد تصاعد غبارهم ، فركب جواده ونادى رجاله ووقف في انتظار هانيء ليقود الفرسان ويرتبهم ، فعاد الرسول وهو يقول : « لم نجد هانئا في خيمته ولا رأينا جواده في مربطه » فارتبك عبد الرحمن في أمره ، وقد كان يعتمد كثيرا على هانيء في تنظيم الهجوم لأنه قائد فرسانه ، والفرسان أقوى فرق

الجند عند العرب ، فغضب عبد الرحمن لتخلفه غضبا شديدا ، وأخذ على نفسه قيادة الفرسان فلم يستطع تنظيمهم لأنه لم يتعودهم ولا تعودوه والفرصة قصيرة . فالتحم الجيشان والعرب مرتبكون ، ولولا شجاعة عبد الرحمن وحسن تديره في ذلك المركز الحرج لتشتت رجاله منذ الصباح .. لكنه ظل رابط الجأش ، وأخذ يستحث الرجال ويمنيهم ويسير أمامهم الى صفوف الأعداء لا يبالي بما يتساقط عليه من النبال ، لأن موته في ساحة الحرب كان أيسر عليه من الفشل

فلما مالت الشمس عن خط الهاجرة ولم يأت هانيء ، بعث جماعة للبحث عنه ، وظل هو يدبر أمور الجند ويصبرهم ويحثهم ويشجعهم حتى كادت الشمس تدنو من المغيب ، وكاد الافرنج ينتصرون على العرب .. وكان الفرسان يحاربون وعيونهم شائعة في عرض البر يتوقعون قدوم قائدهم أو سماع خبر عنه . وكان الأمراء كلما التقى اثنان أو ثلاثة منهم ولو تحت خطر الموت ، تساءلوا عن هانيء وسبب غيابه ، وشعروا بأهميته في حروبهم أكثر مما كانوا يظنون

أما عبد الرحمن ، فمع سعة صدره وشدة حبه للأمير هانيء ، فقد حقد عليه وتوهم أن الحب حمله على المسير الى حبيته على اثر ما سمعه من رضائه عن حبهما . ولكنه كان في شغل عن التوسع في هذا الشأن بما يحيط به من المشاغل الهامة خشية الفشل .. على انه أضر اذا صح ظنه في هانيء ان يحرمه من

مريم . كانت تلك الأفكار تتوارد على ذهنه متقطعة يتخللها ارتبأكه فى كىف يتدارك الخطر المحدث به وبجنده . وكان مع ذلك لا يفتر عن التلفت والتطلع لعله يرى هائثا قاءما ، ولكنه لم يكن يرى الا ما يزيده اضطرابا بزيادة اضطراب الجند ، وخاصة الفرسان ، حتى كاد الا فرنج أن يصلوا الى خيمته

- ٣١ -

هائثان

وفىما هو يستحث رجاله ويحرضهم على الصبر والثبات ، لاحت منه التفاتة الى يسار الجند فرأى من خلال الغبار والنبال فارسا على جواد أدهم عليه عباءة حمراء ، وعلى رأسه خوذة ، وقد أشرع سيفه وأطلق لفرسه العنان ، فبذل الفرس أقصى ما عنده من العدو حتى اعتدل عنقه وتطاير عرفه وانتصب ذيله وامتدت قوائمه ، فاستطال بدنه وتناثر التراب من مواقع حوافره .. ولولا ذلك التناثر ما علمت مواقعها ، وتصاعد الغبار خلفه وهو منطلق بالفرس الذى بدا كأنه سابح فى الهواء وكأن الغبار يحاول اللحاق به فلا يدركه . والفارس ثابت على ظهره كأنه قطعة منه لا يبالى بالسهم المتطايرة ولا بالرجال المهاجمين . فلما رآه عبد الرحمن خفق قلبه سرورا لا اعتقاده انه هائىء ، فساق جواده نحوه حتى اقترب منه وهو يتوقع أن يقف له ، ولكنه

ظل هاجما نحو الافرنج وهو يقول: «أتاكم هانىء.. لا تفشلوا ، ولا تخافوا من غلمان الافرنج انهم غنيمتكم فى هذا اليوم » فلم يشك عبد الرحمن انه الأمير هانىء نفسه وأراد أحدهم أن يستقدمه الى عبد الرحمن فلم يصغ اليه ، وساق جواده الى معسكر الافرنج من جهة لم يكن الافرنج يظنون ان العرب يأتونهم منها .. فاشتدت عزائم العرب وخاصة الفرسان وساروا فى أثره كأنهم الأسود الكاسرة . فبغت الافرنج وأرادوا أن يحولوا قوتهم الى الجهة التى هاجمهم منها ذلك الفارس ، واذا بفارس آخر بعباءة حمراء وخوذة على جواد أدهم أيضا ، وقد استل حسامه وهجم على الافرنج من جانب آخر وهو يقول : « جاءكم الأمير هانىء » فتبعه من بقى من الفرسان فانقسم الافرنج شطرين لملاقاة الفريقين ، فضعفت قوتهم ، وازداد المسلمون ثباتا وشجاعة ، ولم يمض المساء حتى فرء الافرنج على بكرة أييهم وأصبح معسكرهم غنيمة للمسلمين ، فاستولى المسلمون على ما هناك من الخيام والأسلحة والأطعمة والذخائر. وكان الأمير عبد الرحمن قد شاهد هجوم الأمير الآخر من الناحية الأخرى وهو يشبه الأمير هانئا لأن كليهما بملابس متشابهة وعلى فرسين متشابهين

فلما فرء الافرنج كانت الشمس قد غابت واكفهر وجه السماء وعاد عبد الرحمن الى خيمته حيث كان يتوقع أن يلاقى الأمراء وهانىء فى جملتهم ليعهد اليه بأمر الغنائم على عادتهم .

وبعد قليل جاء أحد الفارسين صاحبي الأدهمين ، فاذا هو هانيء نفسه ، فرحب به .. فابتدره هانيء قائلا : « لقد غدر بنا هؤلاء الافرنج وتوسموا ان في الغدر خيرا وقد دمرهم الله ولو علمت بعزمهم على الهجوم ما فارقت المعسكر لحظة »

فقال عبد الرحمن وهو يتحول عن جواده ويتشاغل باصلاح ركابه : « لقد شغلت خاطرنا في غيابك ، فنحمد الله على رجوعك » ثم التفت اليه بلهفة وقال : « ومن هو هذا الفارس الذي تقدمك وتسمي باسمك ؟ .. »

فقال هانيء : « لم يكن معي أحد .. »

قال عبد الرحمن : « أما رأيت فارسا على جواد أدهم مثل جوادك ويلبس عباءة مثل عباءتك ؟ .. لقد رأيته بعيني وسط المعركة قبل وصولك ، وسمعته يتسمى باسمك »

قال ذلك ونظر الى أحد الرجال حوله ، وقال : « أين ذلك الفارس الذي كان على الجواد الأدهم ؟ .. »

فأجاب أحدهم : « رأيناه هاجما وقد أوغل في الصفوف ، ثم توارى .. وربما جاء بعد قليل »

فصاح عبد الرحمن : « اذهبوا في أثره واستقدموه » وتحول عبد الرحمن وهانيء الى الخيمة ، وجاء في أثرهما بعض الأمراء ثم جلسوا يتحدثون في أمر ذلك اليوم العجيب ، وما كان يهددهم من الخطر .. وكلهم يذكرون هائلا الآخر ويتعجبون ، على انهم اشتغلوا عن ذلك بعد قليل بتدبير أمر الغنائم والأسرى . ولم

يكن في معسكر الافرنج نساء لأنهم لا يحملون معهم نساءهم ولا أولادهم . أما الرجال ، فانهم ركنوا الى الفرار .. وفي مقدمتهم الكونت أود صاحب اكينانيا ورجال حاشيته

فتباحث الأمراء في أمر الغنائم من الأسلحة والخيام والفرش وغير ذلك ، وعهدوا الى كتاب الجيش بالعمل على تقسيمها وحفظ حق بيت المال على عاداتهم . ولم تكن الغنائم في هذه الواقعة كثيرة فاقتمسوها على عجل ، وقضوا تلك الجلسة وكل منهم يفكر في أمر ذلك الفارس ، ثم تفرقوا الى خيامهم الا هانئا فانه بقى عند عبد الرحمن يقص عليه حديثه باختصار ، ولم يكتمه شيئا بعد ما آنسه من مجاراته في حبه لمريم . فلما بلغ الى حديث بسطام وما كان من حاله في مستودع الغنائم ، هز عبد الرحمن رأسه وقال : « انا لله وانا اليه راجعون .. ان أمر هؤلاء البرابرة يقلقنى ، فانى أخشى عواقب استبدادهم اذا نحن بالغنا في استرضائهم ، وأخشى — من جهة أخرى — اذا جافيناهم ان يفسدوا علينا سعينا »

وكان هانىء حينما ذكر الجواد الأدهم الذى أخذت مريم به ، تذكر ما قالته القهرمانة عن العباءة الحمراء والخوذة اللتين تشبهان عباةته وخوذته ، فتبادر الى ذهنه أن ثمة علاقة بين ذلك الجواد وهذا الفارس

وبينما هما فى ذلك اذ عاد الذين ذهبوا للبحث عن هانىء الآخر ، وقالوا : « لقد بحثنا عنه فى المعسكرين فلم نقف له على

أثر « فعاد هانىء الى هواجسه وهو فى قلق على مريم ، ولم يفهم تلك الأسرار .. وخشى أن يكون قد أصابها سوء أو لعلها فى ضيق أو تكون قد فرّت من معسكر العرب بتلك الحيلة . أما عبد الرحمن فانه حينما سمع ما قصه عليه هانىء من أمر مريم وخروجها ، وتذكر والدتها والمهمة التى ذهبت لأجلها ، أوحى اليه سوء ظنه - والعامل سىء الظن - باتهام سائلة فى الأمر ، وانها انما تظاهرت بما تظاهرت به احتيالا للفرار من الأسر . ثم راجع ما حفظه من حديثها ، وما كان يبدو فى وجهها من امارات الجذ ، فغلب عليه الاعتقاد فى صدقها ..

- ٣٢ -

هانىء الآخر

ولبثا برهة صامتتين لا يتكلمان ، وكل منهما فى خواطره يتنازعهما التفكير فى مريم وفى ذلك الفارس . وبينما هما فى ذلك ، اذ سمعا وقع حوافر مسرعة نحو الخيمة فأصغيا ، فاذا بـغلام دخل مسرعا وهو يقول : « ان فارسين بالباب يلتمسان الدخول » فقال عبد الرحمن : « ليدخلا » . فخرج الغلام ثم عاد وفى أثره رجل عليه خوذة وعباءة حمراء ، فلما وقع نظرهما عليه علما انه الفارس الذى سمى نفسه هائئا . فلما رآه هانىء وقف وأقبل نحوه وتفرس فى وجهه ، فرآه قد تلثم تحت الخوذة

بلثام أسود ، ورأى من خلال العباءة ثوبا أسود فصاح فيه :
« يا أهلا بالفارس الذى يسمّى نفسه هائثا » . قال ذلك وتقدم
نحوه وهو يتوقع جوابه . فظل الفارس ساكنا ينظر من خلال
اللثام ، فابتدره الأمير عبد الرحمن قائلا : « انك لذو فضل على
هذا الجند .. بالله الا رفعت لثامك وعرفتنا بنفسك »

فرفع الفارس يده الى الخوذة فنزعها ، فبان من تحتها خمار
أسود ، وألقى العباءة عن كتفيه فبان من تحتها ثوب أسود ،
فعرف هانىء للحال انه ثوب مريم ، فلم يتمالك أن صاح :
« مريم .. مريم .. »

فمد الفارس يده الى الخمار فأزاحه ، فبان من تحته وجه
فتاة يتدفق حيوية وجمالا ، وقد زاده التلثم دفئا فتورد وأبرقت
العينان . ولا تسل عن هانىء حينما علم بما أظهرته مريم من البسالة
التى تندر بين النساء ، فقال وهو لا يستطيع امساك نفسه :
« مريم .. أهذه النعال فعالك يا حبيبة ؟ .. عهدناك ربة الجمال
واللطف ، ولم يخطر لنا انك ربة الجواد والسيف .. حبيبتى ،
ما الذى جرى ؟ .. أين كنت ؟ .. ما هذا ؟ ماذا أرى ؟ »

قالت : « انك ترى مريم واقفة بين يديك ويدي الأمير عبد
الرحمن ، ولم أفعل أمرا يستحق هذا الثناء .. واذا كنت قد
فعلت شيئا ، فما هو الا لأنى تسميت باسم الأمير هانىء ، فالأمير
هانىء هو الذى فعل ذلك » . قالت ذلك بلثغتها المعهودة ، وقد
تجلى على محياها شيء هو غير البسالة والاثفة .. تجلت على

وجهها ملامح الحب ، فذهب كل ما كان هناك من امارات الشجاعة والرجولة ، ثم تنبعت الى انها قالت ذلك بين يدي الأمير عبد الرحمن ، فغلب عليها الحياء فأطرقت فابتدرها عبد الرحمن قائلاً : « بورك فيك ، وبورك في الأمير هانيء .. انكما متكافئان ، ولولاكما لأصاب هذا الجيش ضيق تعصف بنا عاقبته . تفضل يابنية اجلسي وقصي علينا خبرك ، وما الذي دعاك الى اقتحام هذا الخطر العظيم .. فقد سمعت من أخى هانيء انك خرجت من الخباء في هذا الصباح بخديعة ، وذهب هو من الصباح للبحث عنك ولم يعد الا بعد مجيئك .. عاد وهو يأس من العثور عليك .. فما هو خبرك ؟ .. »

قالت : « أرجو قبل الشروع في الحديث أن تأمر باستقدام رفيقتي وصديقتي ميمونة التي تحمّلت العذاب من أجلتي ، فانها خارج هذا الفسباط » . وأشارت بأصبعها الى الخارج وكان الأميران قد علما بأنهما ضللا معا ، فلم يستغربا كلامها ، فصفق عبد الرحمن فدخل الغلام .. فأمره أن يدخل المرأة الواقعة في الخارج ، وبعد هنيهة دخلت ميمونة وهي تتظاهر بالحياء والدعة . فأشار اليها عبد الرحمن أن تجلس على طنفسة في أحد جوانب الفسباط وهو يتسم لها اعترافا بحسن صنيعها ، ثم حوّل وجهه الى مريم للاستماع الى حديثها.. وكان هانيء لا يزال واقفا ، فأشار اليه عبد الرحمن أن يجلس بجانبه فجلس ، وأصاخ الأميران بأذنيهما لسماع القصة

فبدأت مريم تقص حديثها منذ جاءها الرسول يلتمس ذهابها الى الأمير هانىء ، وكيف ان ميمونة عرضت نفسها لخدمتها ، وكيف آمنتها وأعانتها حتى وصلتنا معا الى القصر المهجور .. وما كان من مجيء بسطام وما أبداه من الوحشية ، وكيف عرضت ميمونة نفسها للخطر دفاعا عن مريم . فلما ذكرت مريم ذلك تحولت الأنظار الى ميمونة ، فتظاهرت بالحياء والاطراق . أما هانىء فانه أحس منذ سمع اسم بسطام بارتعاد من شدة الغيرة ، والتفت الى الأمير عبد الرحمن وهمس فى أذنه قائلا : « ياليتنى قتلته فى هذا الصباح .. »

أما مريم فانها استمرت فى حديثها ، فقالت : « فلما سمع بسطام دفاع هذه الصديقة عنى أمر رجاله فقبضوا عليها ، وأوثقوها وساقوها الى احدى الغرف وهى تصيح وتستغيث . فلما يئست من نجاتها توصلت الى ذلك الوحش الكاسر أن يرفق بى . انى لا أنسى تلك الاستغاثة .. وان كان بسطام لم يعبأ بها فانه لما خلا بى فى ذلك القصر المهجور حدثته نفسه بأمور كثيرة وطال الجدل بينى وبينه ، وفيما نحن فى ذلك جاء بعض فرسان هذا الجند للبحث عن الأمير هانىء هناك ، فعلمت منهم ان الافرنج هاجموكم وهانىء غائب ، وان العرب فى ضعف بسبب ذلك .. فأصبحت فى قلق لأسباب لا تجهلونها . أما بسطام فانه لم يبال بضياع جند العرب كله ، ولما سمع توييخى له على ذلك اتهرنى وعرض بذكر الأمير (وأشارت الى هانىء) واتهمه

بالجبن وأنه فرّ من المعركة خوفاً من الموت ، لأنى قلت له : « ألا تزال تزعم ان هائثا غلام لا شأن له وقد رأينا الجند لا يستطيعون شيئاً بدونه ولم نسمعهم يذكرون بسطاما ولا سواه ؟ .. » . فلما سمع هانىء ذلك الثناء حوّل نظره عن مريم حياء

أما مريم فأتت حديثها قائلة : « فوق كلامى على بسطام وقوع الصاعقة ، ولم يتمالك أن هجم علىّ ويده على قبضة سيفه يهيم أن يجرده وأن يضربنى به ، فصحت فيه : « اخسأ يا نذل الرجال ان مثلك لا يليق أن يسمى أميرا ، فبدلا من أن تجرد حسامك على فتاة ، اذهب لنجدة اخوانك ، وقد علمت ما هم فيه من الضنك ، وجرده على أعدائك .. ولو كان هانىء فى مكانك ما فعل غير ذلك .. »

فلم يزد هذا الكلام الا حنقا ، وكنت أظنه يخجل من نفسه ويرتد عن غيّه ، فقال ويده لا تزال على قبضة السيف : « لو كان هانىء رجلا ما تخلف عن ميدان الحرب فى مثل هذا اليوم ، ولكنه جبان » . ولم يتم كلامه حتى جرد سيفه ، وهمّ بإطلاقه على .. فلما رأيت ذلك منه وتبينت الغدر فى عينيه تناسيت ضعف النساء وشددت عزيمتى ، وعزمت على الفتك به التماسا للسرعة فى الخروج من بين يديه لأنظر فى أمر هذا الجند ، لأن نجاحه يهمنى كثيرا كما تعلمون . ثم أمسكت نفسى وعدت الى الملاطفة ، فقلت له : « لا تخيفنى بسيفك ، ولا يغرنك انى فتاة فانى لا أخشى السيوف .. ارجع عن عزمك واتركنى وشأنى ، وذلك خير لك »

وقبضت على زنده وهززه ، فأكبر أن يصغى لنصحى فتخلص من
يدي ، وكان قد أنزل السيف فعاد وشهره ، وأوهمنى انه مطلقه
على عنقى فتراجعت لأخلو من الضربة ، فظن اننى خفت فتبعنى
وسيفه يكاد يقع على رأسى ، فلم أعد أستطيع صبرا على ذلك
فصحت فيه : « نصحتك فاقبل نصيحتى يا بسطام .. » . قلت له
ذلك وهو يحاول أن يقبض على ثوبى ليتمكن من ضربى لأنه كان
يتوقع فرارى .. ولكننى بدلا من الفرار هجمت عليه وأمسكت
يمناه بيسراى ومددت يمنى الى منطقتة ، واستللت خنجره
وغمدته فى صدره ، وقلت له : « أبيت الا أن تموت قتيلًا وأن
تدنس يدى بدمك .. » فغاص الخنجر الى قبضته فخروا على
الأرض وسقط السيف من يده ، فالتقطت السيف ولم أنظر الى
وجهه لأنى قتلته مكرهة ، وأسرعت الى الجواد الأدهم فركبته
والتفت بالعباءة ، وجعلت الخوذة على رأسى ، وهمزت الجواد
نحو المعركة لأوهم الناس انى الأمير هانىء تشجيعا لفرسانه ، فاذا
ترتب على عملى هذا نجاح فانما الفضل لذلك الاسم المبارك «

— ٣٣ —

الخلاص

فلما ذكرت مريم انها قتلت بسطاما ، صاح الأمير عبد الرحمن :
« بسطاما ؟ »

قالت : « نعم .. قتله وقد قصصت عليك السبب الذى دعانى الى قتله ، فاما أن تعذرني فيه أو تقتلني بسببه فاني بين يديك .. »

فتصدى هانىء للجواب قائلاً : « ان قتله مقدّر منذ أيام ، ولو لم تقتليه أنت لقتله أنا ، واذا رأى الأمير عبد الرحمن أن ينتقم له ، فلينتقم منى .. »

فقال الأمير عبد الرحمن : « لا أريد الانتقام له ، ولكننى أخشى أن يترتب على مقتله اضطراب فى صفوف الجند لما تعلمون من .. » ثم اتبته لوجود ميمونة هناك ، فتوقف عن اتمام الحديث وحوّل الموضوع فقال : «سنعود الى البحث فى ذلك ، والآن أخبرينا عن سبب تأخرك عن القدوم الى الآن مع أن المعركة انقضت منذ بضع ساعات ؟ .. »

فلما سمعت مريم سؤال عبد الرحمن أشارت بيدها الى ميمونة ، وقالت : « قد كنت فى شغل من أمر هذه الصديقة لأننى تركتها أسيرة فى ذلك القصر المهجور حين أسرع الى ساحة الوغى . فلما فرغت من ذلك واطمأن بالى على الجند تذكرت ما هى فيه من الضيق بسببى ، فلم أتمالك عن الذهاب لا تقاذا .. فأسرعت الى القصر قبل المجيء الى هذا المعسكر ، فوجدتها لاتزال مغلوطة وقد غادرها الحارسان ، فحللت قيودها وجئت بها على جواد كان لايزال هناك . ولو لم أستطع اتقاذا لتتغص عيشى لأنها انما أسرت وأهينت بسببى .. فلما رجعت كان الليل

قد أظلم فاهتديت الى معسكركم بنيرانه ، وعرفت خيمة الأمير
من العلكم الذى بيابها فجئت كما ترون » ..

وكانت مريم تتكلم والهيبة تتدفق من محياها والصدق يتجلى
فى كل لفظ من ألفاظها ، فازداد عبد الرحمن إعجابا بها والأمير
هانئ هياما بحبها فصاح هانئ : « بورك فى بطن حملك ،
ووالله لأنت بشير خير ورسول سعادة لهذا الجند .. »

فوقفت ميمونة عند ذلك وهى تتظاهر بالامتنان والالطف
والحياء ، وقالت : « لا غرو أن أعجب بها الأمير وهو فى ابان
الشباب فقد عشقتها النساء قبله ، وأعترف انى لم تقع عينى فى
هذه البلاد ولا فى غيرها على فتاة جمعت ما جمعته هذه الحبيبة
من لطف النساء وبسالة الرجال واثقة الأمراء وحنو الأمهات ،
عدا ما فى خصالها من صدق اللهجة وعزة النفس ، فهى جديرة
برضاء الأميرين . وأما أنا فقد كنت أعدها صديقتى ، وأصبحت
أنظر اليها - بعد ما غمرتنى به من جميل - نظرى الى مَنْ هو
فوق مرتبتى .. »

وكانت مريم فى أثناء ذلك مطرقة تكاد تذوب خجلا ، وقد
كَلَل العرق جبينها حتى تقطّر فوق خدين توردا من شدة الحياء ،
ولم تستطع جوابا فلاذت بالسكوت والاطراق

وأدرك عبد الرحمن ذلك فيها فأشفق على عواطفها ، فعمد الى
تغيير الحديث فقال : « أرى مريم أهلا لأكثر من ذلك ، وأما
الآن فقد آن لها أن تستريح بعد هذا العناء .. » ثم صفق فدخل

الغلام ، فقال له : « اعدد لهاتين السيدتين خيمة تنامان فيها ، وأحضر لهما كل ما تحتاجان اليه من وسائل الراحة .. وخذ الفرسين الى الاسطبل .. »

فأشار اشارة الطاعة وخرج ، وخرجت مريم وميمونة في أثرها ، وهانئ يراقب مريم في أثناء خروجها وقد تضاعف هيامه بها ، وتذكر ما عاهدها عليه من أمر الزواج بعد أن يقطعوا نهر لوار . فلما تذكر ذلك هان عليه أن يقتحم جند الافرنج وحده اذا حالوا بينه وبين ذلك النهر .. فلما خرجت المراتان وبقي الأميران على انفراد ، لاحظ عبد الرحمن ما بدا في وجه هانئ من دلائل الهيام فسرّه تعلقه بمريم ، وتغلب هذا الخاطر على ما عساه أن يكون قد خطر في باله من الاستثثار بها دونه لما آنسه من الشبه الشديد بين الحبيين في البسالة والحماسة والانفة مع ما بينهما من المحبة المتبادلة .. على انه ما لبث أن غلب على فكره أمر ذو علاقة كبرى بسلامة ذلك الجند والاحتفاظ باتحاده على أثر ما سمعه تلك الليلة من مقتل الأمير بسطام . وأصبح لايشك في انه اذا بلغ خبر مقتله الى رجاله فانهم يثورون ويطالبون بدمه ، فاذا علموا ان مريم قد قتلتها فربما أساءوا اليها قيساء هانئ ، وتكون البلية الثانية شرا من الأولى .. فلبث الأمير عبد الرحمن هنيهة وهو مطرق ، وأصابه تداعب لحيته ، وقد استغرق في التفكير حتى غلب عليه الجمود ..

وكان هانئ مطرقا مثل اطراقه .. ولم ينتقل فكره من مريم الا

الى ما قد يحول بينه وبينها من جنود الافرنج وحصونهم

- ٣٤ -

حيلة جديدة

اتبعه عبد الرحمن بغتة ونظر الى هانىء ، فلما رآه مطرقا أدرك أنه يفكر فى أمر غير الذى يفكر فيه ، فعذره فى استغراقه فى التفكير فى مريم بعد ما شاهده منها ، ولكنه خاطبه بلطف وايناس قائلا : « بورك لك فى هذه الفتاة ، فانك والله جدير بها ، ولكننى لا أزال أتوقع منك رأيا لا يتم لنا أمر بدونه »
فلما سمع هانىء كلامه عاد الى رشده وفاته لأول وهلة ادراك مراد عبد الرحمن ، فقال : « وأى أمر تعنى أيها الأمير ؟ .. »
قال عبد الرحمن : « أعنى بسطاما وقتله .. لا أنكر انه نال ما يستحقه ، ولكنك لا تجهل حاجتنا الى بقائه اذا لم يكن للاستعانة بسيفه فلاحتمفاظ بولاء قبيلته . وانت تعلم شأن أولئك البرابرة معنا ، وخصوصا رجال بسطام فانهم انما أعانونا طمعا فى الغنائم ولم يذعنوا لأوامرنا الا وفى نفوسهم ضغائن علينا ، لاعتقدهم ان العرب ظالموهم ومستأثرون بالسلطة والأموال دونهم . فاذا علموا بمقتل أميرهم أخشى أن يبدو منهم ما يفسد أمرنا ويفرق كلمتنا ، ونحن فى أشد الحاجة الى الاتحاد ..
فما رأيك ؟ » ..

فبادر هانيء بالجواب كأنه شغل بتنميته واعداده منذ أيام ، وقال : « ليس أهون على من ارضاء أولئك البرابرة ، فقد قلت انهم لم يعاونونا في هذه الحرب نصرة للاسلام ، وانما أرادوا كسب الأموال ، وأقول لك انهم لم يطيعوا بسطاما الا لمثل هذه الغاية لأنه واسطة بيننا وبينهم ، فاذا تحققوا من ذلك الكسب ظلوا على الطاعة .. وزد على ذلك اننا نستطيع أن نوهمهم بأن ذهابه سيدعو الى زيادة أنصبتهم من الغنائم لأنه كان كثير الطمع لنفسه ، ثم نمنح أولئك الأمراء هدايا خاصة ونطلب اليهم أن يختاروا رئيسا منهم بدل بسطام .. واذا عهدت الي بتدبير ذلك فعلته وأنا ضامن السلامة باذن الله ، فان من كانت مطامعه الأموال لا يصعب ارضاؤه »

فأعجب عبد الرحمن بسداد ذلك الرأي ، وعهد اليه بتدبير الأمر بحكمة ، وفوض اليه اجراء ما يراه ولم يكن ذلك صعبا عليه ..

وفي صباح اليوم التالي ، تفاوض الأمراء في أمر الأخبية فأجمعوا على حملها الى هناك ، فبعثوا جندا لنقل المضارب وخيام الغنائم التي كانت باقية في المعسكر القديم . وأتم هانيء مهمته على نحو ما قال ، ومكثوا هناك يتأهبون للمسير نحو نهر لوار بعد رجوع سائلة من مهمتها ليعلموا كيف يتصرفون .. لأن عبد الرحمن كان يتوقع فوائد كبرى من مساعي سائلة ، لعلمه ان اتحاد جنده لا يبقى طويلا لاختلاف عناصره وتضارب مقاصد

أمرائه ، فاذا لم يتخذ وسائل أخرى خشى العاقبة فضلا عما يترتب على مشروع سالمة من حقن الدماء وسهولة الفتح
 أما ميمونة ، فقد علمت ما كان من حيلتها ، وما دبرته لفشل جند المسلمين ، وكيف انها لم تنجح لأسباب تقدم ذكرها ..
 ولكنها كانت بدهائها ومكرها قد حفظت لنفسها خط الرجوع ، فأظهرت أنها أسيرة بسبب مريم وقد سرها مقتل بسطام لأنه مطلع على بعض أسرارها ، وفي مقتله أمان من افشائها .. فلما خرجت مريم على الجواد الأدهم في ذلك اليوم أرسلت ميمونة أحد الرجلين في أثرها ، فلما عاد من المعركة وأنبأها بهزيمة جند الافرنج أمرت الرجلين بالفرار ، وظلت هي في أغلالها هناك على أمل أن تبعث مريم من يخلصها ، ولم يخطر لها أن تأتي هي بنفسها . فلما جاءتها مريم وجدتها وحيدة ، فحلت قيودها وسارت بها الى معسكر العرب ..

وقد رأيت مبالغة ميمونة في امتداح شهامة مريم ، لأنها رأت الأميرين معجبين بها .. فأرادت مجاراتهما تمويها لما قد يظنان ، وفي الواقع لم يخطر لهما شيء من سوء الظن بها من هذا القبيل . أما هي فقد كظمت ما في نفسها وعزمت على اتخاذ وسيلة ناجحة كانت قد ادخرتها في ذهنها حين الاضطرار . فلما ذهبت مع مريم الى الخيمة تلك الليلة ظلت على اظهار اعجابها بها والاشادة بما شاهدته من سجاياها ، حتى اذا خلت بنفسها لبثت تنتظر عدلان الأحوال لتفاوضه في الحيلة التي دبرتها وهي لا تشك في نجاحها

- ٣٥ -

سالمة في بوردو

فلندعهم يدبرون وينتظرون ، ولنعد الى سالمة ومهمتها فقد طال بنا السكوت عنها .. تركناها وقد ركبت من خباء المسلمين تلتمس بوردو وحسان العجوز في ركابها ، فلما بعدا عن الخباء وأطلا على بوردو التفتت سالمة الى حسان وقالت : « هل كان يخطر لك يا حسان أن نوفق الى مثل الأمير عبد الرحمن بعد طول انتظار ، عملا بالوصية ؟ » ..

فقال : « أما وقد ذكرتني بالوصية يامولاتي ، فهل لى أن أسأل اذا كنت ما تزالين محتفظة بتلك المحفظة .. فقد رأيته بين يديك ، وكان عهدي انك تحفظينها في مكان لا يراها فيه أحد » قالت : « صدقت يا عماء انها كانت في يدي في أثناء خروجنا من الأسر لأنى كنت قد أخرجتها من مخبئها ساعة يئست من الحياة ، وحسبت ان هؤلاء العرب سيقتلوننى .. فهمت قبل أن تفيض روحى أن أضرم هذه الوصية الى وأتسم ريح صاحبها منها ، ثم أعهد اليك أو الى سواك أن يوصلها الى صاحب هذا الجند .. أما الآن فلا تقلق لأنى تأبطتها تحت أثوابى . وما ظنك فى مريم وهى وحدها فى خباء العرب ؟ » قال : « لا بأس عليها يامولاتي .. والعرب شديدا العناية

بنزلاتهم وخصوصا من كان منهم فى ضيافة الأمير الكبير . وقد لحظت من أهل ذلك الخباء ترحيا كبيرا بمريم ، فالنساء أحبينها واحتفلن بها وخصوصا ميمونة ، وقد سمعت من الخصيان الصقالبة الذين يخدمونها انها أحبت مريم وبذلت كل ما فى وسعها لراحتها » وكان حسان يتكلم وهو يعدو عدوا خفيفا بجانب ركاب سالمة ، وهى تسمع كلامه ممتزجا بشخير الفرس وطققة حوافره ، فلما قال ذلك جذبت لجام الفرس ليسير بها الهوينى ، والتفتت الى حسان وقالت : « لا أخفى عليك يا حسان انى أخاف على مريم من هذه المرأة أكثر من سائر أهل هذا الجند نساء ورجالا .. »

فبغت الرجل وكان يتكلم وهو يتفرس فى الأرض ليتقى الحجارة والأشواك ، فلما سمع قولها رفع بصره اليها ، وقال : « وما هو سبب خوفك يامولاتى ؟ »

قالت : « لأننى شاهدت هذه المرأة التى تسمى ميمونة فاذا هى داهية دهياء ، وأظننى عرفتها وأخشى أن تكون قد عرفتنى ، ولذلك فانى لم أطل الكلام معها .. ولا شك ان بقاءها فى هذا المعسكر خطر ، فاذا انتهيت من مهمتى هذه فى بوردو وما وراءها فسأعود الى الأمير وأطلععه على حقيقة هذه المرأة لئلا تخدعهم وتفسد شئونهم لأنها ذات شأن عند الافرنج ويهمها أن يكون النصر لهؤلاء ، وانى أعجب أن تكون فى خباء الأمير عبدالرحمن ، وعهدى بها فى غير هذه البلاد .. وسننظر فى شأنها عند رجوعنا »

فلما سمع حسان قولها مال بكليته الى استطلاع الحقيقة ،
ولكنه لم يجرؤ على السؤال عن اسمها فقال : « وهل أعرفها
أنا ؟ » ..

قالت : « لا شك في ذلك .. دعنا من هذا الآن »
فسكت حسان ، وكانا قد أشرفا على أسوار بوردو .. فرأيا
الناس خارج السور زرافات ووحداً وقد خرجوا لافتداء
أسرارهم ، وكلهم فرحون بما أوتوه من الرفق . وأكثر الناس غيظاً
من ذلك الرفق اليهود ، وخصوصاً الذين كانوا قد ابتاعوا
الأسرى وهموا بحملهم للاتجار بهم ، فلما جاءهم أمر الأمير
بالتخلي عنهم غضبوا واستغربوا ذلك وأرادوا الامتناع عن
التسليم ثم أذعنوا ، فلما رأت سائلة تزاحم الناس هناك تحولت
الى باب من أبواب المدينة بعيداً عن ذلك الزحام ، وسارت توا
الى أسقف بوردو فترجلت بباب القلاية ، وتركت حساناً عند
الفرس ، ودخلت تلمس الأسقف ، فرأت أهل ذلك المكان من
القسس والرهبان وغيرهم في حركة ، وقد تجلت في وجوههم
امارات السرور لما جاءهم به هائىء في مساء الأمس من آنية
الكنيسة مع الأمر بافتداء الأسرى . وكان أكثر القسس يعرفونها
فرحبوا بها وبشروها بما كان ، فهنأتهم وطلبت اليهم أن يستأذنوا
الأسقف في مقابلة خاصة ، فالتمسوا لها الاذن .. فلما دخلت
عليه تلقاها بترحاب واحترام ، مع انه لم يكن يعرف حقيقة
أمرها .. ولكنه كان يحترمها لحكمتها وسداد رأيها

فلما دخلت قبّلت يده فباركها ، وجلست الى جانبه فسألها عما تريد ، فقصت عليه مختصر ما جرى لها حتى انتهت الى أمر الأسرى .. فاكتدت له ان العرب أكثر الأمم رفقا برعاياهم وأسراهم ، وانهم انما امتد سلطانهم في الشرق والغرب لما آتسبه أهل البلاد على اختلاف مذاهبهم من حرية الدين والعمل على غير المألوف عند أمم الافرنج في ذلك العصر ، وان ما أصاب كنيسة بوردو من النهب انما وقع سهوا من بعض ذوى المطامع من أتباع جند المسلمين غير العرب

فلما سمع الأسقف كلامها تذكر انه كثيرا ما كان يسمع منها اطراء العرب من قبل ولم يكن يصدق ما يسمع ، وكان يظنها تقول ذلك عن هوس مثل هوسها بتعليم ابنتها اللغة العربية وهي مقيمة ببلاد الافرنج مع كونها غير عربية . فلما سمع قولها بعد ما شاهده من الرفق آمن بصدقها ، فجاراها في الاطراء ، فاعتنمت تلك الفرصة وانتقلت الى الحديث المقصود فقالت : « لا أنسى ياسيادة الأسقف ما كنت ألقاه من نفورك اذا امتدحت العرب بين يديك حتى شاهدت ذلك بنفسك عن بعد ، ولو أتيح لك معاملتهم ومعاشرتهم لزدت ارتياحا لهم ، ولذلك فاني أستغرب محاربة أهل هذه البلاد لهم والوقوف في سبيلهم »

فقال الأسقف : « صدقت يا ابنتي ، اننا كثيرا ما سمعنا بعدلهم .. غير اننا رأينا من بعضهم من القسوة ما يشيب لهوله الأطفال حتى كاد يثبت عندنا ما كنا نسمعه من انهم يعبدون

الأوثان ولا يعرفون عبادة الله .. » (١)

- ٣٦ -

رأى الافرنج في المسلمين

فابتسمت سائلة ابتسام الاستغراب ، وقالت : « يعبدون الأوثان ؟ .. ان ذلك من الأراجيف التي يشيعها أعداؤهم ، فانهم يعبدون الاله الواحد ، ويحترمون الديانة النصرانية احتراماً كبيراً ويكرمون السيد المسيح كثيراً . ولا يعقل أن تنسب اليهم الوثنية ونيهم انما قام لآبادة الأصنام التي كان العرب يعبدونها من قبله فكسرها ومحا الصورة التي كانت في معبد الوثنية في مكة ، وبغض الوثنية الى أتباعه حتى حرّم عليهم التصوير ونحت التماثيل .. فما يبلغكم من هذا القبيل انما هو حديث مقصود لغرض من الأغراض . ولا أنكر عليك ما قد يديه بعضهم من سوء التصرف أو الطمع أو نحو ذلك ، فهذا لا يصح القياس عليه كما لا يصح أن نقيس كل أعمال الأساقفة بعمل واحد منهم شذ عن المنهج القويم . وزد على ذلك ان العرب مهما يكن من أمرهم فهم أرفق بأهل هذه البلاد من هؤلاء الافرنج الذين جاءوا بقبائلهم واستبدوا بهم واستعبدوا الناس واستخدموهم في أشق الأعمال ولم يقلدوا واحداً من أهل البلاد وظيفة من وظائفها .

فهم القابضون على زمام الحكومة ، وهم المغتصبون لخيرات البلاد ، وما الغاليون الا مثل العبيد أو الاقنان الذين يشتغلون في الحقول . هل رأيت غالبا تقلد منصبا كبيرا ، أو هل رأى الغاليون راحة منذ وطىء هؤلاء الافرنج بلادهم ؟.. أما العرب فإذا فتحوا بلدا أطلقوا حرية الأديان والمذاهب والمعاملات ، حتى الحكومة والقضاء فانهم يتركونها لأهلها ويقتصرون هم على قيادة الجند وحماية الأهالى من الأعداء ، لا يلتمسون أجرا على ذلك الا مالا يسمونه الجزية وهى لاتساوى بعض ما يقتضيه أولئك الافرنج من الضرائب الفادحة ، ناهيك بالحرية التى يتمتع بها الأهليون تحت عنايتهم . وسيادتكم تعلمون حال أهل هذه البلاد مع الافرنج الفاتحين فانها أصعب مما كانت تحت سلطان الرومان قبلهم . أليس معظم الناس هنا عبيدا ، فحكامهم يتصرفون فيهم تصرف المالك فيما يملك ؟ نعم ان العرب عندهم العبيد والموالى ولكنهم أشد رفقاً بهم من أولئك ، فان الرق عند المسلمين غير مستحسن ، وكان الاسلام يدعو الى ابطاله (١) ولو لم ير نصارى الشرق والغرب ما رأوه من الرفق والعدل تحت ظل المسلمين ما فضلوهم على الروم والفرس .. لقد أطلت عليك الشرح ؛ ان غرضى أن تسعى فى حقن الدماء ، فهل تساعدنى على ذلك ؟ ان المسلمين فاتحون هذه البلاد لا محالة ، فبدلاً من أن يفتحوها عنوة ويسفكوا فيها الدماء ويهدموا المنازل والقصور ،

(١) تبرئة الاسلام

فليكن فتحها صلحا ويحفظ لكل واحد ماله وعرضه .. والسعى في هذا السبيل من واجبات سيادتكم أكثر مما هو من واجبات أمثالي .. » وكانت سألمة تتكلم وامارات الجد والاهتمام ظاهرة في كل كلمة وكل حركة

وكان الأسقف يسمع أقوالها ويعجب بسعة علمها عن العرب كأنها عاشرتهم وساكتتهم زمنا طويلا ، وكأنها اطلعت على علومهم وآدابهم ، ومع كل ما في أقوالها من المخالفة للاعتقاد الذي كان متسلطا على عقول أهل تلك البلاد يومئذ فانه أحس بالاعتناع بقولها ، ونبهه ضميره الى واجب يقضى عليه بالسعى في حقن الدماء على ما سمعه من سألمة فقال لها : « جزاك الله يا ابنتي على سعيك في مصلحة شعب الله ، ونطلب اليه تعالى وتتضرع الى السيد المسيح أن يقدم ما فيه الخير »

فلما آنست منه اقتناعا ، عمدت الى تحقيق هدفها بلباقة وحسن سياسة فقالت : « لا أريد من سيادة الاسقف أن يكلف اخواننا المسيحيين تسليم البلاد الى هؤلاء المسلمين عفوا ، ولا أن يساعدوهم على أخذها بالسيف .. وانما أرى أن يتركوا الأمر لمن غلب بغير أن يساعدوا أحد الفريقين على الآخر . فاذا غلب الافرنج فهم أصحاب السيادة والبلاد في أيديهم ، واذا انتصر العرب فلا يضرنا انتصارهم بل هم خير لنا من أولئك »

فارتاح الأسقف الى قولها وكان روماني الأصل ، وقد رأى من الافرنج استبدادا في دائرة نفوذه حتى كادت السلطة أن

تخرج من يده ، فقال لها : « أود أن يعلم اخواني الأساقفة بهذه النصيحة في البلاد الأخرى ، ولكنني أخشى أن يطلع الحكام الأفرنج على ذلك فيعود وبالا علينا »

قالت : « علّني ابلاغ ذلك الى من شئت ، وانما أطلب منك كتابا ترسله معي الى أسقف بواتيه لا تذكر فيه شيئا غير التعريف البسيط واني من أبنائك المخلصين ، فاذا أنا لقيته أطلعتة على ما أراه من هذا الموضوع . وأتوسل الى مولاي أن يثبت هذه الروح في رجال بطائته على ما يراه ، ولا أظن واحدا من أهل بوردو لا يشهد هذه الشهادة عن العرب وقد أعادوا اليهم أسراهم وآنية كنيستهم »

فقال الأسقف : « صدقت يا ابنتي ، ولا يجوز لنا انكار هذا الجميل .. »

قالت : « لذلك أرجو اذا لقيت حاكم البلد أن تبث هذه الروح فيه ، اذ ربما طلب اليه الكونت أود نجدة لمساعدته في قطع الطريق على العرب لأنني علمت أن الكونت المذكور معسكر في مضيق دردون . وعلى كل حال فقد تركت تدبير هذا الأمر اليك واني مسافرة الى بواتيه في هذه الساعة ، فهل تأذن لي في كتاب الى أسقفها ؟ »

قال : « نعم » .. ثم نهض وكتب على منديل من حرير سطرين للغرض المقصود ، فتناولت الكتاب وقبّلت يده فباركها . وقبل خروجها تذكرت المسافة بين بوردو وبواتيه ، وهي نحو مائة ميل

لا يمكن قطعها في أقل من ثلاثة أيام أو أربعة ، وحسان لا يقدر على السير في ركبها ماشيا كل هذه المسافة ، فطلبت الى الأسقف أن يأمر لها بفرس يركبه حسان فأمر لها بواحد ، فخرجت شاكرة وأهل القرية يتباحثون فيما عسى أن يكون من أمر هذه السيدة ومجيئها على تلك الصورة . أما هي فأنها خرجت فرأت حسانا والفرسين في انتظارها فركبت وركب حسان وخرجا من بوردو يلتزمان بواتيه

- ٣٧ -

الدير

وكان حسان يعرف أكثر من طريق يؤدي الى بواتيه ، فسار في أسهل الطرق بحيث لا يكون عليهما بأس .. وقد دبّر أن يصل كل مساء الى دير ينزلان فيه ويبيتان ثم ينهضان في الصباح التالي .. فمشيا بقية ذلك اليوم ، وقلما تكلمت سائلة لانشغال خاطرهما بالمهمة التي تسعى اليها .. فلما أمسى المساء أشرفا على دير لا يعد من الأديرة الكبرى . فتحولا اليه وهو قائم على سفح جبل فوق نهر تجري مياهه في معظم السنة ، وحول الدير مغارس الكرم والزيتون وأشجار الليمون والتفاح وغيرها . وهو كسائر الأديرة في تلك الأيام ، يتألف من بناء محاط بسور عال له باب صغير للدواب ونحوها . فلما أشرفا على

الباب تقدم حسان وقرعه بجرس معلق فوقه . فأطل عليه راهب من كوة فوق الباب سألته عن غرضه فقال له : « نحن غرباء نبغى المبيت عندكم ، فهل من مكان ؟ » . قال حسان ذلك بلغة أهل البلاد ، ولكن ظهر من لهجته انه غريب عنها ففتحوا لهما ، فدخلت سالمة وتركت حسانا لينظر في أمر الفرسين ثم يدخل في جملة خدم الدير . فلما رآها الراهب البواب توسم في منظرها وفي زياها حياة الجلال والوقار فأسرع الى الرئيس فأخبره بذلك فأمر أن يدخلها اليه . فعاد وهو يقول : « تفضل الى حضرة الرئيس وهو يأمر بغرفة تقيمين فيها ما شئت »

فمشت سالمة في صحن الدير فرأته مزدحما بالناس من الرجال والنساء والأطفال ، وأكثرهم من أهل بوردو وضواحيها ، فأدركت انهم لجأوا الى الدير خوفا من العرب ، فظلت في طريقها حتى أقبلت على غرفة الرئيس . فلما دخلت وقف لاستقبالها ورحب بها وأمر لها بالطعام ، وسألها عن مسيرها في ذلك الطريق ، فقالت : « انها قادمة من بوردو ، وسائرة الى بواتيه » فلما علم انها قادمة من بوردو قال : « لعلك في جملة الذين فروا في أثناء الحرب على أثر نهب الكنيسة والفتك بالأسرى ؟ » قالت : « لقد أخطأ الذين فروا لأن نهب الكنيسة انما كان تعديا من بعض الغوغاء المرافقين لجند العرب . ولما علم الأمير بذلك أمر بإعادة الآنية الى مكانها ورد الأسرى الى أهلهم بالنقدية القليلة ، وأحاطوا أهل بوردو بكل وسائل الرفق .. »

فلما سمع الرئيس قولها ، بدا الاستغراب على وجهه وقال :
« وهل يعرفون الرفق ؟ وما الذى يدعوهم اليه ، أو يردعهم
عن الفتك والقتل ولا دين لهم ولا ذمام ؟ »

فقلت وهى تبسم : « هل رأيت أحدا منهم يامولاي ؟ »
قال : « كلا .. ولكننى سمعت ذلك من كثيرين »

وأرادت سالمة أن تدفع تلك التهمة بالبرهان فسمعت ضوضاء
وصياحا فى بهو الدير ، فوقف الرئيس بغتة وشفق فجاءه أحد
الرهبان يعدو ، فصاح فيه الرئيس : « ما هذه الضوضاء ؟ .. »
قال الراهب وهو يضحك والبغته ظاهرة فى وجهه : « هذا
داتوس ياسيدى »

قال الرئيس : « داتوس ؟ .. وما الذى فعله ؟ .. لقد عهدناه
معتزلا لا يخاطب أحدا ولا يقوم الى الطعام الا كرها ! .. »
قال : « ذلك هو عهدنا به أيضا ، ولكننا نراه قد أصيب
بجنون مؤقت فهجم على خادم الأميرة (وأشار الى سالمة)
وأوسعه ضربا وصفعا ، وهو يصيح : يا أماء ! .. يا أماء ! ..
حتى كاد أن يقتله لو لم تدارك الأمر ونمسه منه »

فلما سمعت سالمة ذكر خادمها قالت : « وأين هو حسان ؟ ..
وما الذى جرى له ؟ .. هل عليه من بأس ؟ »

فقال الراهب : « هو فى خير وسلامة ، ولكننا لم نستطع منع
داتوس من الهجوم عليه ، فبعد أن أرجعناه عنه هجم عليه ثانية
بهرأوة كانت بيده ، ولما أمسكناه عنه بالعنف رمى بالهرأوة على

حسان وسقط هو على الأرض وقد أغمى عليه من شدة الغيظ .
وقد تركته وهو يختلج ويرنعد ، ولا يزال يذكر أمه .. »
فنهض الرئيس وهو يهز رأسه كأنه يستعيد من شر يخافه .
وتبعته سالمة وقد استغربت ما سمعته عن ذلك الشاب ، وتبادر
الى ذهنها انه مصاب بخبل في عقله . وبعد هنيهة أشرف الرئيس
وسالمة على مكان الحادثة ، وكانوا قد أدخلوا حسانا الى
حجرته ليغسلوا جراحه ، فوقع نظرها على شاب في عنفوان
الشياب مطروح على الأرض ، وقد تطايرت قبعته واشتبك
شعره ، وكان جميل الصورة واسع العينين شديد بياض الوجه
أشقر الشعر . وكان قد فتح عينيه وتحفز للوقوف كأنه أفاق
من سكرة ، وجعل يلتفت يمينا وشمالا كأنه يبحث عن شيء
ضائع . فأشار الرئيس الى الرهبان أن ينقلوا حسانا الى مكان
لا يراه فيه داتوس : وأمسك بيد الشاب وخاطبه بلطف وباركه
ودعا له وأشار اليه أن يمضى الى غرفته ، فمضى وهو لا يزال
يلتفت ولكنه أمسك عن الكلام ..

- ٣٨ -

داتوس

فلما رأت سالمة ذلك الشاب ترجح عندها انه أصيب بجنون
أو سكنه شيطان لكنها أحبت أن تتحقق من ظنّها ، فلما عاد

الرئيس عادت هي معه وقد توسمت في وجهه تغيرا زادها رغبة في السؤال عنه ، وأنساها البحث عن حسان ، على انها لم تكذبدها بالسؤال حتى سمعته يخاطبها بصوت منخفض قائلاً : « ألا تزالين تجادلينني في شأن أولئك العرب وتزعمين انهم أهل ديانة ورفق ..؟ »

فاستغربت سالمة قوله هذا أكثر من استغرابها عمل داتوس وقالت : « لم أفهم يا أبتى صلة هذا الحادث بالمسلمين أو العرب ، بل أرى ان هذا الافرنجى قد تعدى على خادمى لأنه عربى حتى كاد يقتله .. »

وكانا قد دخلا الغرفة فأغلق الرئيس بابها وأوماً الى سالمة فجلست على وسادة فوق طنفسة ، وجلس هو على وسادة أخرى بالقرب منها وقال : « لو عرفت قصة هذا الشاب وسبب ما ظهر من هياجه وتعديه لثبت لك صدق قولى في العرب ، وأقلعت عن اعتقادك فيهم الخير .. »

فأصاحت بسمعها ولسان حالها يقول : « ما هي قصة هذا الشاب ياترى ؟ »

فقال الرئيس : « اعلمى يا ابنتى ان هذا الشاب من جملة الافرنج الذين تجنّدوا لمحاربة أولئك العرب حين بلغهم اقدمهم على فتح هذه البلاد . وكانت له والدة لا يعرف من الأهل سواها ولا هي ترجو سواه ، فتركها في بيتها وسار الى الحرب .. فاتفق في أثناء غيابه أن جاء المسلمون الى ذلك البلد ، ونهبوا بيت

المرأة وساقوها في جملة السبايا الى قلعتهم في تلك المنطقة .. فلما عاد الشاب الى بلده وأخبروه بما حدث لأمه ، ساق جواده الى تلك القلعة ومعه جماعة من الرفاق ، فأطل على القلعة وكانت موصدة ، فأشرف عليه أحد المسلمين من فوق السور وسأله عن غرضه ، فقال له : « أطلب والدتي فانها أسيرة عندكم » .. فأجابوه : « لانرد لك أمك الا اذا أعطيتنا الجواد الذي تركبه ، والا فاننا نذبحها أمام عينيك » . فغضب داتوس لذلك غضبا شديدا وقال لهم : « لا أعطيك جوادى ، وافعلوا بوالدتي ما تشاءون » . قال ذلك وهو يظن انهم يخوفونه بتهديده بقتلها ، وانهم لا ينوون اعدامها فعلا . ولكنه ما لبث أن رآهم اجتزوا رأسها ورموه اليه وهم يقولون : « هذه والدتك فاليك هي » . فلما رأى رأس والدته صعد الدم الى رأسه وغاب عن رشده . ولما عجز عن الوصول الى القاتلين لتحصنهم وراء الأسوار جعل يلطم وجهه ويصفق ويبكى ويركض فرسه يمينا وشمالا كالمجنون ، ثم انقطع عن أصحابه وأقام عندنا (١) وقد قص على خبره فاعتقدت من ذلك الحين ان العرب أهل ظلم وعسف لا دين عندهم ولا رحمة . وقد مضى على داتوس هنا بضعة أعوام لا يتكلم ولا يجالس أحدا كأنه أصيب ببله .. ويبدو انه رأى خادمك واستشف من مظهره أو كلامه انه عربى ، فهاج به الغضب وتذكر مصيبتة ، فاندفع الى ما كان منه .. »

وكانت سالمة تسمع ذلك الحديث وهي في دهشة شديدة ، فلما أتم الرئيس رواية القصة أحست بضعف حجتها في الدفاع عن العرب ولكنها تجللت وقالت : « لا أنكر على مولاي الرئيس حدوث مثل ذلك من بعض العرب ، كما قد يحدث من الافرنج وغيرهم .. ولكن المعول في الأمر على أغراض الجند بجملته .. » فقطع كلامها قائلاً : « وما عسى أن تكون أغراضهم وقد شاهدنا من أعمالهم في أثناء فتوحهم ما لم يبق معه حاجة الى دليل .. ألم ينهبوا الأديرة ويأخذوا آتيتها ؟ ! ألم يأسروا الرهبان ويختاروا أجملهم خلقة ويبيعوهم بيع الأرقاء في أسبانيا ، وعهدنا بذلك لا يزال قريباً ؟ » (١)

فسرّت سالمة لاحتجاج الرئيس بهذه الحجة ، وقالت : « نعم .. ان بعض العرب نهبوا بعض الكنائس والأديرة ولكن أمراءهم لم يكونوا يقبلون ذلك ، وكثيرا ما كانوا يعيدون الآنية الى أصحابها ويطلقون سراح الأسرى وخصوصا الرهبان لأن نبيهم أوصاهم بهم خيرا . وآخر ما حدث من هذا القبيل ان بعض الملحقين بجند العرب من البرابرة ونحوهم نهبوا كنيسة بورديو فلما علم أميرهم بذلك رد ما أخذ واعتذر وأوعز الى جنده ان لا يعودوا الى مثل ذلك . فالعرب أهل رفق وعدل ، وفي اعتقادى انهم خير لأهل هذه البلاد من أولئك الافرنج . أقول ذلك بين يديك على سبيل الاعتراف السرى وأرجو أن

لا يطلع عليه أحد ، فاذا قضت الأحوال بانتصار العرب تحققت
من صدق قولى »

فبغت الرئيس لقولها وصاح : « ينتصر العرب !.. معاذ الله »
فضحكت سائلة لبغته وقالت : « والنصر من عند الله يؤتاه
من يشاء .. » وتحققت من ان الرئيس ممن لا يرجى اقنصاعهم
بفضل العرب فسكتت ، ولكنها خشيت أن يكون عليها بأس
مما جاهرت به من ميلها إلى العرب ، فألحَّت عليه أن يعتبر
كلامها فى هذا الشأن من قبيل سر الاعتراف ، فوعدها بذلك
وهو صادق فى وعده لأنهم شديداو المحافظة على ذلك السر

- ٣٩ -

الجرح

وأرادت سائلة - بعد خروجها من عند الرئيس - أن تفتقد
حسانا لكنها ظنته قد نام ، فمضت الى الغرفة التى أعدوها لها
فباتت تلك الليلة ، ونهضت فى الصباح وهى تعتزم المسير ..
فبعثت الى حسان ، فقيل لها انه لا يستطيع السفر لجرح أصابه
فى رأسه فذهبت إليه بنفسها تتفقد شأنه ، فرأته راقدا وقد شد
رأسه بمنديل والتعب ظاهر فى وجهه . فسألته عن حاله فقال :
« لقد أصاب ذلك الشاب منى مقتلا بهراوته ، ولولا لطف الله
لذهب بحياتى فورا.. ولست أدرى مع ذلك سببا لهذا التعدى.. »

ولم تكن سالمة تخفى عن حسان أمرا وهو خزانة أسرارها ،
 فقصت عليه حكاية الشاب واستطردت الى ما ترتب على ذلك
 من مناقشات بينها وبين الرئيس الى أن قالت : « ولا بد من
 الاسراع في المسير الى بواتيه ، ثم الى تورس ، قبل أن يفسد
 الأمر علينا ، والمسلمون في انتظارنا على أحر من الجمر »
 فقال : « لو استطعت الحركة ما أمسكت عن السفر ، ومع
 ذلك فاذا شئت المسير وحدك على أن ألحق بك حين أستطيع
 الركوب فعلت »

فأطرقت سالمة وأخذت تفاضل بين أن تمكث هناك بضعة أيام
 ريثما يشفى حسان فتفوتها الفرصة ، أو أن تذهب وحدها
 وتعرض نفسها لأخطار الطريق ... وبعد التفكير مدة ، رأت
 أن تتصرف تصرفا وسطا فقالت لحسان : « انى باقية في انتظارك
 هنا الى الغد فاذا شفيت واستطعت الركوب سرنا معا والا فانى
 أسير وحدى » فأثنى عليها وقال : « غدا ستظهر نتيجة الجرح..
 فاذا لم تصبنى الحمى كان الشفاء قريبا باذن الله »

فعملت سالمة على الاهتمام بجرح حسان كأنه كان فى بدنها
 لأنها كانت تحترمه وتكرمه لانقطاعه لخدمتها أعواما ، ولأنها
 فى حاجة اليه ، خصوصا فى هذا السفر .. فذهبت الى الرئيس
 وطلبت اليه الاهتمام بحسان ، فأذعن لها لأنه شعر بأنه مظلوم ،
 فاستدعى راهبا كان قد تفقّه فى الطب ، وكان أهل الدير يرجعون
 اليه فى مثل هذه الحوادث ، وأوصاه بمعالجته والعناية به .

فذهب اليه ومعه سائلة ، فلما نزع الرباط وشاهد الجرح زمّ شفّتيه وأبرزهما ورفع حاجبيه ، وكانت سائلة ترقب ما يبدو منه ، فلما لمست قلقه خفق قلبها خوفا على حسان ، ولكنها لم تظهر اضطرابها فسكتت لترى ما يقوله الطبيب فاذا به قد التفت الى راهب آخر كان في خدمته ، وأومأ اليه أن يأتي بالزجاجة فذهب ثم عاد ومعه زجاجة وكأس . وكان الطبيب في أثناء ذلك قد قصّ شعر رأس الجريح ، وأكثره متلبد متلاصق من الدم المتجمد عليه فاشتمت سائلة رائحة كريهة . ثم صب الطبيب من الزجاجة شيئا كالخمر لونا ورائحة ، واستعان بالراهب الآخر على غسل الجرح به ، فوقع نظر سائلة على الجرح فاذا هو طويل عميق فازداد خوفها عليه ولكنها تجلّدت لتسمع قول الطبيب على حدة ..

وبعد الغسيل شد الطبيب الجرح باللفافة وأشار الى حسان أن يستلقى ويستريح ليرى ما يكون من جرحه في الغد ، وتركوه نائما وخرجوا . فلما صاروا خارجا تقدمت سائلة الى الطبيب تستطلع رأيه ، فقال : « لقد أبطأنا عليه في العلاج ، وكان يجب علينا أن نعجل بتطهير الجرح حينما أصيب ، وعلى كل حال لا يمكننا معرفة النتيجة الآن »

فاستعازت سائلة بالله وصبرت نفسها الى الغد . فجاءته في الصباح فاذا هو لا يزال نائما فنادته فلم يجبها فجست يده فرأتها شديدة الحرارة فعلمت انه يعاني من شدة الحمى ، فاستدعت

الراهب الطبيب .. فلما جاء وفحصه ، قال : « ان الرجل في غمرة الحمى وفي خطر حتى يفيق »
 فقالت : « ومتى يفيق ؟ .. »

قال : « لا بد من الانتظار يوما أو يومين وعلى الله الشفاء »
 فارتبكت سالمة ، ووقعت في حيرة من أمرها ، وخافت على حسان لأنه يسوؤها أن يصاب بسوء لما له من الأيادي البيضاء في خدمتها ، فضلا عن حاجتها اليه .. فقضت ذلك اليوم أيضا كأنها على جمر الغضا وهي تصلى وتتضرع الى الله أن يشفيه ، وقضت ليلا وهي تفكر في هل تنتظر شفاؤه أو تسير وحدها ، فرأت انها لو بقيت عند حسان لم تنفعه لأن أهل الدير أكثر عناية به منها ، فعزمت على السفر في الغد على أي حال بعد أن توصى الرئيس والطبيب به ..

فلما أصبحت سارت توا الى حسان فرأت الراهبين في خدمته وهو لا يزال غائبا عن رشده فسألتها عن حاله فقال أحدهما : « أراه قد تندى بالعرق قليلا ، وهذه علامة حسنة تبشر بالخير »
 فذهبت الى الرئيس وأخبرته عن اضطرارها للسفر العاجل وأوصته بحسان فبعث الى الطبيب وبالح في توصيته .. فلما خرج الطبيب طلبت من الرئيس أن يرسل معها من يصحبها الى بواتيه ، وأخرجت من جيبتها دنانير دفعتها اليه باسم الدير ، فأجابها الرئيس الى رغبتها وأمر راهبا من رهبانه أن يرافقها الى حيث تشاء .. ولما تأهبت للمسير ذهبت الى حسان كي تراه قبل

سفرها ، فوجدته على حاله . وخرج الرئيس لوداعها بباب الدير ، فكررت على سمعه الوصية وقالت : « اذا من الله عليه بالشفاء فابقه عندك ريثما أعود ، فاني عائدة على عجل » فأجابها بالايجاب وقد نزلت من نفسه منزلا رفيعا لهيبتها وحكمتها وكرمها . وكان خدم الدير قد أعدوا فرسها وأعدوا لرفيقها الراهب بغلة من بغال الدير ، عليها خُرج فيه بعض الأطعمة الجافة زادا لهما في الطريق ، وركبا وسارا والراهب دليل الطريق . على ان البغلة لو تركت لنفسها لم تخطيء الطريق الى بواتيه ، ومنها الى تورس ، لكثرة مايركبونها الى تينك المدينتين لنقل لوازم الدير من الآنية والأطعمة وما اليها . وكانت سائلة قبل خروجها من الدير قد التفتت برداء أسود فأصبحت كأنها من راهبات تلك البلاد وزادها شبا بهن اصطحابها ذلك الراهب ، وكان على رأس الراهب قبعة كالخمار تكسو كل رأسه الا وجهه وقد تجمعت لحيته بين جناحي الخمار وبرزت الى الأمام مع شاربه فأصبح قمه غائرا ..

— ٤٠ —

شبح غريب

تواريا عن الدير وقد صارت الشمس في الضحى وتوجهها شمالا في طريق بعضه مطروق وبعضه غير مطروق ، وكانت

سألة تعجب لما تراه من المنازل المهجورة والكروم المتروكة ،
وهى تعلم ان أهل القرى اذا نشبت الحرب لجأوا الى المدن
يحتمون بأسوارها ، ولكنها رأت ما يدل على الهجرة القريبة
كأن أهل تلك الحقول تركوها بالأمس ، فقالت فى نفسها :
« لا بد أن حادثاً طرأ على هذه البلاد » . فالتفت الى الراهب
وهو على بغلته بجانبها وقالت : « مالى أرى الحقول مهجورة
على هذه الصورة ؟ .. »

قال : « لا أظنك تجهلين ما نحن فيه من الضيق بسبب هجوم
العرب على بلادنا ، وأهل القرى لا حصون تحميهم من السلب
والنهب .. »

فقالت : « ولكن العرب لا يزالون بعيدين عن هذه القرى ،
وربما لا يستطيعون الوصول اليها فكيف هجرها أهلها عفوا ؟ »
قال : « ان خوف أهل القرى يا ابنتى ليس من جند العرب
فقط ، بل هم يخافون جند الافرنج أنفسهم لأنهم اذا مروا بقرية
نهبوها وأذلوا أهلها وخربوا منازلها وليس من يردعهم ، والظاهر
انهم علموا بقرب مجيء ذلك الجند ففروا من وجوههم ، لا أدري
الى أين .. ولعلمهم لجأوا الى البلاد البعيدة عن الطريق ريثما يمر
الجند فيعودون الى حقولهم »

وكانت سألة تسمع كلام الراهب وترى فيه ما يشرها بنجاح
مهمتها ، ولكنها كانت منشغلة الذهن بشبح وقع نظرها عليه
عن بعد وهو راكب على جواد وقد ساقه نحو الجهة التى

يسيران اليها ، ولما رآها الراهب تنظر الى ذلك الشبح وجهه هو التفاته اليه ، فلما رأت سالمة اتبها الراهب للأمر قالت له :
« ما ظنك بهذا الفارس ؟ »

قال : « يظهر من زيه انه من الافرنج .. ولا يمكننا أن نحكم على ذلك حكما قاطعا الا بعد رؤية وجهه .. وأراه يقترب منا ، فاذا دنا رأيناه وعرفناه أو سألناه عن حاله » ..

وظل للفارس يقترب منهما حتى وقعت العين على العين فاذا هو ملثم لا يظهر من وجهه الا العينان ، فحياء الراهب فلم يرد التحية ، ولكنه تفرس في سالمة وثوبها وفرسها وحوئل عنان جواده وارتد راجعا الى الورا . فلما رأت سالمة ذلك اضطربت وحسبت لذلك الرجوع ألف حساب ، وخشيت أن يفطن الراهب الى ذلك ، فيسى الظن بها فتجلدت وتظاهرت بعدم الاهتمام ، وقالت وهي تضحك : « يظهر ان الرجل خاف من أثواب الرهبنة ؟ » فقال الراهب وهو يظهر الاهتمام : « لا أدري يا ابنتي ما الذى أخافه ، ولكننى أعلم اننى تخوفت من رجوعه على هذه الصورة كأنه جاء للبحث عنا أو عن أحدا فلما رأى ضالته عاد لا بلاغ النبأ .. »

ولم تكن سالمة تظن غير ذلك ، ولكنها ظلت على تجاهلها وركزت تفكيرها فى محاولة الافلات مما قد ينصبونه لها من الشراك قبل الوقوع فيها .. فتظاهرت بتغيير الحديث ، فقالت :
« وهل نحن بعيدان عن بواتيه ؟ .. »

قال : « اذا أسرعنا وسرنا ليلا ونهارا فربما وصلناها في صباح الغد » ..

فاستحسننت ذكره المسير ليلا وقالت : « وهل ترى أن نسير ليلا ؟ ... يظهر أنك تستعجل الرجوع الى الدير لأشغال عندك هناك .. فاذا لم يكن علينا بأس من ذلك فلا مانع عندي »

فقال : « لست مستعجلا وإنما ذكرت لك ذلك على سبيل تقدير المسافة ، وأما المسير فلا خطر منه علينا وخصوصا لأنى أعرف أهل البلاد ويعرفوننى ، ويزيدى على ذلك ان الليلة مقمرة ، فاذا شئنا نزلنا عند العشاء فى دير أعرفه بجانب الطريق ، فنتناول الطعام ونستريح وننام قليلا ثم نهض فى نصف الليل ونركب نوا الى بوابته فتصلها فى الضحى . واذا كان ذلك متعبا لك ، فافعل ما تشائين لأنى انما أمرت أن أكون فى خدمتك الى حيث تسيرين » ..

فأعجبها رأى الراهب وسرّها السبيل الذى تقصّدت به الى ذلك ، وفى اعتقادها انها متى وصلت بوابته كان لها من أسقفها ما يقيها غائلة الجواسيس أو غيرهم ، وخصوصا لأنها تحمل له وصية من أسقف بوردو ، ومتى دخلت القلاية أو الدير الذى فيه الاسقف لا يجرؤ أحد على أن يؤذيها ..

فأظهرت انها تسير الراهب فى رأيه ، واستحسننت أن يبيتا تلك الليلة فى الدير الذى أشار اليه .. فسار وسالمة تتلفت وراءها خلسة ، وهى تتوقع أن ترى أناسا مسرعين فى طلبها . أما

الراهب فكان مستغرقا في صلاة يتلوها وهو على ظهر بغلته .
وقد قضيا بقية ذلك اليوم وهما يركضان الدابتين فغابت الشمس
ولم يدركا الدير المقصود ، وكان القمر في ربعه الثالث فجاءت
العشاء ولم يطلع بعد ، فمشيا في الظلام وسالمة تسوق جوادها
وراء بغلة الراهب وهي لا ترى الطريق وقد سكتا وسكنت
الطبيعة ، ولم يكن يسمع هناك الا وقع الحوافر تارة على الحصى
وطورا على العشب وقد تعب الفرس ولم يعد يستطيع العدو ،
وأما البغلة فظلت نشيطة والراهب يمسكها عن العدو لئلا
تسبق الفرس ..

- ٤١ -

المسافة طويلة

مضى جانب من الليل وهما في ذلك وأبصارهما شاخصة الى
ما يتراءى لهما من رءوس التلال ، واذا هما بنور قد ظهر على
مرتفع ، فلما رآته سالمة أرادت أن تسأل الراهب عنه فابتدرها
قائلا : « ها نحن على مقربة من الدير ياسيدتى »
ففرحت سالمة بذلك رغبة في الراحة ، وكادت تنسى ما كانت
فيه من الاضطراب التماسا للسرعة

وصار مسيرهما صعودا على الآكام والبغلة دليلهما في ذلك
الظلام ، كأنها تسير وبين يديها المشاعل والأنوار ، والفرس

يتبعها وسالمة ممسكة بزمام الفرس خوفا من أن تزلَّ قوائمه ، فزادها ذلك تعباً . وبعد مسير ساعة على هذه الصورة ، وصلا الى سفح ذلك الجبل ولا يزال النور الذي شاهدها على نحو المسافة التي كان عليها عندما رآياه لأول مرة . وكانت سالمة تسمع في أثناء ذلك الصعود صدى حوافر فرسها فتتوهم ان فرسانا سائرين في أثرها ، ولم يكن يسليها في تلك الحال الا ذكر السيد المسيح ورسم اشارة الصليب . وقد أصبحت لفرط قلقها لا تجرؤ على الالتفات الى الوراء

وأما الراهب فكان قد عاد الى الصلاة واستغرق في الدعاء وبعد قليل رأت سالمة النور يقترب منهما ، فتحققت أنهما صارا على مقربة من الدير ، فنشطت ونسيت التعب ونادت الراهب قائلة : « لعلنا في آخر رحلتنا يا حضرة الأب ؟ »

قال : « وصلنا الدير يا ابنتي فاطمى .. »

ثم وصلا الى سطح منبسط ينتهى ببناء عال عرفت سالمة من شكله انه دير فتحققت انها وصلا الى المكان المقصود . ثم رأت نفسها تقترب من ذلك البناء حتى صارت بجانب الباب وقد توارى النور الذي كانت تراه عن بعد ، واذا بالراهب قد ترجل ومشى نحو الدير وزمام البغلة في يده ، وهى لاتزال على فرسها حتى وقف الراهب بجانب باب الدير ، فأمسك بحبل مدلى بجانبه وشدّه ، فسمعت قرع الجرس ثم أطل بواب الدير من كوّته .. وقبل أن يسمعا نداءه صاح الراهب باللغة اللاتينية

قائلا : « افتح سريعا » فكان كلامه بتلك اللغة أحسن وسيلة للتعريف . ولم تمض برهة وجيزة حتى فتح الباب وخرج منه راهب طويل القامة دقيق العضل ، خاطب الراهب باللاتينية واستقبله فترجّلت سالمة ودخلت الى غرفة الضيوف ، وهو يرحب بهما ويسأل الراهب عن سبب تأخره حتى دخلا الغرفة ، ورجع البواب ثم عاد بشمعة مضيئة مغروسة في شمعدان من خشب عليه أثر الشمع القديم فوضعه في الغرفة وخرج .. ثم جاءهما بطعام ، فجلست سالمة وقد أخذ التعب منها مأخذا عظيما ونسيت ما هي فيه من الجوع ، فقدم لها الراهب الطعام في قصعة فتناولت منه شيئا ونفسها تطلب النوم أكثر من الطعام . فأكلت وشربت قليلا من الخمر مع الماء وتوسدت الفراش ، ولم توص الراهب بإيقاظها طمعا في الراحة اللازمة ، وتغافلت عن رغبتها في السرعة اعتمادا على ما يتراءى للراهب من انتهاز الوقت

وأما الراهب فلما رآها تنام صعد الى غرفة البواب فجلس عنده قليلا ، وتحدثا في شئون كثيرة معظمها خارج عن موضوع المهمة التي ترغب سالمة في البحث فيها . وفي آخر السهرة استفسر الراهب ، رفيق سالمة ، عن أقرب الطرق الى مدينة بواتيه .. فلما أجاب الراهب علم انه كان على هدى من رأيه في خط ذلك المسير . وذهب الى فراش أعدوه له في غرفة أخرى فنام ، ولم يكد يتوسد الفراش حتى أحس بالتعب وغلب عليه النعاس فاستغرق في النوم ولم ينهض الا عند الفجر ، فهرول الى سالمة

فأيقظها وذهب الى مربط البغال وأحضر الفرس والبغلة فركبا
وسارا يلتسان بواتيه

وأشرقت الشمس وهما لا يزالان بين الجبال لا يريان ما وراءها ،
وسالمة تحسب نفسها تائهة . ولولا ثقتها بمعرفة الراهب تلك
الجهات لتحققت انهما ضلا الطريق . ووصلا عند الضحى الى
راية أطلا منها على سهل بعيد ، رأيا في أحد جوانبه مدينة في
منتصفها قبة عالية في قمته صليب علمت سالمة انها قبة كنيسة
بواتيه ، فانشرح صدرها ونسيت تعبها وقلقها وانبسط وجهها
وقالت : « أليست هذه بواتيه ؟ »

فقال الراهب : « نعم يا ابنتى .. هذه بواتيه ، وبعد قليل
نصلها وندخلها باذن الله »

فقالت : « من أين ندخلها ..؟ انى أرى سورا »

قال : « ندخلها من بابها الجنوبي الذى ترينه وأمامه تلك
الشجرة الكبيرة »

- ٤٢ -

خطر آخر

فانشرح صدر سالمة لوصولها ونجاتها من الخطر لاعتقادها
انها اذا دخلت مدينة بواتيه فلا خوف عليها .. ولكنها لم تكد
تصل الى الباب حتى رأت جماعة على خيول بملايس جنود

الافرنج قد خرجوا من الباب ، وفي مقدمتهم فارس ملثم ، وعلى رءوسهم الخوذ وعليهم الدروع ، وقد تقلدوا السيوف المستقيمة بمناطق من جلد وتحت الدروع جيب قصيرة الى الركب ، وقد لفوا على سيوفهم لفافة من جلد وعلقوا بأكتافهم جعب النبال وتلثموا بخمر من الحلق . المشتبك ، ولم يظهر من وجوههم الا العيون والأنوف والأفواه وبعض اللحى . فلما رأت سالمة ذلك الفارس الملثم عرفت انه جاسوس الأمس فخفق قلبها لرؤيته ، ثم ما لبثت أن رآته قادما نحوها والفرسان يتبعونه على عجل فازداد اضطرابها واستعازت بالله ، وأدنت فرسها من الراهب كأنها تحتمى فيه أو تنوى سؤاله عن شيء وقد امتنع لونها وتحققت من الخطر المحدق بها .. واذا بالفارس الملثم قد أوماً الى رفاقه وأشار بأصبعه اليها كأنه يقول : « هذه هي .. فاقبضوا عليها »

فأحاطوا بها وبالراهب أيضا ، فسألهم الراهب عن غرضهم فقالوا : « قد أمرنا بالقبض عليكما والسير بكما الى حضرة الدوق أود » ..

فقال : « وما الذى دعا الى ذلك ، وما نحن من أهل السياسة ولا الحرب .. فانى راهب وهذه امرأة .. أظنكم مخطئين .. » قالوا : « لسنا مخطئين .. هيا معنا طائعين ، والا فانكما ذاهبان كرها » ..

فلما تحققت سالمة من وقوع الخطر ، ورأت ان نجاتهما

مستحيلة من بين يدي أولئك الفرسان تجللت وقالت : «أظنكم تلتمسون القبض علىّ وليس على هذا الراهب ، فاطلقوه وها أنا أسير معكم الى حيث تشاءون ، ولا حاجة الى التهديد والوعيد» فتعجب الراهب من جرأتها ورباطة جأشها وحدثته نفسه أن يرفض النجاة بنفسه ويطلب البقاء معها ، ولكنه رأى ان بقاءه لاينفعها ، وخشى لوم رئيسه فسكت ليرى ما يكون منهم .. فاذا بالفارس المثلث قد خاطب كبير الفرسان همسا ، فأشار هذا الى الراهب بالانصراف ، وأحاطوا بسالمة وساروا بها ولم يلتفتوا الى الخلف ..

أما هي فلما رأت نفسها في قبضة الأفرنج ولا حيلة لها في النجاة ، تذكرت انها تحمل رسالة من أسقف بوردو الى اسقف بواتيه ، فخشيت ان هم فتشوها أن يعثروا على الرسالة فيقع اسقف بواتيه تحت طائلة الغضب ، فاحتالت ورمت الرسالة في مكان بحيث لا يراها أحد . ثم تذكرت المحفظة وفيها كل سرها فخفق قلبها خوفا من وقوعها في أيدي أولئك الأفرنج ، فجرأها ذلك الى التفكير في ابتها وكيف تركتها في معسكر المسلمين ، وتمثلت في ذهنها ميمونة وما كانت تخشاه من دسائسها ، فترجح عندها ان ما أصابها انما كان بايعاز من ميمونة ، اذ ليس في اكتانيا كلها من يعرفها أو يسيء الظن بها سواها .. ولكنها عادت فتذكرت انها خرجت في تلك المهمة سرا ، ولم تكاشف أحدا بخروجها غير مريم . وقضت سالمة ساعة في تلك الهواجس وهي

سائرة على فرسها والفرسان محيطون بها وفي جملتهم ذلك
الجاسوس المثلث وكانت تسترق النظر اليه لعلها تستطيع معرفته
لأنها لو رأت وجهه لانكشف سر ذلك الأمر ، ولكنه كان شديد
الحرص على لثامه . على انها تفرست في ثيابه فرأت بالرغم من
انها تبدو في الظاهر افرنجية ، فانه يظهر من تحت ردائه القصير
ان باقى الثوب ليس افرنجيا . ورأت ان ما انكشف من ساقيه
أسمر اللون ، ولون الافرنج مشرب بحمرة ، فتحققت أنه
جاسوس من خدم ميمونة . فندمت لأنها لم تكشف أمرها للعرب
لينجوا من حبالها . وأصبحت من جهة أخرى ، تخشى أن توقع
المسلمين في شراكها أو تفسد أمرهم ، فيذهب سعيها في نجاحهم
أدراج الرياح . وودت لو انها تستطيع ابلاغ ذلك الى الأمير
عبد الرحمن ، فتأسفت لأنها تركت حسانا في الدير .. ولا تدري
مع ذلك هل شفى جرحه ، أم أصابه سوء بسببه . وتصورت كيف
يكون حال ابنتها ووحيدتها اذا فشل المسلمون ، فتراكت عليها
الهواجس وعظم الأمر عليها وغلبها اليأس ، فانخرطت في البكاء
خلسة . فلما بكت خف بعض ما بها ، ولكن الأمر ما برح عظيما
وما زالوا سائرين بضع ساعات وسالة تنهيب مقابلة الكونت
اود لثلا يعرفها فيكبر جرمها عنده ويكون ذلك خاتمة المصائب .
فلما كثرت مشاغلها وهواجسها أخذ الأمر يهون عليها . وهو لم
يهن حقيقة ، ولكن الانسان اذا وقع في مصيبة استعظمها وكاد
ينوء تحت ثقلها ، فاذا تراكت عليه المصائب ساعده اليأس على

احتمالها .. فكم من أرملة كان الناس يحسبون انها ستموت ساعة موت زوجها ، فلما مات لم تمت .. ولكنها أعظمت المصيبة فغزاها الناس ببقاء أنجالها ، ثم أصيبت في واحد منهم ، ثم بآخر ففرغت حيل الناس في تعزيتها .. ولكنهم رأوا أنفسهم — بعد حين — في غنى عن ذلك بما استولى على تلك الأرملة الشكلى من اليأس ، كأن القلب يندمل من توالى الأحران ، أو انه يعتاد المصائب فيستخف بها . وهكذا شأن من تحيط به المشاكل ، تراه عند وقوعه في المشكل الأول أكثر ارتباكاً وخوفاً مما يصير اليه حاله عند تعددها . فكانت كلما تعددت مشاكلها هونت على نفسها ..

— ٤٣ —

الدوق أود

وفي أصيل ذلك اليوم أشرفوا على كرم وراءه سهل واسع ، رأت في منتصفه قصراً كبيراً حوله الخيام وبينها الناس يعجون عجا ، وفوق القصر علمٌ عرفت حين رآته انه للدوق أود فتحقت أنها وصلت الى المكان المقصود ، وأن القصر المذكور لبعض أغنياء البلاد هجره أهله في جملة ما هجروه ، فنزل فيه أود وأقام رجاله في الخيام حوله وما زال الفرسان سائرين بها حتى وصلوا الى باب القصر

فترجلوا وترجلت ، فسلموها الى الحرس الواقف ببالباب ،
فدخلوا بها الى القصر وهي ملثمة بثوبها الأسود ومقنعة
بنخمارها الأسود . مشت بقدم ثابتة بين الحرس حتى تجاوزت
بلحة البيت الى قاعة وقف الحرس ببابها ، ودخل أحدهم ثم
عاد وأشار الى سامة أن تدخل

فدخلت الى قاعة يظهر من سعتها وما على جدرانها من الرسوم
الجميلة ان أصحاب ذلك البيت من أهل اليسار ، ولم ترق في أرض
القاعة طنافس ولا مقاعد غير ما كان يحمله الجند في سفريهم ،
وشاهدت على كرسى في وسط القاعة رجلا نحيف البدن منتقع
اللون أشقر الشعر أشيبه ، أزرق العينين جاحظهما ، غائر الفم
بارز اللحية ، منخسف الخدين بارز الوجنتين ، وعلى رأسه قبعة
عثائية اللون مزركشة بالذهب .. وفي مقدمتها فوق جبينه حلية
مرصعة بالماس والياقوت بشكل الصليب ، وعلى كتفيه بردة
مزركشة بالقصب سماوية اللون تغطي ثيابه ، وتحت البردة جبة
قصيرة من القطيفة حولها منطقة عريضة منسوجة بالذهب على
أشكال بعض الطيور ، وحول ساقيه لفافة من جلد ملون له
أهداب من الفرو ، ونعلاه مشدودتان الى قدميه بسيور من
نسيج الشعر المتين ، وقد جلس على كرسى ذي جناحين أسند
زنديه اليهما . وقد ظهر من تحت البردة سلسلة ذهبية مدلاة من
عنقه وفيها صليب من الذهب . فعلمت سامة انه الدوق أود لأنها
كانت تعرفه جيدا وتعرف بعض الذين بين يديه من أمراء مجلسه

وكان أود قبل دخول سالمة قد تناول من أحد جلسائه قدحا فيه خمر وهمّ بشربه ، فلما أمر بإدخالها وضع القدح على المائدة أمامه بين الأقداح الأخرى ومسح لحيته بيده ثم جعل يسرحها بأنامله . فدخلت سالمة وهو على تلك الحالة ، وحالما وقع نظره عليها ظهرت البغته في عينيه ، ولولا اصفرار وجهه الطبيعي لبدت أيضا في امتقاع لونه ، ولم تكن سالمة أقل تأثرا منه ولكنها كانت قد تجلّدت وذهبت بغتتها . فوقفت بين يديه وخرج الحرس ثم أومأ أود الى أهل مجلسه فخرجوا جميعا وبقي هو وسالمة فلما رأت سالمة نفسها وحدها زادت تهيبا ، فاذا هو قد أشار اليها أن تجلس فجلست على كرسى بين يديه جلوس متحفز للنهوض . فخاطبها أود بالفرنسية قائلا : « ألهذا الحد بلغ منك الغيظ ؟ »

فأجابت وهي تتجاهل : « وأى غيظ يامولاي ؟ »

قال : « أتظنين انى نسيتهك يا اجيلا ؟ »

فلما سمعت سالمة لفظ « اجيلا » ارتعدت فرائصها لأنها لم تسمع أحدا يناديها بهذا الاسم من زمن بعيد ، ولكنها تجلّدت وقالت : « أظن ان مولاي مخطيء في شأنى ، ولعله يقصد امرأة غيرى .. »

قال وهو يضحك : « أظننى واهما .. اذا كانت عيناي واهمتين ، فهل تظنين ان قلبى وأهم أيضا ؟ هل أنسى اجيلا وقد جرحت قلبى ، وأسأت الى سلطانى .. ولكنها أسأت الى

نفسها ، ألم يكن من التعقل والحكمة أن تقلعى عن ذلك الجنون ؟ أليس من العار عليك وأنت مسيحية مولودة فى بيت من أكبر بيوت المسيحيين أن تتعاونى مع قوم غرباء لا دين لهم ولا ذمام وتساعديهم على أهل دياتك ؟ »

قالت وهى لا تزال مطرقة : « لم أفهم يامولاى مغزى كلامك كأنك تخاطب امرأة غيرى ، فان الاسم الذى ناديتنى به ليس هو اسمى ، وانما اسمى سالمة »

فأغرق أود فى الضحك حتى سمع قهقهته كل من فى القصر ، ومد يده الى المائدة فتناول قدحه وشربه وهو ينظر الى سالمة وهى لا تزال مطرقة . ثم أعاد القدح فارغا ومسح فمه بيده وهو يقول : « ما لنا وللانكار والاثبات .. اخبرينى يا سالمة — كما تسمين نفسك — ما الذى جئت من أجله الى هذه المدينة ، وما الذى فعلته عند اسقف بوردو ؟ »

فأدركت سالمة انه مطلع على كل شىء من أمرها ، فقالت : « وما الغرابة فى زيارة امرأة مسيحية لأسقف كنيستها ؟ » قال : « لا غرابة فى الزيارة ، ولكننى أسألك عما دار بينكما وعما حملك على الذهاب اليه .. »

قالت : « لا يخلو أن يكون قد دار بينى وبينه حديث طويل فى شئون سرية لا تهم أحدا ، لأن جماعة الاكليروس خزنة أسرارنا .. »

قال : « لا أسألك عن اعترافك اليه فيما يتعلق بشئونك ،

ولكننى أسألك عما دار بينك وبينه بشأن الافرنج والعرب
والحرب والسلام «

- ٣٤ -

التهديد

فلما سمعت تصريحه لم يبق عندها شك فى اطلاعه على سرها
فأيقنت بالوقوع ويئست من النجاة ، فساعدها اليأس على
الجرأة فقالت : « يظهر انك عالم بما دار بينى وبينه فلا حاجة
الى سؤالى .. »

قال وهو يظهر الغضب : « أهكذا تجاوين الدوق أود ؟ ..
هل بمثل هذه الجرأة تخاطبين دوق اkitانيا ؟ »

فظلت سالمة ساكنة ، ولكنها ابتسمت ابتسامة فهم أود منها
ما هو أكثر صراحة من الجواب ، فابتسم وكأنه ندم على ذلك
التهديد فقال : « تلك أيام مضت وقد أردنا ارجاعك الى مثلها
فأبيت .. فأسأت الى نفسك والى ابنتك ولا ذنب لها وانما الذنب
ذنبك .. فقد أردت أن تهوى ابنتك الذين تهوينهم أنت ، وأن
تبيع دياتتها وكنيستها جزافا وأن يكون نصيبها مع أولئك
المسلمين ، وفى الحق انى لم أفهم سر ذلك العناد منك .. »

فأيقنت سالمة ان أود مطلع على كل شىء كأنه كان معها فى
خيمة عبد الرحمن حينما صرحت له بسرها .. واستغربت اطلاعه

على تلك الأسرار ، ولم تجد لها خيرا من السكوت أو الانكار
فقلت : « أراك لا تزال تخاطبني بالألغاز والاشارات والتلميح
والتعريض .. فالذى تريد أن تعتقده في اعتقده .. وما تريد أن
تفعله افعله » ..

قال : « الذى أريد أن أفعله يا اجيلا سترينه رأى العين .
ولو أظهرت هذه الوقاحة فى مجلسى وبين أرباب حكومتى لما
استطعت الاغضاء عن قتلك ، ولكننى أسامحك الآن اكراما
للحب القديم . أما الآن فقد تحول ذلك الحب الى الغضب
والانتقام ويكفينى انتقاما منك أن أريك حبوط مسعاك . فمتى
رأيت الأرض مضرجة بدماء أولئك العرب والبرابرة ، كنت
مخيرة بين أن تموتى حسرة أو أن تقتلك بالسلاح الذى تختارينه »



قال ذلك ولحيته تضرب ، وعيناه قد كللهما الاحمرار من
شدة الحنق والغيط ، لأن الانسان اذا غضب ولم يشف غضبه
بالضرب أو نحوه اشتد تأثيره ، وقد يحاول اخفاء عواطفه
بالكتمان ولكن العينين تبوحان بسر القلب على حد قول الشاعر:
عينك قد دلتا عيني منك على أشياء لولاها ما كنت رائيها
والعين تعلم من عيني محدثها ان كان من حزبها أو من أعاديها
فلما رأت سالمة غضب أود وتصريحه بما فى قلبه من الغيط
مع علمها انه فاعل معها ما يريد لأنها أسيرة بين يديه ، رأت
ان السكوت أجدر بها بعلمها ان ما توهمه أود فى نفسه من

القدرة على العرب محال لأنهم هزموه في عدة مواقع
فلما رآها أود لاتزال ساكتة ازداد هو حنقا فقال لها :
« أراك لا تزالين صامتة ..! »

فقلت ، وهى تظهر التجلد وعدم الاكتراث : « وماذا عسى
أن يكون جوابى لأمير حوله الجند والأعوان والعدة والسلاح ،
يهدد امرأة وحيدة لا نصير لها ولا سلاح فى يدها ، فالذى ترى
أن تفعله أيها الدوق افعله ..! »



وهمَّ أود أن يجيئها ، فسمع قرع الباب قرعا عنيفا ، فدهش
لذلك لعلمه ان أحدا من أعوانه لايجرؤ على اقلاق راحته فى
مثل تلك الحال ، فنهض بنفسه مسرعا الى الباب وطيلسانه يجر
وراءه وقد حمى غضبه ، ففتح الباب فاستقبله أحد رجال
خاصته ، فصاح قائلا : « ما الذى حملكم على هذا القرع
العنيف وأنتم تعلمون اننى فى جلسة خاصة ؟ »

فقال : « العفو يامولاي ، اتنا فعلنا ذلك بإشارة هذا
الرسول فانه قادم من سفر ومعه رسالة عاجلة فى غاية الأهمية ..
أوصاه مرسلها أن يسلمها الى حضرة الدوق حال وصوله الى
معسكره ، واذا كان نائما فليوقظه من نومه »

فبغت أود وقال : « أين هذا الرسول ؟.. دعه يدخل »

- ٤٥ -

الكتاب

فدخل رجل عليه لباس الافرنج ولكن وجهه يدل على انه من
برابرة افريقية ، فلما شاهدته سالمة عرفت انه من جند المسلمين
وقد جاء متنكرا .. أما هو فقد مد يده الى جيبه وأخرج لفافة
دفعها الى أود ، فتناولها وتراجع الى كرسيه فجلس عليه ، وفض
اللفافة فاذا فيها منديل عليه كتابة فأخذ في قراءتها حتى أتى على
آخرها ، ثم عاود قراءتها ثانية والبغته ظاهرة على وجهه
وكانت سالمة تتغافل عن ملاحظة حركات أود وتسترق النظر
الى الرسول ، فاذا هو يسترق النظر اليها وكأنه عرفها ، وأما هي
فعرفت انه من رجال البربر . ثم ما لبثت أن رأت في عينيه حولا
شديدا فتذكرت انها رآته في معسكر عبد الرحمن ، فأدركت
مصدر تلك الرسالة وودت لو يتاح لها الخلاص من ذلك الأسر
لعلها تستطيع القيام بخدمة العرب ..

أما الدوق أود فبعد أن فرغ من تلاوة الكتاب ثانية تظاهر
بالاطراق والتفكير .. وهو ينظر خلسة الى سالمة ، يرقب
حركاتها وما قد يبدو في وجهها ، فرآها تبالغ في التجاهل وأحب
أن يعود الى البحث في شأنها لكنه رأى في ذلك الكتاب ما يدعو
الى سرعة العمل فأومأ الى الرسول فخرج ، ثم صفق فدخل اليه

أحد غلمانہ وبيده حربة ووقف متأدبا . فأشار اليه أود أن يأخذ
سالمة الى غرفة منفردة من غرف القصر يحبسها فيها . ثم التفت
اليها قائلا : « اذا كنت لا تزالين مصرّة على الانكار والتجاهل ،
فاذهبي الى حيث يقودك هذا الحارس وسننظر في شأنك »

فنهضت سالمة ومشيت ، ولم تبدِ جوابا .. فسار بها الحارس
حتى خرج من باحة القصر الى دهليز تقذ منه الى باب أدخلها
فيه ، الى غرفة ليس فيها الا حصير وطنفسة ولها نافذة تطل على
معسكر الافرنج . فتركها الحارس هناك وأغلق عليها الباب
فظلت هي واقفة تنظر الى ما تطل عليه النافذة من الخيام
المنصوبة ، وبينها الرجال في ذهاب واياب لقضاء حوائجهم . حتى
اذا تعبت من الوقوف جلست على الطنفسة ، وقد عظم عليها ذلك
السجن مع ما يترتب عليه من عرقة مساعيها ، وودت لو انها تطلع
على نص تلك الرسالة لتعلم ما يروه لها ولجند العرب .. ولكنها
قالت في نفسها : « اذا لم يكن ثمة سبيل الى خروجي من هذا
المعسكر فما الفائدة من الاطلاع على الرسالة ! »

وظلت على تلك الحال الى الغروب وهي لم تذق طعاما ،
وكانت لفرط مشاغلها لا تشعر بمرور الوقت . فلما غابت الشمس
اسودت الدنيا في عينيها .. وتذكرت ابنتها ، وميمونة ، وعبد
الرحمن ، فتذكرت المحفظة فتفقدتها ، فاذا هي لا تزال محفوظة
تحت ثيابها .. لكنها أصبحت لا ترى فائدة منها وهي في تلك
الحال بعيدة عن كل نصير ، وخصوصا خادمها ، وقد تركته بين

حي وميت . فغلب على ظنها انه لم ينج من تلك الحمى لأنها أصبحت بعد وقوعها في ذلك الشرك لا تتوقع غير توالى النحس والانسان اذا أصابته مصيبة انصرف ذهنه الى استهدافه لسواها ، واذا صادف توفيقا في عمل خيل له ان الأقدار قد أبرمت معه عهدا ألا تأتيه بغير ما يرضاه »

فاشتغلت بتلك الهواجس عما في ذلك القصر من ضوضاء الجند بين خارج وداخل ، وعن غوغاء الناس في المضارب وخاصة ساعة الغروب وقد نفخ في البوق لدعوتهم الى الطعام

- ٤٦ -

الطارق

وبينما هي مشغلة في ذلك ، اذا بقلقة في مكان القفل يالباب ، فأجفلت ونظرت الى الباب فرأت من ثقبه نورا في الخارج ، ثم فتح الباب ودخل منه شاب بملابس الافرنج في احدى يديه شمعة مضيئة ، وفي الأخرى قصعة مغطاة بشيء كالخبز ، فعلمت انهم جاءوها بالطعام ، فأحست بالجوع ... ولكنها لم تتمالك أن صاحت : « من أنت ؟ »

فأجابها الشاب بصوت هادئ : « قد جئتك ياسيدتى بطعام بأمر سيدى الدوق ، وقد أوصانى أنك أرجوك لتأكلى من هذا الطعام فانه طعامه الخاص »

فاستغربت سالمة هذا الاكرام منه بعد ما دار بينها وبينه ، ولكنها سككت وهي تنتظر ما يفعله الشاب .. فاذا هو قد وضع القصعة على الطنفسة ورفع الخبز عنها فرأت تحته شيئا من الطيور المطبوخة وقد فاحت منه رائحة يشتهيها الشبعان ، فكيف بالجائع ! ولكنها أمسكت نفسها مخافة أن يكون في الطعام سم أو نحوه وان كان الجوع يدفعها الى الأكل .. فرأت أن تنظر في وجه الغلام لعلها تتوهم فيه ما يشجعها أو يحذرها ، فرفعت بصرها اليه والشمعة لاتزال في يده وقد وقعت أشعتها على وجهه فاذا هو يختلف في سحنته ولون بشرته عن أهل تلك البلاد مع ان كلامه افرنجي ، فتبينت تقاطيع وجهه فاذا هو أسود العينين براقهما خفيف العضل أسمر البشرة خفيف اللحية صغير العارضين لحدائته ، وتدل ملامحه على انه ليس افرنجيا .. فلم تستغرب ذلك لعلمها بما كان يدخل بلاط الملوك في تلك الأيام من الأسرى والمماليك من أمم مختلفة .. فتفرست في وجهه لترى ما قد يزيل الشك الذي ساورها من أمر الطعام ، فلم تر في وجه الغلام ما يدعو الى الخوف ، لكنها أرادت أن تتحقق من ذلك من سماع كلامه فقالت : « ما اسمك أيها الشاب ؟ »

قال : « اسمي رودريك ياسيدتي .. »

فلما سمعت ذلك الاسم ، خفق قلبها وأجفلت وتصاعد الدم الى محياها بغتة ، لكنها انتبهت لنفسها في الحال وحوّلت نظرها الى القصعة ومدت يدها الى الخبز وتشاغلت بتقطيعه بهدوء

وسكينة ، والغلام واقف وقد لاحظ منها ذلك الاضطراب فلم يفهم له سببا سوى انها تحتاج الى أمر وقد منعها الحياء من طلبه ، فاتتبه للحال انه لم يأتها بالماء للشرب فابتدرها قائلاً : « أظنك تحتاجين الى الماء ؟ .. »

ثم وضع الشمعة على البساط وخرج ، وقد ترك الباب مفتوحا ، فقهمت سالمة انه ينوى الرجوع بعد قليل .. ولم تمض هنيهة حتى سمعت وقع أقدامه ثم دخل وببيده كوب فيها ماء وضعها أمامها وهو يتنسم ، وكان قد سكن اضطرابها فنظرت اليه .. فأحست بارتياح الى رؤيته ، واستأنست به ، فشكرت عنايته وودت لو انه يتولى أمرها دائما

أما هو فوضع الكوب وخرج ، وأغلق الباب وراءه اغلاقا خفيفا كأنه عازم على الرجوع فتناولت سالمة بعض ما فى القصعة ، وشربت الماء وهى تفكر فيما آنتسته من ذلك الغلام من الود ، ولبثت بعد فراغها من الطعام تنتظر رجوعه . وبعد قليل سمعته وهو يمشى الهوينى ، ثم دخل يحمل غطاء ثقيلًا ووسادة فألقاهما على الأرض وهو يقول : « هذا غطاء ووسادة .. وقد أوصى مولاي الدوق بهما لك » ..

فتناولتهما وقالت له : « أشكر عنايتك أيها الشاب وأرجو أن أستطيع مكافأتك ، وعسى ألا يتولى أمرى من اهل هذا

المعسكر سواك .. وان كان في ذلك اثقال عليك «
فأجابها رودريك وهو يبتسم : « وأنا أرجو ألا يتولى ذلك
سواي لأنى أخشى أن يتولاه من لا يعرف قدرك ، فلا يحسن
خدمتك » ..

فأدركت سألمة من ذلك انه يعرف شيئاً عنها ، فتجاهلت
وسكتت .. أما هو فانه أخذ القصعة والكوب وتحوّل نحو
الباب ، وهو يقول : « وستريننى رهن اشارتك .. وسأبذل
أقصى الجهد فى خدمتك .. فليطمئن بالك » ثم أغلق الباب وخرج



وبعد خروجه شعرت سألمة بإرتياح أنساها بعض ما بها من
الاضطراب ، فافترشت جانباً من الغطاء وتغطت بياقيه وتوسدت
تلتمس النوم ، وكانت قد شعرت بالتعب على اثر ما قاسته فى
ذلك اليوم وما قبله ، فغلب عليها النعاس فنامت نوما عميقا
ولما أفاقت جاءها رودريك بطعام الصباح وتولى خدمتها فى
كل ما تحتاج اليه ، وتفرست فيه على ضوء النهار فتحققت من
انه بعيد الشبه عن الافرنج وقريب الملامح من العرب ، ولكنها
رأته يتكلم الافرنجية مثل أهلها واسمه افرنجى .. فعزمت على
استطلاع حقيقته بعد أن تأنس فيه ثقة بها ، مخافة أن تبدو منها
كلمة تزيد نقمة أود ، اذا هى بلغته ..

- ٤٧ -

السفر

قضت ساملة في ذلك الأسر أياما وهي ترقب حال أهل القصر
لعلها تجد سبيلا للفرار ، فإذا هم شديدا العناية بحراستها ،
كثيرو التضيق عليها .. وكان جماعة منهم موكلين بحراستها
ومراقبة حركاتها ، فعلمت ان أود مع تغيبه عنها واهماله مقابلتها
شديد الحرص على استبقائها في ذلك السجن

فلما طال بناؤها على تلك الحال سئمت الإقامة وتزايد قلقها
على جند العرب لعلمها انهم في انتظارها على مثل الجمر ، ولكنها
لم تكن ترى بأسا من تأخرها عنهم لأنها توقن بأنهم فائزون في
فتحهم حتى يبلغوا بواتيه ، ثم هي لا تخاف عليهم أود وجنده
لأنه غلب غير مرة .. على انها كانت تخاف على مريم من غدر
ميمونة ، ثم هي رجحت ان الكتاب الذي جاء به ذلك الأحول
انما هو من ميمونة ، ولكنها لم تفهم فحواء تماما ، فلبثت تتوقع
فرصة للاطلاع على ذلك من رودريك

وأصبحت ذات يوم فسمعت ضوضاء الجند على غير عادتهم .
فأطلت من النافذة فرأتهم يقوضون الخيام وقد أخذوا في
التأهب للسفر ، فانشغل خاطرها وأوجست خيفة من ذلك
الانتقال ، لكنها رأت في ذلك سبيلا لمخاطبة رودريك فيما قد

يكشف لها شيئاً من ذلك السر . فلما جاءها في ذلك الصباح
ومعه الطعام ابتدرته قائلة : « مالى أراكم تتأهبون للسفر ، هل
أتم مسافرون جميعاً أم ان بعضكم سيبقى هنا ؟ »
قال : « اننا مسافرون جميعاً ، وقد أمر حضرة الدوق أن
تسيرى معنا »

قالت : « والى أين ؟ »

قال : « الى تورس على نهر لوار »

فلما سمعت قوله استغربت ذلك الانتقال لعلمها ان النهر
المذكور هو آخر حدود اkitانيا ، والبلاد التى وراءه تحت سلطة
شارل دوق اوستراسيا .. وهى تعلم أيضاً ان بين أود وشارل
منافسة ومزاحمة على النفوذ ، وربما كان شارل أكثر حرصاً على
صد أود عن بلاده من حرص العرب على فتح اkitانيا فقالت :
« هل أنت على يقين من ذهابهم الى تورس ؟ »

قال رودريك : « نعم ، يامولاتى .. وقد سمعت الأوامر
الصادرة لنا بالذهاب .. »

قالت سالمة : « ألا تعلم بما بين الدوق أود ودوق استراسيا
من المنافسة ؟ »

قال : « بلى .. ومن يجهل ذلك ؟ »

قالت : « فما الذى يفعله الدوق أود فى تورس اذن ؟ ألا
يخاف عدوه شارل ؟ »

فلما سمع رودريك سؤالها ، تلفت نحو الباب كأنه يحاذر أن

يراه أحد ، ثم نظر الى سالة وهو يقول بصوت خفيض : « ان
لذلك سرا لم يطلع عليه الا نفر قليل من هذا الجند ، وأخشى
ان بحت به أن يلحقنى أذى »

فتوسمت فى وجه الغلام خبرا مهما ، فتاقت نفسها لسماعه
فشجعته ، وقالت : « ما الذى تخشاه من أسيرة سجينة ، ربما
لا يهمها من أمر هذا الخبر شيء ، ولكننى أحببت الاطلاع على
هذا السر لغرابته .. وقد شجعتنى على هذا السؤال ما شاهدته
من مؤانستك ولطفك فى هذه المدة . ومع ذلك فانى لا أظنك
أحرص على مصلحة هذا الجند منى لأنك على ما يظهر لى لست
منهم .. »

فلما قالت سالة ذلك بدت البغته على وجه رودريك وقد
تحولت سحنته الى غير ما كانت عليه فتنهد وقال : « لقد
أدهشتنى فراستك فى لأنك اطلعت فى أيام على ما لم يستطع
كشفه أحد من أهل هذا المعسكر فى أعوام .. »

فاستبشرت سالة بذلك التلميح وقالت : « يظهر لى انى قد
أصبت الفراسة فكلانا اذن يرمى الى غرض واحد ، فأخبرنى
عما حمل أود على الذهاب الى تورس ولا تخف ، وأرجو أن
يكون لك من وراء ذلك خيرا »

فقال : « أما السبب فى هذا الانتقال فهو ان العرب حاربونا
ونحن قرب بوردو فغلبونا ، وقد بلغنا الآن انهم قادمون الى
هنا .. »

فقطعت كلامه وقد سرَّها ان غيابها لم يؤخر العرب عن التقدم في الفتح ، وأيقنت انهم لم يلاقوا في طريقهم مقاومة كبيرة من أهل البلاد ، فقالت : « فالافرنج اذن يطلبون تورس فرارا من العرب ؟ »

قال : « لا يخلو الأمر مما ذكرت ، ولكنهم يطلبون تورس للدفاع وليس للفرار »

قالت سالمة : « وبماذا يدافعون وعدوهم هناك أشد وطأة عليهم من العرب ؟ »

قال رودريك : « كان الأمر كذلك من قبل .. ولكنه أصبح الآن حليفا لهم »

فقالت سالمة : « وكيف ذلك والمنافسة متمكنة بينهما لأن كلا منهما يطلب السيادة على الآخر بعد أن رأيا انحلال الدولة المرونجية التي كانت تجمعهما تحت سيطرتها . وقد علمنا ان الفائز منهما ستكون له الدولة والملك على الدوقيات كلها ، فزادت المنافسة بينهما حتى صار يتمنى كل منهما أن يفتك بالآخر .. »

قال رودريك : « هذا هو الواقع فعلا ، وهذا الانقسام هو الذي مكن المسلمين من فتح اكيثانيا حتى وصلوا الى هنا ، واذا قطعوا نهر لوار أصبحت بلاد اوستراسيا في قبضتهم على أهون سبيل لأن أساقفتها ناغمون على الدوق شارل نقمة شديدة وقد يحرضون الشعب على خلعه ، فاذا جاءهم العرب وهم في تلك الحال ساعدوهم على الفتح .. »

فلما سمعت سالمة ذلك خفق قلبها سرورا بما ترجوه من فوز العرب هناك ، ولكنها لم تثق بصدق تلك الرواية فقالت : « وما هو سبب ثمة الاكليروس على شارل ، وهو قائد عظيم ؟ » قال : « السبب ياسيدتى انه أخذ أموالهم واستولى على أملاك الأديرة ووزعها على جنده ، وأهان بعض الأساقفة بالقصاص ، وفضل بعض صغار الكهنة عليهم .. ولا يخفى عليك ما يؤدى اليه ذلك »

فلما تحققت من غضب الأساقفة على شارل عادت الى السؤال عما دعا الى نصره شارل لأود فقالت : « ولكنى لم أفهم كيف صار شارل حليفا للدوق أود .. فهل فعل شارل ذلك من تلقاء نفسه خوفا من الأساقفة ؟ .. »

فقال رودريك : « كلا ياسيدتى .. ولكن الدوق أود لما أيقن بعجزه عن دفع العرب عن بلاده ، لم ير بدا من نصره عدوه شارل .. »

فقالت ، وقد بغتت : « وكيف نصره ، وفي انتصاره خروج هذه البلاد من يده لا محالة ؟ »

قال : « لا أظنه يجهل ذلك .. ولكنه فعله مضطرا بحكم الضرورة ، ففضل أن تؤول البلاد الى أمير مسيحي من أن تؤول الى قوم غرباء دينا ووطنا ، ولعله مطمئن لما يعلمه من اشتغال شارل بنقمة الأساقفة .. ثم انى لا أظنه قد نصره الا مدفوعا بمشورة بعض ثقاته »

قالت : « ومن يجرؤ على هذه المشورة من رجاله ؟ »
 قال : « المشورة لم تأت من هذا المعسكر ولكنى علمت
 بكتاب جاء فى اليوم الذى سجنك فيه .. وفى ذلك الكتاب
 تحريض على استتجاد شارل ، والظاهر انه أثر فيه كثيرا فحالما
 قرأ الكتاب بعث وفدا الى شارل يطلب اليه مساعدته فى هذه
 الحرب فأتاه الجواب بالايجاب »

— ٤٨ —

الاستطلاع

فلما سمعت قوله ثبت لديها ان المحرض على ذلك هو ميمونة ،
 فاستعازت بالله ، ولكنها كتمت خواطرها وتجلدت لأنها لم تكن
 تثق برودرىك وهو لم يكشفها بحقيقة أمره ، فأحبت قبل
 الافاضة فى هذا الموضوع أن تستطلع الحقيقة ، فقالت والاهتمام
 ظاهر على وجهها : « أراك يارودريك قد كاشفتنى بأمور ذات
 بال مما يدل على ثقتك فى ، فاعلم ان ثقتك فى محلها .. واذا
 كنت تؤمن باخلاصى لك ، فكن على يقين بأنى باذلة نفسى فى
 مكافأتك ، على انى لا أزال أعلى نفسى بالاطلاع على حقيقة
 أمرك لأنى على ثقة انك لست من أهل هذا المعسكر »
 قال : « لارىب عندى فى اخلاصك ولولا ذلك ما خاطبتك
 بما خاطبتك به ، والأمر الذى تتمينه هو الذى أتمناه أنا أيضا..

وهذا ما شجعنى على هذه المكاشفة »

فأدركت سالمه أنه على مبدئها ، فازدادت ميلا الى استطلاع حقيقته ، فتالت : « فأطلعنى على حكايتك لتعاون على النجاة باذن الله .. »

قال : « ولكننى أطلب اليك أن تخبرينى عن أمر لاحظته منك فى أول ساعة خاطبتك فيها .. هل أسألك عنه ؟ »
قالت سالمه : « وما هو ؟ .. »

قال : « لما سألتنى عن اسمى وعلمت انه رودريك رأيت فى وجهك أثر البغته ، فهل كان ذلك بسبب اسمى أم لسبب آخر..؟ »
فتظاهرت سالمه بعدم الاكتراث وقالت : « لا أذكر انى بغت لشيء من هذا القبيل »
فصدّق وسكت ..

أما هى فلبثت ساكته تنتظر جوابه على سؤالها عن حكايته فرأته يلتفت نحو النافذة كأنه يرقب حركة أو يتوقع قادما ، فالتفتت هى فلم تر غير الجند وهم لا يزالون فى اهتمامهم بالحزم والربط والاستعداد للرحيل فحوّلت بصرها الى رودريك فرأته يهم بالجواب وهو يتردد فقالت : « يظهر انك تحاذر شيئا »
قال : « كلا يامولاتى ولكننى أخشى أن يدهمنى الوقت وأدعى الى السفر قبل الفراغ من حكايتى لأنها طويلة »
قالت : « قل لى باختصار اذن ، هل تعرف اللغة العربية ؟ »
قال : « كلا .. »

فتوهنت سالمة انها أخطأت الفراسة فيه ، لأنها كانت قد
توسّمت من ملامحه أنه عربى فقالت : « هل تتكلم لغة غير
الافرنجية ؟ »

قال : « أعرف اللغة البلغارية ، وهى لغة حدثتى »
قالت : « فأذن أنت بلغارى الأصل .. ولكن ملامحك لا تدل
على ذلك » ..

قال : « لست من بلغاريا ، ولكنى ربّيت فى بيت رجل من
البلغار .. »

قالت : « وكيف تعلمت لغة الافرنج ؟ .. ويظهر انك تتكلمها
جيّدا كأنك تعلمتها فى صغرك »

قال : « تعلمتها من طول الممارسة لأن الرجل البلغارى الذى
ربّانى باعنى لبعض الافرنج ثم انتقلت الى الدوق أود بالمقايسة »
فاستغربت ماسمعه ، ورأت ان أسئلتها لم تجند نفعا ، وكانت
تتوقع بها قرب الوصول الى الغرض فاذا هى تبتعد عنه فعمدت
الى الاختصار والتصريح فقالت : « قل لى .. أين ولدت ؟ »
قال رودريك : « ولدت فى طليطلة »

قالت : « أنت اذن أسبانى ؟ »

قال رودريك : « كلا .. »

قالت : « فأنت عربى ؟ »

فسكت .. وقد ظهرت فى وجهه ملامح الخوف

- ٤٩ -

منظر هائل

فأدركت انه يخشى التصريح لقلة ثقته بها لأن ملاحظتها بعيدة جدا عن ملامح العرب فقالت : « لا تخف يا شاب فانك تخاطب امرأة لا تحب غير العرب ، ولكن حديثك أدهشنى .. فكيف تقول انك ربيت فى بلاد البلغار ، ثم تقول انك ولدت فى طليطلة والمسافة بين البلدين بعيدة جدا . أظنك واهما فيما تقول ، أو لعل الذى أنبأك بمولدك قد خدعك أو كذب عليك ؟ »

فقال : « انى على ثقة من ذلك لأنى عشت فى طليطلة بضع سنوات ، ولا أزال أذكر بعض مناظرها كأنها خيال »

قالت بلهفة : « أتذكر مناظر طليطلة ؟ .. ما الذى تذكره منها ؟ » ..

قال : « أذكر قصرها الكبير على نهر التاج وحوله الحدائق . وأذكر حديقة ذلك القصر لأنى كثيرا ماكنت ألعب فيها مع بعض الرفاق على ضفاف ذلك النهر » ..

قالت وفى وجهها معنى لو رآه لعلم انها بغتت لذكر طليطلة وقصرها ، وانها كانت تغالب عواطفها لئلا يظهر ذلك فى وجهها :

« فأنت اذن من أبناء ذلك القصر .. وما الذى تذكره أيضا ؟ »

قال : « لا أذكر غير ذلك القصر لأنى أخرجت من طليطلة وأنا

طفل ، ولولا ما شهدته من الأمور المخيفة لم تبق صورته في ذهني ، قالت : « وما الذي شهدت فأخافك وأنت طفل ؟ »
قال : « شهدت مقتل أمير الأندلس .. »

قالت : « ألا تتذكر اسمه ؟ »

قال : « لم أكن أعرف اسمه يوم مقتله ، ولكنني علمت بعد ذلك انه عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي فتح بلاد الأندلس للعرب .. »

فلما قال ذلك كادت تظهر الدهشة على سائلة لو لم تتجلد وتشغل رودريك بمواصلة السؤال ، قائلة : « وما الذي تذكره من أمر مقتله ؟ »

قال : « أذكر اني كنت في أحد شهور سنة ٩٧ للهجرة ألعب في حديقة القصر ، وأنا في نحو الخامسة من عمري ومعى طفلة أصغر مني كنت ألاعبها ومعنا الخدم ، لأنها بنت الأمير عبد العزيز وقد ربينا معا . وبينما نحن في ذلك ، اذ رأيت الخدم في هرج ومرج وقد وقفوا وقفة الاحترام ، فأسرعت للفرجة وبجانبى ابنة الأمير . واذا بالأمير عبد العزيز قد خرج من القصر ومر بالحديقة وعليه القباء والعباءة ، ووراءه جماعة من أرباب العمائم ، فلما دنا منا مد يده الى ولمس رأسى على سبيل الملاطفة وقال كلمة لا أذكرها . فتأثرت لمنظره لأنها أول مرة رأيته في مثل ذلك الموكب . فسألت عن مسيره فقالوا الى المسجد للصلاة . فلم يهمنى الأمر فعدت الى اللعب ، ولم يمض قليل حتى سمعت

نسوا الناس وقد جاء بعض الغلمان وحملوا الطفلة بسرعة وتركوني . فخفت لأن الحديقة أصبحت خالية ولم يعد فيها أحد سواي ، فأخذت في البكاء ثم رأيت الناس يعدون من جهة المسجد عدوا سريعا ، وأخيرا رأيت منظرا أثر في ذاكرتي تأثيرا لا يمحوه كرا الأيام ، ولا أذكره الا اقشعر بدني . شهدت جماعة يعدون في اثر الناس نحو القصر وفي مقدمتهم رجل يحمل رأس انسان وقد قبض عليه من شعره والدم يقطر منه ، ويد الرجل وثيابه قد تلطخت بالدم ونظرت في ذلك الرأس فاذا هي رأس الأمير عبد العزيز ، فاستغرقت في البكاء وليس من ينتبه لبكائي لانشغال الناس عني بشئونهم .. وأذكر اني بقيت في ذلك المكان الى الغروب ، ولم ينتبه لي أحد ثم جاء جدّي فحملني وصعد بي الى ذلك القصر ، الى حجر والدتي .. على اننا لم نبق في طليطة بعد ذلك الحادث الا بضعة أيام ثم انتقل والدي بي وبأمي الى الشام .. »

وكان رودريك يتكلم وسالمة شاخصة فيه ، وعيناها تكادان تجمدان في وجهها ملامح الاضطراب مع اصفرار الدهشة وانقباض الحزن ورودريك يزداد مبالغة في وصف هول ما شاهده . فلما فرغ من حديثه رأى دموعين انحدرتا من عيني سالمة ، فحمل ذلك منها حمل التأثر والانفعال من مثل ذلك الحديث ، ولو كان السامع غريبا ..

أما سألمة فجاش في خاطرها أمور قضت بضع عشرة سنة في الصبر على كتمانها وكادت تحدثها نفسها بالتصريح ، لو لم يغلب عليها التعقل والصبر ، فأمسكت وعادت الى اتمام حديث رودريك فقالت : « ان حديثك غريب وقد أزعجنى ، فأخبرنى عما تم بعد ذهابكم الى الشام وكيف وصلت الى بلاد البلغار .. » فقال : « أظنك سمعت بمسير العرب لفتح القسطنطينية منذ بضعة عشر عاما . واني لأستغرب الآن بعدما شهدت تلك المدينة وعرفت حصونها وقلاعها كيف أقدم العرب على فتحها » فقطعت سألمة كلامه قائلة : « ان الغرض من الذهاب لفتحها الوصول الى هذه الأرض من ذاك الطريق فيلتقى فاتحو القسطنطينية بفاتحي الأندلس هنا ، ويتم للمسلمين فتح هذه الأرض الكبيرة ، وفي فتحها يتم للعرب امتلاك العالم كله .. ألا تراهم لما أعجزهم فتح القسطنطينية كيف أعادوا الكرة لفتح هذه البلاد من هذا الطريق ؟ »

فتعجب الشاب من سعة اطلاع سألمة على تلك الأحوال وزاد استئناسا بها فأتهم حديثه قائلاً : « أقص عليك خبرى ليس كما أدركته حين حدوثه اذ كنت طفلاً ، ولكنى أقصته كما فهمته بعد ذلك .. فاعلمى اننا وصلنا الى الشام فلم نجد الخليفة فيها ، ولم أكن أعرف اسمه »

فقطعت سألمة كلامه قائلة : « هو سليمان بن عبد الملك الرجل الأعرج الأكل الذى أكل سبعين رمانة وجديا وست

دجاجات فى أكلة واحدة وختم الطعام بأرطال من الزبيب ،
وقد كان الأجدر به أن يقيم نفسه خليفة على المطابخ وليس على
الناس فيقتل الأمراء ويسفك الدماء .. » قالت ذلك وهى
لا تتمالك نفسها عن اظهار الغضب ..

أما رودريك فعاد الى حديثه وهو يختصر ، خوفا من أن
يطلبه أحد قبل الفراغ منه ، فقال : « وسألنا عن الخليفة فقالوا
انه خرج بحملة من الرجال الى قسرين ، وأعد جيشا كبيرا
ليسير الى القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة ، وكان الناس
يعلقون الآمال على ذلك الفتح والكل يثق بالفوز .. ونست
أدرى ما الذى دعا الى هذه الثقة .. »

فقالت : « سبب هذه الثقة اعتزاز العرب بما فتحوه من الممالك
واعتقادهم ان العالم سيكون كله لهم ، وقد ساعدتهم على ذلك
ثقتهم بمسلمة لأنه من كبار القواد وقد تمت فتوح كثيرة على
يده .. »

— ٥٠ —

حصار القسطنطينية

فقال رودريك : « وكان والدى من أكثر الناس ثقة بذلك ،
فلما دعوه الى مرافقة تلك الحملة لم يرض الا أن يأخذ والدتى

ويأخذنى معه لاعتقاده انهم سيفتحون القسطنطينية ، وانه باق هناك أو فيما وراءها من البلاد . وكان والدى من المقربين الى مسلمة لأنه كان يعرف اللغة اليونانية وقد تعلمها فى بعض أسفاره الى بلاد الروم وهو شاب . فكان مسلمة اذا نزلت الحملة أنزلنا فى فسطاطه ونزلت أنا ووالدتى فى خباء نسائه ، وكانت تلك الحملة الهائلة حمتين : واحدة برية ، وأخرى بحرية . وكان عدد جند البر الذى نحن فيه ١٢٥٠٠ مقاتل وفيهم العرب والفرس وغيرهما وأكثرهم من راكبي الأفراس أو الجمال . وكانت الحملة البحرية — على ما بلغنى بعد ذلك — ١٨٠٠ سفينة ، استقدمها مسلمة من سواحل مصر والشام والأندلس وفيها المئونة والذخيرة . فمشى جنود البر كأنهم غابة من الناس والدواب . فمررنا بتيانة وعمورية وبرغاموس ففتحوها وسلم من كان فيها من الروم أو فروا ، واستولى المسلمون على أسلابهم وأموالهم . وكانت تلك الحملة تزداد ثقة وتتسع آمال رجالها كلما تقدمت لأنهم لم يمروا ببلد الا فتحوه ونهبوه حتى وصلنا الى حدود آسيا من جهة خليج القسطنطينية ، وهو الفاصل بيننا وبينها . وكانت الحملة البحرية قد وصلت الى هناك ، فاستخدمنا بعض سفنها فى نقل الرجال والأحمال من شاطئ آسيا الى شاطئ القسطنطينية عند مكان يسمونه «اييدوس» ، وهى أول مرة قطع جند المسلمين فيها ذلك الخليج ، على اننا

قاسينا فى ذلك السبيل مشقة كبرى وكدت أغرق مع والدتى ،
ولكن العناية الالهية أرادت بقائى لزيادة شقائى .. »
فقلت سالمة بصوت منخفض : « لا بل أرادت العناية ببقائك
خيرا يتم على يدك لأناس أنت تحبهم » فأخذ رودريك فى اتمام
الحديث فقال : « وبعد أن قطعنا ذلك الخليج بأفراسنا وجمالنا
وأحمالنا نزلنا الى الشاطئ ودرنا حتى أقبلنا على القسطنطينية
من جهة الغرب فعسكرنا هناك فى سهل واسع ، وحفرنا حولنا
خندقا وبنينا سورا من التراب ، وأقمنا للحصار ونحن فى شبه
مدينة كبيرة فيها كل ما نحتاج اليه من المؤن والذخائر . وهذه
أول مرة أشرفت فيها على تلك المدينة الهائلة وكنت صغيرا لا
أفقه معنى العظمة ، ومع ذلك فقد هالنى علو أسوارها وما على
تلك الأسوار من أدوات للحرب . علمت ذلك مما كانوا يرشقوننا
به فيما بعد من النبال والحجارة بالمجانق . وهناك شاهدت أهوال
الحرب لأول مرة . فقد كنت أصعد الى سورنا حتى أشرف على
أسوار المدينة ، فأرى النبال مغروسة فى جدار سورنا مثل ريش
القنفذ وبعضها ملقى فى السهل بيننا وبينهم حتى انى كثيرا ما
كنت - وأنا ألبأمام خيمة مسلمة - أرى النبال تتساقط
حولى فألتقطها ، ولم تكن تهمنى ، وكنت لا أزال أحسب
الحرب لعبة حتى شاهدت ذات يوم أمرا لم أجسر بعده على
الخروج من خباء والدتى ..
« وذلك اننى صعدت مرة على سور معسكرنا للفرجة كالعادة

فأيت شيئاً تطاير عن سور القسطنطينية نحونا أشبه إشعلة متقدة كأنها كوكب مذنب حتى وقعت خارج السور ، فتبعثرت وأشعلت مساحة كبيرة من العشب اليابس هناك وتطايرت منها رائحة حادة . فذعرت وأسرعت الى والدتي وأنا في تلك الحال وأخبرتها ، فأخبرتني انهم كثيرا ما يطلقون هذه النار فتحرق ما تصيبه ، فلم أعد أجسر على الاقتراب من السور . ثم علمت بعد ذلك انها ما يسمونه « النار اليونانية » وأظنهم اتصروا علينا بتلك النار ، لأنهم أحرقوا بها أسطولنا من جهة البحر . وكانت الريح قد ساعدت الأسطول المذكور حتى دخل الخليج تجاه المدينة من جهة الشرق ، وكان لوصوله تأثير شديد على قلوب الروم . وقد أخبرني بعد ذلك بعض الذين كانوا داخل المدينة في أثناء الحصار انهم كانوا اذا أطلوا على البحر رأوا أسطولنا كأنه غابة أشجارها الأشعة والسوارى لا يقف البصر على آخرها ، واذا نظروا من جهة البر رأوا معسكرنا كأنه بحر أمواجه الناس والدواب وسفنه الخيام والأعلام

« وقد ساعدنا الحظ في أن السلسلة التي تعود قياصرة الروم قطع مدخل القسطنطينية بها عند قرن الذهب في مثل هذه الحال كانت محلولة ، وتحدث الأمراء في اغتنام هذه الفرصة والدخول في ذلك الخليج ، فأشار عليهم بعض العارفين بالتوقف برهة لئلا يكون في الأمر دسيمة . ولكنهم مع ذلك اقتربوا من الشاطئ كثيرا فما شعروا الا والأسطول اليوناني يقترب منهم فتهيأوا

للدفاع ، واذا بهؤلاء يطلقون عليهم النار كأنها خارجة من نوافذ جهنم ، فأحرقت معظم السفن ، والذين نجوا منها جاءونا وهم ينادون بالويل والثبور وقد مات منهم كثيرون

« فأصبح أسطولنا بعد ذلك لا نفع فيه وتحولت الأنظار الى قوة البر . وكان مسلمة يتوقع أن يمل أهل القسطنطينية من طول الحصار وتقل عندهم المثونة فيضطروا الى التسليم ، وقد أطمعنا في ذلك أننا بعد الحصار ببضعة أشهر بعث الروم الى مسلمة يعرضون عليه أن يعطوه على كل رأس ديناراً وينصرف ، فطمع وأبى الا أن يفتحها عنوة ، أو يستسلم أهلها جوعاً .. وأما نحن فكان مسلمة قد أعد لنا كل ما يلزم للزرع والحصاد ، فقضينا الشتاء والصيف ، وزرعنا ورعيننا الماشية ونحن نتوقع أن يمل أهل القسطنطينية فما رأيناهم ملوا ، وقد حاصرناهم سنة وبعض السنة ، وعلمت بعد ذلك ان ملك القسطنطينية يومئذ واسمه اناستاسيوس أو ارتقيوس قبض على زمام الملك وليس هو من عائلة القياصرة ولكنه كان حكيماً عاقلاً ، فلما عاد اليه سفيره من دمشق بخبر الحرب وقدوم العرب عليه برا وبحرا علم ان العرب سيحاصرونه فأعلن أهل القسطنطينية ان كل من لا يستطيع اختزان مئونة تكفيه ثلاث سنوات فليخرج من المدينة .. فاشتغل الناس باختزان الحنطة والحبوب ورمموا الأسوار واستعدوا للدفاع

والحصار . ولذلك فقد مللنا نحن قبلهم لأننا كنا نتوقع نجدة
من الخليفة في مرج دابق ، فمات ولم تصلنا النجدة «
فقطعت سائلة كلامه قائلة : « هل تعرف سبب موته ؟ »
قال : « كلا .. »

قالت : « لقد مات شهيد الشراة .. مات من التخمة .. وذلك
أن أحد نصارى دابق أتاها بزنبيلين مملوءين تينا وبيضا ، فأمر من
يقشر له البيض وجعل يأكل بيضة وتينة حتى أتى على الزنبيلين
ثم أتوه بمخ وسكر فأكله ، فأصيب بالتخمة ومرض ومات »

— ٥١ —

البلغاريون

فعاد رودريك الى كلامه ، وهو يخشى ضياع الوقت ، فقال :
« وبرغم وفاة الخليفة ، فقد كان يمكننا أن نصبر على الحصار
سنة أخرى ، وقد تعودنا الزرع وألفنا الاقليم ، ولكن جاءنا
شتاء قاس لم نستطع معه الزرع ولا العمل فقلّت مئوتتنا حتى
آكلنا الدواب والجلود وجذوع الأشجار والورق . ومما زاد
الطين بلاء ان ملك القسطنطينية — وهو يومئذ لاون — لما طال
عليه الحصار ، ورأى العرب مقيمين .. عمل على مضايقتنا ،
فبعث الى البلغارين المقيمين على ضفاف الطونة (الدانوب)

يستحثهم الدفاع عن عاصمته بالأموال والهدايا ، فجاءوا في البر وأحاطوا بمعسكرنا وضيقوا علينا حتى أصبح الرجل منا لا يستطيع الخروج من المعسكر وحده لئلا يسطاده أولئك البرابرة ، وأعد لاون منشورا وزَّعه على أهل بلده أوهم الناس فيه أن الأفرنج قادمون إلى القسطنطينية بالأساطيل الهائلة للدفاع عن النصرانية . فلما وصل ذلك الخبر إلى مسلمة لم يعد يستطيع صبرا على البقاء فأزمع الانسحاب

« فاستقدم ما بقى من أسطوله وأمر بالاقلاع والتقويض للركوب في البحر والرجوع إلى شواطئ آسيا . فجاءت السفن وأخذوا ينقلون إليها الخيام وما بقى من الخيول والجمال ، وكنت أنا كما أخبرتك مقيما مع والدتي في الخباء فلما أخذوا في تقويضه اشتغل كل بهمام نفسه ، واشتغلت والدتي عني . فخرجت لالتقاط بعض النبال المبعثرة هناك فبعدت عن المعسكر وأنا لا أدري . والظاهر أنهم لم ينتبهوا لذلك .. فما شعرت إلا وإثنان من البلغارين انقضا عليَّ كالذئاب الكاسرة .. فصحت وناديت : يا أبتاه !.. يا أماه ! وما من مجيب . على اني التفت بعد هنيهة نحو معسكر العرب وأنا بين ذراعي أحدهما فرأيت والدتي المسكينة تنظر إلى من فوق السور وهي تلطم وجهها وتصيح وتستغيث ، ثم توارى بى الرجل بين الأشجار فلم أعد أرى أحدا ، فأخذت في البكاء وهم تارة يهددوننى ، وطورا

يتملقونى ..

وتوقف رودريك عن الحديث ، فذرفت سائلة دمعتين تدحرجتا على خديها حتى ضاعتا في أهذاب خمارها وهي تنظر الى رودريك والأسف باد على وجهها تتخلله الدهشة ، ففهم انها فعلت ذلك لتأثرها من حكايته ، فهمم باتمام حديثه .. فاذا هي تقطع حديثه قائلة : « هل علمت بما أصاب والدتك ووالدك ؟ » قال : « كلا يامولاتى ، لأنى لم أعد أراها ولا سمعت خبرا عنهما ، ولا رأيت أحدا يعرفهما من ذلك الحين ، لأنى ربّيت فى بلاد البلغار فى أشقى الأحوال ، أعمل فى رعاية الماشية وجمع الأحطاب والأخشاب للوقود من شدة البرد ، وكنت أطوف التلال والأودية مع رفاقى من أولاد البلغار أو بعض خدمهم ، نلتقط ما نعثر عليه من قطع الخشب ونحوها ونأتى بها الى المنازل ، فاذا أظلم الليل اجتمع أهل المنزل فى غرفة قد أوقدوا النار فى وسطها من الحطب والعيدان والأعشاب اليابسة ، فيصطفون حولها يستدفئون وفيهم الرجال والنساء والأطفال وكلهم أحسن منى لباسا . فقد كان على بعضهم أردية من الفرو أو الصوف ، وأنا لا أزال كما جاءوا بى ليس على رداء وقميص . ولولا اشفاق ربة ذلك المنزل على لتوفيت من شدة البرد ، فانها تفحنتى ببقية خمارمبطن بالجلد كان لأحد أولادها ، فخمرتنى به وأعطتنى شبه جبّة من جلد الماعز كانت لزوجها وقد تهرأت ، فلبستها فغطتنى الى أسفل قدمى فارتدت الى روحى . ولا أظنهم فعلوا

ذلك شفقة وانما ساءهم أن أموت فيخسروا ما كانوا يطمعون فيه من ثمنى ..

- ٥٢ -

سوق الرقيق

« فقضيت في ذلك بضعة أعوام وقد تعلمت اللغة البلغارية ، وتعودت عاداتهم في الطعام والشراب والصلاة ونحوها ، ونسيت لغة أمى وديانتها . فلما بلغت الثانية عشرة حملوني في جماعة من الأحداث ، كانوا قد جمعوهم من أعالي بلاد الصقالبة وساقوهم ، وفيهم الذكور والاناث ولا كساء عليهم غير الجلود ، وشعورهم مرسلة كأنهم كانوا يقتاتون على نبات البرية ويعاشرون حيواناتها ، فجمعونا معا وشدووا أيدينا بعضها الى بعض بأمراس ، وساقونا فمشينا بضعة أيام على تلك الحال ونحن نساق كالأنعام حتى وصلنا الى بقعة رأينا فيها ازدحاما من كثرة الناس والخيول والماشية والأحمال . فسألنا عن المكان فقالوا : انه سوق عمومي يجتمع فيه الناس من أقاصى البلاد للبيع والشراء أو للمبادلة أو المقايضة . وساقونا جميعا الى شبه زريبة حولها سور بعضه من الخشب وبعضه من الأحجار ، وأغلقوا بابه علينا بعد أن حلوا أيدينا من الأمراس . وعند وصولي الى السوق نسيت متاعبي ومصائبى لاشتغال خاطرى بما شاهدته هناك من مختلف الأجناس

وأشكال السلع على غير المألوف عندي . وكنا قد وصلنا الى ذلك المكان قبيل الغروب فبتنا في الظلام والبرد وأنا لا أكلم أحدا من رفاقي لأنى لا أعرف لغتهم ولا هم يعرفون لغتى . ولما أصبح الصباح وأشرقت الشمس نسينا البرد ، ثم رأينا الناس يتبايعون ويتقايضون ونحن نتوقع ساعة بيعنا . وإذا برجلين أحدهما طويل القامة جدا ، والآخر قصيرها وقد ارتديا الجيب المبطنة بالفرو السميك وتلثما بخمارين من صوف ، وبرزت لحيتهما من بين جناحي الخمار واحمرت عيناها من كثرة الدفء أو من شرب الخمر ، دخلا الزرية وأصحابنا البلغاريون يسرون أمامهما باحترام وفي أثرهما جماعة من الخدم

« فلما دخلا ظل الرجل الطويل واقفا مع أصحابنا ، وتقدم القصير إلينا وجعل يتفحصنا واحدا واحدا ، وينتقى من يقع عليه اختياره منا ، حتى اذا وصل الى تفرس في وجهى وتكلم بلغة لا أفهمها أظنها قوطية أو عبرانية لأنى علمت بعد ذلك ان الرجل من تجار اليهود . فمد يده فأمسك بيدي وجذبني نحوه وأمرنى أن أفتح فمى ، ففحص أسناني وفمى وجس كتفى وهزهما ونظر في عيني وأذنى ويدي وقدمى ، ثم أشار الى فأنضمت الى المختارين . وبعد الفراغ من الالتقاء تساوموا ، فلما تمت صفقة البيع ساقنا أصحابنا الجدد الى زريبتهم بعد أن دفعوا الثمن وأظنه بخسا جدا ، ثم أعطونا خبزا يابسا وألبسونا أكسية ثقيلة متشابهة من الخيش والجلد ، وقصوا شعورنا وأصلحوا من

شأنا بعض الشيء ، فسررت للشبع والدفع
« وحملنا أولئك التجار بعد أيام على الدواب بالتناوب
ونحن نحو المائة حتى أتوا بنا بلاد الافرنج ، فأنزلونا في خان
حبسونا فيه أياما ، ثم انتقوا جماعة منا لصغر سنهم وجمالهم
وأرسلوهم الى مكان يخصصون فيه الصبيان . وبلغنى بعد ذلك
انهم أغضوا عني لأنى كبرت على تلك العملية »

ولما وصل بكلامه الى هنا ، سمعا صوت النفير يدعو الجند
الى الاجتماع فقال : « أظننى أطلت الحديث ، فأقول باختصار
انى انتقلت بالبيع الى بعض الأعيان من الافرنج ، ثم بالمقايضة
الى الدوق أود . وكنت فى أثناء اقامتى فى هذه البلاد قد سمعت
بقدوم العرب لفتحها ، وكانت تحدثنى نفسى بالفرار اليهم لأبحث
عن والدى لأنى لم أعد أسمع عنهما شيئا منذ خففت
بالقسطنطينية . وكنت قد أزمعت اذا كان معسكرنا بقرب
معسكر العرب أن أفر اليهم فلم أتمكن من ذلك لأسباب يطول
شرحها . فها قد قصصت عليك خبرى .. »

قالت : « لقد سرّنى صدق فراستى فيك ، فأنت الآن عربى
وأنا متفانية فى خدمة العرد ، ولا يسمح لنا الوقت الآن
بالتفصيل فلنترك ذلك لفرصة أخرى . وعندى أمور تتعلق
بوالديك وجديك سأقصها عليك . أما الآن فامض فى عملك ،
واجتهد - اذا حملتمونى معكم فى هذا السفر - أن أكون على
اتصال بك لتفاهم شأن النجاة .. »

قال: « سمعا وطاعة » وتحول من الغرفة وأغلق الباب وراءه ، فاذا هو يكاد يعثر برجل عليه لباس مخالف لزي الجند ، كان جالسا القرفصاء في الدهليز بقرب الباب ، ودفن رأسه في حجره .. فلما رآه رودريك أجفل وخشى أن يكون قد سمع ما دار بينه وبين سالمة ، فرفسه بقدمه كأنه يوقظه من النوم فلم يتحرك ، فرفسه ثانية وهزّه ، فتظاهر بالكسل الشديد ورفع رأسه وتثاءب وتمطى وجعل يفرك عينيه ويلتفت حوله كأنه أفاق من سبات عميق .. فارتاح بال رودريك ، اذ توهم انه كان نائما هناك نتيجة كسل أو تعب ، فانتهره وأمره أن ينصرف فتظاهر بالخوف ووقف مسرعا وخرج يهرول

- ٥٣ -

موكب الدوق

أما سالمة فانها فرحت برودريك واستبشرت بالنجاة على يده لما ظهر لها من ثقة الدوق أود به ، فاذا كان هو حارسها في ذلك المعسكر هانت النجاة عليهما ، فتذهب الى معسكر العرب وتخبر عبد الرحمن بما علمته من استنجاد أود لشارل (قارله) لئلا ينخدع بقلة جند الافرنج ، فيأتيه شارل على غرة فيهزمه ، واذا هزم العرب هناك في وقعة واحدة أخفقت مساعيهم كلها .. ثم تذكرت حسانا وكيف تركته في الدير وتمنت أن يكون في خير

وعافية ، وأن يبقى على قيد الحياة حتى يرى رودريك ويعرف من هو لأمر يهمه . وكانت الشمس قد مالت عن الهاجرة ، فوقفت سالمة الى النافذة تتشاغل بما يبدو من اهتمام الجند بالتقويض والتحميل ريثما يأتيها النبا في شأنها لترى الى أين تسير قضت ساعة وهي في تلك الحال حتى رأت موكب الدوق أود وحوله الفرسان على أفراس سروجها مفضضة وعليهم الملابس البراقة بالألوان الباهرة : كالأزرق ، والارجواني ، والدوق أود في الوسط على فرس من جياذ الخيل ، وعلى رأسه قبعة مرصعة تتلألأ حجارتها في أشعة الشمس كأنها مصاييح . وعلى كتفيه طيلسان أو رداء سنجابي اللون كالطيلسان مزركش بالقصب الى أردانه . وفي عنقه قلادة من الذهب يتدلى منها على صدره صليب من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة من الماس والياقوت . ونظرت سالمة الى سرج الجواد ولجامه فاذا هما أيضا مرصعان والجواد تجته يتلاعب كأنه يرقص تيهًا ، وهو أكثر زهوا من فارسه الدوق . وكان الدوق قد أصلح من شأنه ، ولكن الاضطراب ظل باديا من خلال تلك العظمة . وربما كان السبب في ذلك ندمه على استنجاهه بعدوه شارل ، على العرب .. ولعلك لو اطلعت على أعماق نفسه لرأيتة يفضل أن لايجيب شارل دعوته أو أن يحدث ما يثنيه عن عزمه فيبقى هو وحده أمام العرب ، فاما أن يغلبهم فيبقى سيد اkitانيا وحده ، أو اذا خشى أن يهزموه صالحهم فيملكوه أرضه تحت حمايتهم . وأما

شارل فاذا تم النصر على يده فلا يقنعه غير السيادة على الافرنج كافة ويصبح هو نسيا منسيا ، هذا اذا لم يقتله بعض المتزلفين لشارل . ونظن انه لو تأكد ان الافرنج سيعاملونه مثلما يعامله العرب لفضل العرب على الافرنج ، لما في فطرة البشر من التحاسد بين الأقرباء أكثر مما بين الغرباء . فالانسان اذا خيّر بين أن يذل نفسه لبعض ذوى قرابته أو لأحد الغرباء لفضّل الخضوع للغريب . ولهذا السبب ترى الشعوب التي يحكمها الفاتحون من الغرباء أسهل انقيادا وأقرب خضوعا لقوانين الدولة ممن يحكمهم أناس من أبناء جلدتهم ، وذلك لذهاب الهيبة بين أبناء الأب الواحد لأنهم يتعارفون وهم صغار، ومن يعرفك صغيرا لا يحترمك كبيرا . وبهذه القاعدة نستدل على كثير من غوامض التاريخ المختلف في حقيقتها كأصل الفراعنة الأولين مثلا ، فالمؤرخون مختلفون في : هل هم مصريون أو دخلاء ؟.. ونظرا لما نعلمه من خضوع أهل البلاد الأصليين لهم نرجح انهم غرباء فاتحون للأسباب التي قدمناها . ناهيك بالتحاسد بين الرئيس والمرءوس في أبناء الوطن الواحد ، ويشتد الحسد بين اثنين على نعمة كلما تقاربت قدرتهما على نيلها ، أو تشابهت أسبابهما اليها . ولذلك كان التحاسد على أشده بين أصحاب المهنة الواحدة

فلا غرو بعد ذلك اذا تخيلنا في أود الندم على استنجاد شارل ، على انه حينما اقترب بموكبه من نافذة سالمة التفت نحوها ، فوق نظره عليها .. فرنا اليها قليلا ولم يد اشاراة ،

ثم توارى الموكب عن سالمة ، ورأت الجنود تسير على الأقدام في أثره جماعات وبينهم الأمراء والقواد يمتطون الأفراس وعليهم الدروع والخوذات وبين أيديهم حملة الأعلام ، وهي كثيرة الأشكال والألوان ، على بعضها رسم الصليب وعلى البعض الآخر صورة العذراء مريم تحمل طفلها ، أو صور ملائكة أو طيور أو غير ذلك من الشارات المسيحية أو الرومانية . وكانت جوقة الموسيقى قد مشت بين يدي الدوق صامتة ، فلما تم تحرك الجند سمعت سالمة قرع الطبول والصنوج والأبواق ونحوها ، فتحركت عواطفها وتصورت قرب نشوب الحرب بين العرب والافرنج بعد وصول النجدة لهؤلاء .. فكيف تكون العاقبة لو قدرت الغلبة للافرنج وعاد العرب مهزومين ؟ .. وحينما تصورت ذلك اقشعر بدننها وصعد الدم الى وجنتيها

فلما سار الجند ، وكان يتوارى عن بصرها ولم يبق في ذلك المعسكر الا شراذم قليلة من الخدم والأعوان ، ورأت نفسها لا تزال وحيدة ولم يأت رودريك اليها بطعام ولا كلام ، انشغل بالها وأوجست من تأخره شرا ، فتحولت عن النافذة نحو الباب لعلها ترى أحدا قادمًا فإذا هي تسمع وقع أقدام بلا خفق نعال ومشية غير مشية رودريك . فقالت في نفسها : « من عساه أن يكون القادم ؟ » وما لبث أن فتح الباب ودخل منه رجل بملابس أشبه بملابس العرب ، وحالما وقع بصرها عليه رأت فيه شبيها بالرسول الذي جاء بالكتاب الى أود وهي عنده فاستعادت

بالله وخافت ، ولكنها تجلّدت وثبتت جأشها وابتدرت الرجل
قائلة : « ما الذى تريده ؟ »

— ٥٤ —

الأحول

فنظر اليها وعيناه تتباعدان من شدة الحول وتتراقصان وقال :
« لا أريد شيئا ، ولكن حضرة الدوق أمرنى أن أكوّن فى خدمتك »
قال ذلك وهو يصلح رداءه على كتفيه وقد بان السيف من تحته
فلما رأت سألته حوله عرفته ، فانقبضت نفسها وخشيت سوء
العاقبة لعلها انه من أكبر جواسيس ميمونة ، واعتقدت ان كل
ما نالها من الشر انما كان على يده . ولكنها لم تكن تجسر على
التصريح بذلك ، فلم تر خيرا من التجاهل والتجلد ، فقالت :
« بورك فيك .. لعلك من أهل هذا المعسكر ؟ »

فابتسم كأنه يهزأ من جهلها وقال : « لا .. ولكنى من معسكر
آخر .. » وضحك ثم قال : « هل تحتاجين الى خدمة أقدمها
لك ؟ .. »

فظلت سألته على تجاهلها ولم تكثرث بما بدا منه فقالت :
« لا غنى لى عن خدمتك ، ولكن أين هو الشاب الذى كان
يخدمنى قبلك ؟ .. »

قال وهو يقلب شفته السفلى استخفافا : « لا أدرى .. ولعله

سار في مهمة الى طليطلة أو بلغاريا .. أو ربما اشتد حنينه الى
أجداده فطار اليهم .. »

فلما سمعت تعريضه بما دار بينها وبين رودريك سرا خفق
قلبها وكادت تظهر البغته في وجهها ، فبالغت في التجاهل وقالت :
« انى أشكرك .. لا أحتاج الى شيء الآن » وأرادت أن ينصرف
فتخلو بنفسها وتفكر في أمرها

فقال لها : « ألا تحتاجين الى شيء أبدا مطلقا ؟ .. ألا تتوق
نفسك الى أحد في بوردو أو نهر لوار .. ؟ »

ففهمت انه يسخر منها وانه مطلع على أسرارها .. ولو أجابته
لسمعت من هزئه ما يؤلمها ، فتحولت عنه وهي تتظاهر بالسذاجة
وقالت : « لا .. لا أحتاج الى شيء .. »

فقال : « اذا كنت لا تحتاجين الى شيء ، فأنا أحتاج الى
أشياء .. »

فالتفت اليه لتستطلع غرضه ، فاذا هو يضحك ويستخف
بها ، ثم قال : « انى أحتاج الى حضرتك .. »

فقطبت جبينها وبدا الغضب في وجهها وغلبت عليها الانفة
وعزة النفس وقالت : « وما هى حاجتك يا غلام .. ؟ »

قال وقد تهيب منظرها : « لا تغضبى ، يامولاتى ، انى أطلب
بما أمرنى به حضرة الدوق .. »

قالت : « وما هو ؟ .. »

قال : « ان تتأهبى للمسير فى اثر هذه الحملة فننزل حيث

ينزلون .. »

ففهمت من صيغة الجمع في كلامه انه سائر معها ، فقالت :
« وهل نسير الآن ؟ .. »

قال : « نعم .. هذه الساعة ، وقد أعددت لك فرسا تركيبه »
قالت : « انى مستعدة اذ ليس عندي أثاث أحمله معى .. »
قال : « فتفضلى اذن .. » قال ذلك وأشار بيده نحو الباب
قالت : « اخرج وأنا خارجة فى اترك » فخرج ..
فالتفت بردائها فوق الخمار ، وتفقدت المحفظة وسائر ما
معه ، وخرجت الى الدهليز ومنه الى الباحة حتى أطلت على
صحن الدار ، فرأت هناك فرسا مسرجا وحوله فرسان مدججون
بالسلاح وفى أيديهم الحراب وعليهم الدروع كأنهم يحرسون
عشرين سجيناً متمردين . فلم تعبأ سالمة بهذا المنظر ، وتقدمت
الى فرسها فركبته وساقته ، فمشى الفرسان حولها فى شبه
حلقة ، وركب الأحول حمارا كان هناك وسار فى أثرهم ..
سارت سالمة فى ذلك الموكب وهى غارقة فى بحار الهواجس
تفكر فيما دهمها على غير انتظار بعد أن كادت تنجو من الخطر .
وفكرت فى رودريك فغلب على ظنها انهم حبسوه أو قتلوه وانها
صائرة الى مثل ما صار هو اليه ، ولم يكن الموت ليخيفها لولا
خوفها من أن يفوت عليها أمورا تود انجازها قبل الموت .. ومن
الناس من تتسلط عليه فكرة القيام بالواجب حتى تنسيه حاجات
نفسه ، فلا يطلب البقاء الا لواجب يقوم به ، فاذا أدى الواجب

أصبح الموت والحياة عنده سواء

قضت برهة في هذه الهواجس حتى تعبت وفرسها سائر بها
الى حيث لا تعلم ، ولكنها كانت ترى الحملة تارة أمامها وطورا
الى جانبها ، فعلمت انها تابعة لها وتبينت من مسيرهم نحو
الشمال انهم يقصدون تورس على نهر لوار . فلما تذكرت ذلك
النهر اختلج قلبها في صدرها وتصورت ما عليها من العهود
والمواثيق المتعلقة بذلك النهر ، وتذكرت أشياء كثيرة زادتها
انقباضا .. وعظم في نظرها الأمر حتى كادت تبكى ، ولو بكت
لخفت حدة انقباضها ..

وفي الغروب وصلت الحملة الى سهل حطوا أحمالهم فيه
للمبيت مؤقتا . وفي الصباح نهضوا لمواصلة السير ، وسالمة
لا يخاطبها أحد في شيء غير ما لا بد منه مما يتعلق بالطعام أو
نحوه . وكانت في أثناء الطريق تتأمل فيما يقع عليه بصرها من
الدروب أو التلال أو نحوها ، وتتفهم ما يدور بين الجند من
الحديث لعلها تطلع على أخبار جند العرب وأين هم .. وكانت
تتفحص الطريق الذي يسيرون فيه عسى أن ترى أثرا يدل على
اجتيازهم ذلك المكان فلم تر شيئا يدل على مرورهم . فترجع
عندها انهم لم يصلوا الى هناك بعد ، مع انها سمعت بقيامهم من
بوردو ، يطلبون بواتيه فنهر لوار .. وكانت على يقين من أنهم
لن يلقوا في طريقهم مقاومة كبيرة لما مهدته لهم . وأما المعركة
الكبرى فستكون على ذلك النهر .. فمن غلب هناك ملك

تورس

وباتوا تلك الليلة أيضا في الطريق ، وأصبحوا مسافرين يجدون في السير . وقضوا يوما رابعا على هذه الصورة وهم تارة ينحدرون في واد ، وآونة يصعدون على جبل ، وحينما يملكون في سهل حتى وصلوا في أصيل اليوم الرابع الى نهر صغير يقال له نهر شير ، تحف به التلال من الضفتين فضلا عن الغياض والبساتين ، فقطعوا النهر من ضفته اليسرى الى اليمنى ، ثم صعدوا أكمام أطلوا منها على سهل واسع ينتهي بمدينة تورس الكبرى ووراءها نهر لوار لأنها واقعة على ضفته اليسرى . وكان الليل قد أسدل ستاره فلم تشاهد سائمة شيئا بعد المدينة عنهم وبعد مسير بضعة أميال من شير ، اختاروا مكانا عسكروا فيه على نيّة الإقامة هناك ، فعلمت سائمة انهم قد حطوا عصا التسيار . فلبثت تنتظر ما يفعلونه بها ، فاذا هي بالأحول المعهود قد جاء ومعه بعض الخدم ، فنصبوا خيمة خاصة على مقربة من فسطاط الدوق أود . علمت ذلك من شكل الفسطاط بما فيه من دلائل البذخ والترف ، فلم يهمها الأمر وقد كادت أن تيأس . وقضوا معظم ذلك الليل في نصب الخيام واعداد مستلزمات الإقامة أما سائمة فأنها دخلت خيمتها فرأت الخادم قد أحضر لها

الطعام ، فتناولته والتمست الراحة فنامت وهي تفكر في رودريك ، لأنها لم تره في أثناء الطريق ولا سمعت عنه شيئاً ، ولم تكن تجرؤ على ذكر اسمه خوفاً من زيادة الشبهة عليه وأفاقت في صباح اليوم التالي على صوت البوق بما لم تعهده من قبل .. فنهضت واستفهمت من الرجل الموكل بحراستها عن السبب فقال لها : « ان الدوق يدعو الجند الى الاجتماع في الساحة الكبرى أمام فسطاطه للصلاة قداساً كاملاً على اسم القديس مرتين حامى حمى الافرنج لأنه مدفون في هذه الجهات وقبره بمثابة حج للنصارى في أنحاء اكينانيا وأوستراسيا » وكانت سالمة تعرف ان القديس مرتين المذكور كان رسول النصرانية الى الغالين في القرن الرابع للميلاد وكان اسقفاً في تورس ، ولما توفى دفنوه في ضاحية من ضواحيها ، وبنوا بجانب قبره كنيسة وديراً وأصبح المكان بلدة تعرف باسمه وصاروا يحجون اليه وينسبون له المعجزات

فلما رأت سالمة اجتماع الجند وكهنتهم في تلك الساحة للصلاة وقفت بباب خيمتها لتشاركهم في صلواتهم ، فاذا بالدوق قد خرج من فسطاطه في حاشيته وأعوانه وكلهم بالملابس الرسمية وقد تقدمهم القسس بالثياب الكهنوتية وبأيديهم الصلبان ، وهم يتمتمون وأمامهم بعض الشماسية يحملون صليباً على عصا طويلة حتى وقفوا في تلك الساحة على شبه منبر، ووجوههم نحو كنيسة القديس مرتين عن بعد والجند وقوف . فأقاموا قداساً

طويلاً ، وكانت القلوب خاشعة يراودها الأمل في النصر على الأعداء ببركة تلك الصلاة

ومن غرائب مطاعم البشر وضعف طبيعتهم انهم يسنون الشرائع بتحريم القتل ، ويشددون النكير على القاتلين ، ثم يرفعون أكف الضراعة الى موحى تلك الشرائع أن يساعدهم على قتل أبناء جلدتهم ، وهم مع ذلك يتوقعون اجابة سؤلهم لاعتقادهم انهم انما يلتمسون نصرة الحق وتأييد الصواب . وكل طائفة تعتقد ذلك وتفعله . ولو أدركوا معنى التدين الحق لطلبوا حقن الدماء وتكاتفوا على حفظ السلام . ولكنهم لا يفعلون ذلك ، وكأنهم أدركوا بالسليقة ان الحرب ضرورية للبقاء ، وانهم لو لم يقتلوا بعضهم بعضا لقتلهم الجوع والوباء لأن الأرض اذا مضى عليها بضعة قرون ولم تحدث فيها الحرب ضاقت بساكنيها . وقد قدروا ان الذين قتلوا بسبب الحروب من أول عهد التاريخ الى الآن خمسة أضعاف سكان الأرض كلها ، عدا ما كان يترتب على بقائهم من التكاثر بالتناسل المتضاعف ..

ومهما يكن من الأمر ، فالحرب باقية ما بقى حب الذات ، وهو باق ما بقى الانسان .. لهذا سعى بعض رجال التمدن الحديث في تخفيف ويلات الحرب بما اخترعوه من آلات الدمار التي لم تكن معروفة في عهود التمدن القديم ..

وكانت سالمة حينما سمعت أصوات المرتلين وشمّت رائحة البخور قد تخشعت واستغرقت في الأفكار وتذكرت تاريخ

حياتها وما مرَّ بها من الأهوال .. ولم يقف فكرها الا عند عبد الرحمن اذ تذكرت ابنتها مريم وكيف تركتها هناك ، وما عسى أن يكون من أمرها بعد انتقال العرب في طريقهم الى تورس . وتذكرت ميمونة فاختلج قلبها لذكرها خوفا على مريم من حبالها ، لما تحققت من أمرها ، وأصبحت شديدة الرغبة في أن تطلع العرب على ما عرفته عنها ، واذا استطاعت ذلك فانها تنقذهم من مكائدها . ولما بلغت تصوراتها الى هذا الحد تذكرت حسنا لأنه لو كان معها لأنفذته في هذه المهمة . واستغرقت في هذه الهواجس مدة والناس يضجون بالصلاة ، والقسس يرفعون أصواتهم بالتراتيل ، ووجوههم متجهة نحو القديس مرتين

وكانت سالمة واقفة تسمع القداس وترسل بصرها الى أطراف ذلك المعسكر وما وراءه من السهول الى نهر لوار ، ومدينة تورس على ضفته وبازائها محلة دير القديس مرتين .. على انها لم تكن ترى من تلك الأماكن الا رءوس الأبنية الشاخنة بعد المسافة ..

وفيما هي تسرح بصرها على تلك الصورة رأت الى يسار المعسكر شبحين ظهرا من وراء الأفق عن بعد . فأطل أولا رأساهما ، ثم ظهر بدناهما بالتدريج فاذا هما فارسان .. فظل بصرها عالقا بهما وشعرت برغبة في استطلاع حالهما ، ثم ما لبثت أن رأت عليهما ملابس الرهبان السوداء وعلى رأسيهما القبعة . فقلت رغبتهما في الاستطلاع لكثرة الرهبان في تلك الأصقاع ،

وكثرة ترددهم على المدن لابتياح حاجات الأديرة . وبعد قليل
رأت الراهبين قد اختلطا بالجند ووقفا معهم للصلاة ، فحوّلت
وجهها عنهما وعادت الى هواجسها فتذكرت الشاب رودريك
وودعت لو أنها تجتمع به هناك ، ولو لم تكن ثمة فائدة من ذلك
الاجتماع .. فانها قد تستأنس به ..

- ٥٦ -

طارقان

ثم سمعت دق الأجراس مؤذنة بالفراغ من الصلاة ، وتفرق
الجند انى مضاربهم ، وعاد أود الى فسطاطه وحوله الحاشية
والأعوان ، ودخلت سالمة خيمتها وحول الخيمة ثلاثة من رجال
أود بالحراب يحرسونها ، ولكنها لم تر الأحول بينهم ولا رآته
منذ ذلك الصباح . وقضت بقية ذلك اليوم فى الخيمة وقلبها
يحدثها بأمر سيحدث ، ويكون فيه الفرج لها ، وان كانت لا ترى
ما يدعو لهذا الأمل .. فكل الظروف المحيطة بها توحى باليأس ..
ولكن فى ذوات الاحساس الدقيق من النساء نوعا من الشعور
لا يعبر عنه بغير الالهام ، فقد تشعر المرأة بالحادث قبل وقوعه
وتنذر رجلها به . ولو طالبها بالدليل لأسكتها لأنها لا تتكلم عن
اقتناع بالبرهان ، ولكنها تشعر فتتحدث عما تشعر به .. ويغلب
صدقها فيه لأسباب لا تزال مجهولة . وأما الرجل فانه لا يتخيل

الا ما يرشده اليه عقله بالقياس والبرهان . فلما أحست سائلة
بتلك الآمال انبسطت نفسها ، ولكنها كانت تغزو ذلك الشعور
الى الوهم لأنها ترى المصائب محدقة بها من كل ناحية

ولما أمسى المساء جلست على بساط مفروش في خيمتها وهي
تشعر بارتباك وتردد ، فعدت الى الصلاة لأنها كانت قد تأثرت
من قداس ذلك الصباح ورأت في الصلاة راحة . وبعد الصلاة
توسّدت وليس في خيمتها مصباح . وهي لم تطلب النوم لرغبة
فيه ، ولكنها ملئت الحبس - ومن يظلم بصره تستر بصيرته -
فاستغرقت في الأفكار ، ولم يكن يعترض تيار تفكيرها غير
ضجيج الخدم في ذهابهم وإيابهم وصوت النفير أحيانا . وبينما
هي كذلك اذ سمعت حديثا قريبا من خيمتها فنهضت والتفت ،
فرأت بصيص نور يتراءى في الخارج وراء جدار الخيمة
وسمعت لفظا لم تستطع فهمه ، فجلست وأصاحت بسمعتها
فانجلى لها الصوت فسمعت الحديث الآتى بلغة البلاد :

— لا أظنك تقدر على منعى

— بل أنا قادر حتى يأمرنى الدوق بما يريد

— وماذا فى هذه المسألة مما يستدعى مشورة الدوق ؟

— بل لا بد من مشورته لأن لهذه السجينة شأننا خاصا

لا يقارن بشئون سائر المسجونين ، وقد أوصانا حضرة الدوق
بمنع أى كائن عن مقابلتها

— يا للعجب ، أبلغت منك القحة أن تقف فى سبيل الفروض

الدينية .. ؟

- لا يهمنى .. وما الذى يضرّك لو استأذنت الدوق فى ذلك ؟
- لا يضرنا شيء ، ولكنكم تعلمون اننا كرسنا حياتنا لاستتابة المجرمين وأصحاب الذنوب واننا نطوف السجون ونعظ المسجونين وندعوهم الى التوبة
- ربما كان ذلك صحيحا ، ولكننا أثمّرنا بالمنع معنا باتا .. ومع ذلك فان لنا قيّما لو كان هنا لأغنانا عن مشورة الدوق لأنه مفوّض من قبلك فى هذا الشأن ..
- أين هو ذلك القيّم ؟ ..
- لا ندرى ، فقد ذهب فى هذا الصباح وأكد التوصية علينا ، وشدد فى منع أى كائن من الدخول
- ارسلوا واحدا يستأذن الدوق
- نخشى أن يكون فى فراشه .. فأجلوا المقابلة الى الغد
- الوقت ضيق لا يأذن بالتأجيل لأننا ذاهبون فى صباح الغد الى دير القديس مرتين .. اذهب لاستئذان الدوق ، ولا تطلّ الجدال .. انى لم ألق وقحا مثلك طول عمرى .. واذا لم تذهب ، فانى سأدخل الخيمة رغم أنفك .. وستلاقى جزاء وقاحتك فى الغد
- (صوت آخر) لا تغضب يا حضرة الأب ، ان رفيقى شاب لا يعرف حقوق السادة الرهبان والقسس .. تفضلا وادخلا ولا حاجة الى الاستئذان ، لكننا نطلب اليك أن تذكرنا فى صلاتك
- بورك فيك يا بنى ، هكذا يكون أبناء الخلاص .. ولكننى

أرغب اليكم أن تبتعدوا قليلا عن جوانب الخيمة لئلا يصل اليكم حديث الاعتراف ، ولا يخفى عليكم ان الاعتراف سر من الأسرار المقدسة ..

— طبعاً .. لاشك في ذلك .. تفضل وادخل ونحن مبتعدون ولكن أرجو من قداستك أن تختصر بقدر الامكان لئلا يبلغ الأمر الى حضرة الدوق فيلومنا على ادخالكم بدون اذنه وكانت سألته تسمع ذلك وقلبها يخفق خفقانا شديدا لدهشتها واستغرابها ، وبذلت جهدها في معرفة ذلك الصوت فلم تعرفه ، ولكنه ذكرها بالراهب الذى صحبتها من الدير الى قرب بوابته لأنه مثل صوته

فلبثت صامته لترى ما ينتهى اليه الجدل ، فلما انتهى على تلك الصورة نظرت لترى الداخل ، فاذا بيده مصباح على شكل طائر ملتفت الى أعلى ، والنور فتيلة مضيئة بارزة من منقاره ، وقد أمسك الراهب ذلك المصباح باحدى يديه على قبضة فى أسفله على شكل صليب ، وتوكأ باليد الأخرى على عكازه .. فلما رآته سألته نهضت وتفرست فى وجهه فاذا هو ذلك الراهب يعينه ، فرحبت به وهمت بتقبيل يديه والصليب الذى هو قابض عليه . وبينما هى تفعل ذلك اذ رأت راهبا آخر دخل وأسرع الى يدها ليقبّلها فأجفلت وتراجعت وقد خجلت ، ولكنها ما لبثت أن تفرست فى وجهه حتى عرفت انه خادمها حسان ، فبغتت وكادت تنطق باسمه لو لم تنتبه لنفسها وتذكر موقفها ..

فتجلّدت وأشارت الى الراهب وحسان بالجلوس وجلست هي والدهشة لا تزال بادية على وجهها ، وهي تتوقع أن تسمع من أحدهما ما يذهب بدهشتها

فوضع الراهب المصباح على الأرض وجلس ، وظل حسان واقفا فأشارت اليه أن يجلس فجلس متأدبا وهو يقول بصوت منخفض : « أحمد الله على وصولي اليك ، يامولاتي ، وأرجو أن أكون قد جئتكم بالفرج »

فهنت سائلة بالجواب وهي تحاذر أن يبدو منها ما تؤاخذ عليه لعلمها ان رئيس ذلك الدير شديد التعصب للفرنجة ويكره العرب ، فلم تكن تتوقع مجيء ذلك الراهب اليها لنصرتها فقالت : « وما الذى جئتني به ..؟ أليس حضرة الأب من رهبان الدير الذى بتنا فيه وبقيت أنت هناك جريحا ؟ »

فأجابها الراهب قائلا : « بلى .. وأنا أوصلتك الى بواتيه حيث أخذوك منى فرجعت وأخبرت حضرة الرئيس بما جرى ، ولولا ذلك لم يكن الاهتداء اليك ممكنا ... »

فلم يزدها قوله افصاحا عن المهمة التى قدما من أجلها ، فالتفت الى حسان وتفرست فى ثوبه فكاد يضحكها ما هو فيه من ملابس الرهبان فقالت له : « يظهر انك انتظمت فى سلك الرهبنة .. ! »

قال : « لبست هذا الثوب يامولاتي ذريعة للوصول اليك ، وقد نصحنى بذلك حضرة الرئيس ، وأرسل معى حضرة الأب

برسالة سيبلغها اليك «
فاشتاقت لمعرفة ما تضمنته تلك الرسالة .. فالتفت نحو
الراهب ولسان حالها يقول : « تفضل .. »

- ٥٧ -

بشرى

ولما همَّ الراهب بالكلام ، تذكرت سألما ما حدث لها في المرة
الماضية مع رودريك ، وكيف اطلع ذلك الأحوال على حديثهما ،
فطلبت من الراهب أن يتمهل ، وأشارت الى حسان أن يتفقد
الحرس وأماكنهم . فأطل من باب الخيمة ومن ثقب في بعض
جوانبها ، فتحقق من بعد الحراس بضعة أمتار عن الخيمة ،
وانهم جلوس يتحدثون ، فعاد وطمأنها وجلس .. فأخذ الراهب
في الحديث بصوت منخفض ، وسألما تنصت وكلها آذان
لاستيعاب كلامه ، فقال :

« لا يخفى على مولاتي انا معشر الرهبان وسائر جماعة
الكليروس قد أوقفنا حياتنا لعبادة الله وخدمة بني الانسان ،
لا نبتغي على ذلك أجرا سوى خلاص نفوسنا . ولذلك فقد
أكرم الأمراء والملوك وفادتنا وساعدونا في مشروعاتنا ، ونحن
أيضا ساعدناهم في حمل الشعوب على الطاعة ، وكثيرا ما كنا
سببا في تنصيبهم وعزلهم ، فأصبح الرهبان موضع ثقة أولى

الأمر ومحل احترامهم ، لا يحلون أمرا دونهم .. ونحن نحافظ على ولائهم ونبذل أقصى الجهد في خدمتهم . وكان الدوق أود (وخفت صوته) من أنصارنا ونحن من أنصاره الا في بعض الأحوال ، ولكننا على الاجمال كنا نغضى عن بعض سقطاته ونعزوها الى الضعف البشرى ، لعلنا اتنا في حال تدعو الى جمع الكلمة في أثناء الحرب . ولو انحرفنا عنه قليلا وأظهرنا استياءنا منه أمام الشعب لقضى على دولته من زمن بعيد ، لأن الشعب الغالى أهل هذه البلاد الأصليين لا يحبون الا فرنج ، وهم مستعدون لخلق نيرهم عند أول اشارة منا . ولكننا لم نفعل ذلك بل كنا نبذل الجهد في حفظ تلك السلطة لهم ، وأظنك لاحظت ذلك من رئيسنا المحترم في أثناء حديثك معه . أما الآن فقد ارتكب الدوق أود أمرا دلا على ضعفه وجبنه ، فلم يبق لنا معه صبر على هذه الحال .. ولعلك عرفت ذلك الأمر .. ! »

فأطرقت سائلة وأخذت تفكر في معرفة ذلك السبب ، ولكن الراهب لم ينتظر جوابها فقال : « ان الأمر الذى أراده الدوق أود اذا وفق اليه فانه سيذهب بسلطانه ، ويضيع كرامتنا ، ويخرب ديارنا ، فيضعف شأن الدين ويصبح الناس فوضى »

فأدركت سائلة غرضه ، فقالت : « أظنك تعنى استنجاهه بالدوق شارل صاحب أوستراسيا ؟ »

قال : « نعم .. هذا الذى أعنيه لأن هذا الدوق من أشد الناس قسوة على رجال الله ، وقد أذاق اكليروس أوستراسيا

مرّ العذاب فاستولى على أملاك الأديرة ووزعها على جنده وأهان الأساقفة وارتكب في ذلك كل معصية . وقد دعاه أود لنصرته ، فاذا فاز أصبحت اكتانيا هذه في قبضته وأصبحت أديرتها عرضة لمطامعه .

« وكثيرا ما كان أود يهم باستنجد شارل ونحن نرجعه ونخوفه على نفسه وعلينا ، فلما تملكه الخوف من العرب وسيوفهم عمد الى الاستنجد بذلك الرجل . وقد وقع هذا الخبر وقعا سيئا عند أهل هذه البلاد كافة ، كهنتها وشعبها ، لعلمهم بما سترتب على هذا الأمر »

وكان الراهب يتكلم ، وقلب سالمة يطفح سرورا ، وتذكرت ما كانت تحدثها به نفسها في أثناء ذلك النهار ، واعتقدت انها ألهمت الصواب وان الأمر أخذ ينقلب على الاقرب من تلك الساعة ، ولكنها ظلت صامته لتسمع بقية الحديث

ولم يتوقف الراهب عن الكلام الا ريثما سعل ومسح لحيته بمنديله ثم قال :

« وكان من أشد الناس غضبا لذلك رئيسنا المحترم لأنه كان من أكثرهم ولاء لأود ودفاعا عن مصلحته ، فلما علم بما ارتكبه أصبح شديد الرغبة في عرقلة مساعيه لاعتقاده انه اذا نجح في ذلك يكون قد خدم شعبه وحكومته وكنيسته . والظاهر انه كان قد لاحظ من كلامك نصرة العرب أو ربما جاءه كتاب من أسقف بوردو في هذا الشأن .. لا أدري .. ولكن الذى أعلمه

انه بعث الى ذات صباح وسألني عنك مع أني كنت قد أنبأته يوم عودتي بما جرى أمام باب بواتيه ، ولكنه دقق في البحث عنك وسألني عن الرجال الذين أخذوك مني .. فأخبرته انهم من رجال الدوق أود فhez رأسه ومص شفته وأمرني أن أستقدم هذا الشيخ ، وكان قد أخذ في النقاهاة من جرحه ، ولم أخبره بعد بخبرك لئلا أكدره . فلما أمرني الرئيس باستقدامه سرت اليه وقصصت عليه خبرك فتكدر ، ثم أتيت به الى الرئيس . فلما وقف بين يديه ، أمرني فأغلقت الباب فأسرء اليها أمرا كلفني أن أبلغك اياه .. ولا ريب انه يسرك لأنه يهدف الى الغرض الذي تسعين اليه .. فهل أقوله ؟ .. «

فقلت : « أتسألني ؟ .. قل .. »

قال : « لقد أعطاني كتابا كتبه بخط يده الى رئيس دير القديس مرتين ، لا أدري فحواه ، ولكنه بلا شك يتضمن تحريضه على مقاومة شارل وجنده حتى لا يفوزوا على العرب ، أو لكيلا يحاربوهم لأن رئيسنا أصبح يفضل سلطان العرب على سلطان شارل وزمرته لما تحققه من رفق المسلمين برعاياهم المسيحيين فنأمن — على الأقل — على أديرتنا وكرامتنا »

فلم تتمالك سالمة عند سماع تلك العبارة عن الابتسام من شدة الفرح ، ونسيت كل ما مرَّ بها من المتاعب ، وتحققت أن كل ما أصابها من الشرور إنما كان القصد منه الوصول الى هذا الخير، وأن ذلك كله حدث بعناية خاصة من مدبّر هذه الكائنات.

ذلك هو اعتقاد أهل الأديان . والانسان بفطرته ميال الى ذلك ، فيحسب ان الدنيا قد وجدت لخدمته وحده ، فاذا زرع وأمطرت السماء قال : انها تمطر اكراما له ، واذا جفت فجفافها نكايه فيه . ولذلك فاذا أصابته مصيبة وان كان هو الجاني بها على نفسه شكا من فاعل آخر يتبع خطواته .. اذا لم يسمه الخالق سماه الدهر أو الزمان . فلما توسمت سالمة قرب نجاح مهنتها ، ابتسمت ونالت للراهب : « وأين الكتاب ؟ .. »

فمد يده الى كفه وأخرج لفافة دفعها اليها فتناولتها ، فاذا هي مختومة ، فوضعتها في جيبها وهي تقول : « وما هو السبيل الى دير القديس مرتين وحولى الحراس ساهرون ليلا ونهارا ؟ .. ألا يقوم بايصال هذا الكتاب أحد بالنيابة عنى ؟ .. »

فقال الراهب : « لا يستطيع ذلك أحد سواك لأنه فى الواقع كتاب توصية بك ، وقد ترك لك اقناع الرئيس . وأوصانا رئيسنا - حفظه الله - أن نبذل أقصى الجهد فى سبيل انقاذك من هذا السجن ، فما الذى تريه ؟ »

قالت : « لا أدري .. وأظن ان حضرة الرئيس قال ذلك وهو لا يعلم مقدار التضيق المحقق بى فى هذا السجن ، وقد شاهدتم ذلك بأنفسكم الآن وسمعتهم أقوال الحراس .. فهل ترون حيلة لى ؟ .. »

- ٥٨ -

شهادة

وكان حسان لا يزال صامتا الى تلك الساعة ، فلما رأى
 حيرتهما قال : « علىّ أنا تدير هذا الأمر .. »
 فالتفتا اليه وهما لا يتوقعان منه القدرة على ذلك ، فأصاخا
 بسمعهما اليه وقالت سالمة : « وما هو التدير ؟ .. اذا كنت ترى
 تديرا خاصا ، فليكن عاجلا »
 قال : « علىّ تدير ذلك فى هذه الساعة »
 قالت : « وكيف ؟ .. »

فوقف حسان وعمد الى جبة الرهبنة التى كانت عليه فحلّ
 حبلها من حول خصره ، وطوقها من حول عنقه ، وأخذ فى نزعها
 وهو يقول : « عليك بهذه الجبة .. فالبسيها فوق ثيابك واجعلى
 هذه القبعة على رأسك وهى تقفل من الجانبين فتغطى الوجه ،
 واليك هذا العكاز .. واخرجى مع حضرة الراهب ، فلا يشك
 أحد فى انكما الراهبان اللذان دخلا الآن . ومتى بعدتما عن
 المعسكر فافعلا ما تريانه ... »

فأعجب الراهب بتلك الحيلة اللطيفة ، ودهش لشهادة حسان
 اذ فضّل أن يلقى بنفسه الى التهلكة فداء لمولاته . أما سالمة ،
 فانها لم تدهش لذلك ، وأثنت على حسان فقالت : « لا أستغرب



« قال حسان : عليك بهذه الجبة فالبسيتها فوق ثيابك ،
واجعلي القبعة على رأسك، واليك هذا العكاز واخرجي مع الراهب »

هذه الشهامة يا حسان ، فقد رأيت منك مثلها مرارا ولكنى ضئيلة بك لسابق تعبك ، وقد دنا الوقت الذى آن لى فيه أن أكافئك على جهودك فى خدمتى منذ أعوام عديدة .. وخصوصا الآن فقد كنت راغبة فى لقاءك لأبشرك بأمر يسرك كثيرا .. ولا أستطيع أن أخبرك به الا اذا كنا معا ، وأخشى اذا افترقنا الآن ألا نلتقى .. « فتوقف حسان عن خلع الجبة وتناول بعنقه وقال : « أخبرينى عن ذلك الآن قبل أن تفرق .. »

قالت : « عندى أمور كثيرة أقصها عليك وأستطلع رأيك فيها وسأحتاج اليك فى تنفيذ بعض الشئون .. » قال : « وهل تظنين ان فى بقائى هنا خطرا على ..؟ اطمئنى وثقى انكما لا تخرجان من هذا المعسكر حتى ألحق بكما .. » قالت : « أظنك اذا اطلعت على ما سأقصه عليك تفضل البقاء هنا بضعة أيام .. ! »

فلم يعد حسان يستطيع صبرا عن سماع ذلك الخبر فقال : « أخبرينى ، يامولاتى ، بما علمت مما يهمنى سماعه ، أو مرينى بما تريدن ثم تناوول — قبل ذهابك — فيما تأمرين .. » ثم اتبعت سالمة الى نفسها فرأت ان الأجدر بها أن تغض النظر عن اطلاع حسان على ما يشغله أو يؤخره فى ذلك المعسكر والحالة تدعو الى سرعة ارساله الى عبد الرحمن لتخبره بما علمته من شأن ميمونة وما فى معسكر الافرنج من المعدات ، وما كان من استنجاد أود بشارل وغير ذلك مما يؤول الى نصره العرب ، فلما

رأت من حسان القلق على استطلاع الخبر قالت : « ان الوقت لا يساعدنا على ذلك يا حسان ، واني أفضل أن أبقى أنا وتذهب أنت برسالة أبعثها معك الى أمير العرب ، فان الحالة تدعو الى سرعة الذهاب والا ضاعت الفرصة وذهب سعينا هباء منثورا . فأطعني واذهب أنت ولا بأس على من البقاء هنا .. »

قال : « الأمر لك يا مولاتي ، ولكنني لا أرى شيئا أدعى الى العجلة من اطلاق سراحك لمقابلة رئيس دير القديس مرتين وعرقلة مساعي الدوق شارل القادم لنجدة هذا الجند ، ومتى تمّ لنا ذلك نذهب بالبشائر الى الأمير عبد الرحمن دفعة واحدة »

قالت : « ولكن الأمر الذي أطلب ابلاغه الى عبد الرحمن الآن أهم كثيرا من خبر دوق أوستراسيا .. »

فاستغرب حسان ذلك وقال : « وهل هو أهم من خبر هذا الدوق وهو قادم لنجدة أود بجيش جرار معه العدة والسلاح فضلا عما عثرف به شارل من البسالة والقوة ؟ »

قالت : « اني أخاف على جند العرب من عدو مقيم في قصر أميرهم وهم يحسبونه صديقا ، وقد اكتشفت سرّه في أثناء اقامتي في هذا الأسر ولم يكن استتجاد شارل الا برأيه .. فاذا لم نبادر الى كشف سره استفحل أمره ... »

- ٥٩ -

أول الأسرار

فبغت خسان لذلك ، وصدق بعينيه ، وقال : « من هو ذلك العدو يامولاتى هل تخبريننى ؟ .. قولى الآن ولا تخافى من وجود حضرة الراهب معنا فانه صديق مخلص لنا فى نصرتنا أو تكلمى بالعربية فانه لا يعرفها .. قولى من هو ذلك العدو ؟ . »

قالت : « هو ميمونة .. أو بالحرى تلك المرأة الداهية التى سميت نفسها ميمونة وما هى الا ملعونة .. »

قال : « ولم تكن هذه المرأة مجهولة لدينا ، فقد شاهدناها غير مرة .. فما الذى عرفته من أمرها هنا .. ؟ »

قالت : « لم أكن أجهل أمرها منذ رأيته فى معسكر عبد الرحمن للمرة الأولى ، ولكننى أجلت كشف أمرها ريثما أعود من مهمتى هذه ، وخشيت ان أنا بحت بشأنها أن يودى ذلك الى أن تصرح بحقيقة أمرى ، وأنت تعلم اننا لا نريد ذلك الآن . وان كان اطلاع عبد الرحمن على حقيقتى لايزيده الا اكراما لى ، ولكننى مقيدة بالعهود والمواثيق ان لا أطلع أحدا على شئ قبل عبور هذا النهر (وأشارت الى نهر لوار) . ولو علمت ما قد يترتب على سكوتى عنها لما صبرت على كتمان أمرها ، وأما الآن فلا بد من كشف سرها لعبد الرحمن على عجل .. »

قال : « وما هو شأنها يامولاتى ، هل يجوز لى الاطلاع على هذا السر ؟ » قال ذلك وجثا بين يدى سائلة وحملق بعينيه فقالت : « هل أخفى عنك سرا وأنت تعلم انك خزانة أسرارى ، بل أنت الرجل الوحيد المطلع على حقيقة حالى عدا الكونت أود صاحب هذا المعسكر ، فانه عرفنى وهددنى ثانية ولكنه شغل عنى أو أجّل النظر فى أمرى ، لأنه أمن جانبى لاعتقاده انى سجينته حتى يشاء .. لست أخفى عنك سرا يا حسان ، اعلم ان المرأة التى يسمونها ميمونة وتعد نفسها من محظيات عبد الرحمن وتتقرب إليه بجمالها ومكرها ، انما هى لمباجة بنت الدوق أود صاحب هذا الجند .. »

فلما سمع حسان قولها بغت وانتفض واقفا ، ثم قال وقد بحّ صوته من محاولة تخفيضه مع تهيج عواطفه وبغته : « بنت الدوق أود هذا ؟ .. قائد هذا المعسكر ؟ .. »

قالت : « نعم .. هى بعينها وأظنك تعرفها انت وقد رأيتها غير مرة وهى مع زوجها المقتول .. ألا تعرف المنذر الافريقى الذى كان حاكما فى بلاد البيرينة بين اسبانيا واكتانيا ؟ » قال : « نعم أعرفه وبلغنى ان الأمير عبد الرحمن الغافقى لما قام بجنده لفتح هذه البلاد ، بلغه ان المنذر هذا متواطىء مع الافرنج على حساب العرب ، فسار اليه بغته وقتله واستولى على أمواله ونسائه وبعث بها الى الخليفة فى دمشق » (١)

(١) راجع تفصيل ذلك فى اول هذا الكتاب

قالت : « هل تعلم السبب الذى حفزه على مواطاة الافرنج
ضد العرب ؟ .. »
قال : « كلا .. »

قالت : « ان الدوق أود علم بما بين العرب والبربر من
التحاسد لأسباب لا تخفى عليك ، وبلغه ان المنيدر البربرى
المذكور صاحب نفوذ كبير فى قبائل البربر وانه اذا اكتسب ثقته
واسترضاه يكون عوناً له على العرب ، فاتصل به وأفضت المحادثات
بينهما أن يتزوج المنيدر من لمباجة ابنة الدوق أود ، وقد رضى
أود أن يزف ابنته الى هذا البربرى على أمل أن تكون وهى
عنده قابضة على زمام ارادته تستخدمه فيما تريده لمصلحة
والدها ، وهى مشهورة بالجمال والدهاء . وبعد أن أقامت مع
زوجها المذكور مدة وهى تدبر الحيل لتطوح بدولة العرب نهض
الأمير عبد الرحمن وعرف الخطر الذى يحدق بالعرب من ذلك
الأمير فبغته وقتله .. »

قال حسان : « نعم .. سمعت ذلك من قبل وسمعت أيضا
ان امرأة أخذت فى جملة الغنائم والأموال الى دمشق لتكون
للخليفة .. »

قالت : « وقد أشاعوا ذلك زورا وبهتانا ، فالظاهر أن الزوجة
ألبرت احدى نسائها ثيابها وأوهمت ان تلك لمباجة ، وانما هى
من بعض خدمها وسراريها لتبقى فى معسكر عبد الرحمن عينا
لأبيها على العرب وحركاتهم ، وقد تحققت من أنها هى التى

كتبت الى أبيها أن يستنجد بشارل دوق أوستراسيا ، ولم يكن
ليقدم على ذلك من تلقاء نفسه حينئذ من رجاله ورعاياه ، فأغرته
هى بما لها من النفوذ عليه فاستنجد به .. ومما يخيفنى من أمرها
أن الأمير عبد الرحمن يثق بها ، ويفضى اليها بأسراره ،
ويستشيرها .. فهل من خطر على جند العرب أعظم من هذا ؟ »
فقال حسان : « كلا يامولاتى .. فينبغى أن أذهب بهذا
الخبر الى الأمير سريعا ، فهل تكتين كتابا أحمله اليه حالا ؟ »
قالت : « ولا بد قبل كل شيء أن نخرج من هذا السجن
ومتى خرجنا يهون علينا كل أمر عسير .. »

- ٦٠ -

الجوزة الكبيرة

وكان الراهب أثناء ذلك الحديث واقفا يتشاغل بالمشى فى
أرض الخيمة ويتطلع من بعض شقوقها وثقوبها الى الخارج
وكأنه رأى أمرا بغتة فأسرع الى سالمة وهى تقول ذلك وقال
لها : « أظننا أطلنا الكلام حتى قلق الحراس ، اتنى أراهم فى
هرج ، يتشاورون ويتهامسون ، وأخشى أن يكون فى ذلك
خطر علينا .. »

فقال حسان : « عليك بهذا الرداء يامولاتى فالبسيه واخرجى
مع حضرة الأب ، وغادر المعسكر ، وسأتبعكما سريعا ..
والملتقى على ضفة نهر شير عند الجوزة الكبيرة التى جلسنا

تحتها بالأمس يا حضرة الأب » قال ذلك وألبس سالمه عباءة
الرهبان وجعل على رأسها القبعة وأعطاه العصا وأشار إليها
بالخروج على عجل ..

فتنحى الراهب وقرع بعصاه عمود الخيمة وسعل وخرج من
الخيمة وسالمه في أثره .. فلما أطلَّ على الحراس تظاهر باشتغاله
برسم الصليب والصلاة ثم رفع يده كأنه يباركهم ، فأحسوا
رءوسهم جميعا ونزعوا قبعاتهم اجلالا واحتراما ولم يجرؤ أحد
على الاقتراب منهما لما لاحظوه من اشتغالهما بالصلاة متممة .
وكانت سالمه تمشي وركبتها ترتعدان ليس خوفا على حياتها
ولكنها استنكفت الفرار خلسة والتكر بملابس الرهبان . ولما
بعدا عن المعسكر واطمأنا على نفسيهما اشتغل بال سالمه على
حسان ، وخشيت أن يقع في الأسر

سارا في المعسكر، وهما في زى الرهبان ، والحرس لا ينتبهون
لهما ، وأكثر الجند نيام ، الى أن خرجا من بين الخيام .
وكانت سالمه تمشي وتلفت يمينا وشمالا ، ثم تلتفت الى ورائها
لعلها ترى حسانا قادما ، وقد ندمت على تركه في تلك الخيمة
لأنه أقدر منها على تحقيق ما تطلبه في تلك الساعة .. وكان الظلام
مخيمًا ، لا يريان مما يحيط بهما غير الأشجار العالية اذا اعترضت
بينهما وبين الأفق ، وكانت سالمه تمشي في أثر الراهب أينما
مشى لأنها لا تعرف مكان تلك الشجرة

وبعد مسير ساعة ، وهما صامتان ، التفت الراهب الى سالمه

وقال : « قد أصبحنا على مقربة من الجوزة ، يامولاتى ، وهذه رءوس أغصانها » وأشار بيده الى الأمام ، فالتفت فلم تر شجرا ولكنها رأت أغصانا متفرقة تتراءى فى الأفق فعلمت ان الشجرة فى منخفض وانها ترى رءوس أغصانها . ثم رأت شجرا يظهر بجوار تلك الأغصان رويدا رويدا كأنه قادم من وراء أكمة نحوهما ، فتفرست فى ذلك الشبح حتى بدا كله ودنا منهما ، فاذا هو بملابس جند الافرنج .. ولما اقترب منهما اختلج قلبها فى صدرها لعلها انه عدلان الأحول ، فاستعادت بالله منه وخافت على حسان من دهائه .. أما هو فظل ماشيا لا سلام ولا كلام ، فسرّت سائلة بذلك . وبعد قليل وصلا الى قمة التل فشاهدت سائلة وراءه شجرة هائلة تظل سحلا واسعا ، فانحدرا نحوها وجلسا تحتها ، وأمامهما عين ماء تصب فى منحدر ، تحته واد يجرى فيه نهر شير . وكانت سائلة قد تعبت من المشى والقلق فجلست على حجر ناعم أملس ، من كثرة ما لامسه من الأيدى بمرور الزمن ، وكانت تلك الشجرة مهبطا للمسافرين هناك ولما جلسا قالت سائلة للراهب : « انى خائفة على حسان ولا أظنه يستطيع الخروج من ذلك المعسكر ، واذا كان لم يخرج الآن ، فانى لم أعد أرجو خروجه »

قال : « وكيف ذلك ؟.. اذا لم يخرج الآن يخرج بعد ساعة أو ساعتين ويكون الحرس نياما »

قالت : « لا أخاف عليه من الحرس ولكننى أخاف عليه من

هذا الرجل الذى رأيته مارا بنا وهو الذى وشى بى حتى قبضوا علىّ . ولو لم يكن غائبا الليلة عن المعسكر ما انطلقت حيلتكم على الحرس ... »

قضايا مدة فى مثل ذلك وسألمة تعد اللحظات وتحسب الساعة يوما من شدة القلق ، ثم سمعا وقع أقدام مسرعة فالتفتا فرأيا شبعا يعدو نحوهما فلم تشك سألمة انه حسان ، فلما اقترب منها ارتعدت فرائصها من منظره لأنه كان عارى الصدر والذراعين مكشوف الرأس ، وقد نبش شعره وأرسله على وجهه حتى أصبح منظره كمنظر الجان أو الشياطين على ما كانوا يصفونهم فى ذلك العصر . ولم تكد سألمة تتبين ملامح وجهه ، حتى سمعته يقول : « لا تخافى ، يامولاتى ، أنا حسان » فاطمأنت ، وصاحت فيه قائلة : « ويلك .. ما هذا العمل ؟ » قال : « لولا هذه السحنة ما نجوت من الأسر .. فعندما تحققت انكم بعدتم عن المعسكر ، تعرّيت كما تريان ، ونبشت شعرى ، وخرجت من الجانب الخلفى للخيمة أعدو على يديّ وقدميّ ، وأصيح صياح الشياطين . فأجفل الحرس من حولى وتفرقوا لاعتقادهم انى شيطان ، ولم يرجع اليهم رشدهم ويفطنوا الى الحيلة حتى صرت خارج المعسكر . ولكننى التقيت هناك برجل أظنه عدلان البربرى الأحول وقد رآنى ولم يعرفنى . هل شاهدكما هنا ؟ .. »

قالت : « رآنا ولم يعرفنا .. »

فقال : « لا بد لنا اذن من تغيير هذا المكان .. اعطوني العباءة أولا » ..

فأعطته سائلة العباءة فلبسها وهو يقول : « هلم بنا نذهب من هنا ، فان هذا البربرى الشرير لا يلبث أن يصل الى المعسكر ويعرف بأن الراهبين تمكنا من مساعدتك على الفرار حتى يأتى الى هذا المكان بالجند ، ولا طاقة لنا بالحرب » ..

فقال الراهب : « هذا هو الصواب .. فلنمض اذن الى دير القديس مرتين ، فاثنا نستطيع أن نبغعه قبل الصباح فنصير هناك فى مأمن ، واذا أردت ارسال حسان بعد ذلك افعلنى ، وربما أرسلنا معه من يهديه الى الطريق »

- ٦١ -

دير القديس مرتين

فاستحسن الرأى ونهضت ، فمشوا فى طريقهم الى الدير والراهب دليلهم فوصلوا اليه عند الفجر وقد أخذ التعب منهم مأخذا عظيما فأطلوا على حلة أشبه ببلد صغير ، وفى وسط البلد بناء شامخ محاط بسور عال مثل سائر الأديرة هناك ، ولكنه أفخمها جميعا ، ومحيط السور هائل يحسبه الناظر سور مدينة لسعته وارتفاعه . وكان دير القديس مرتين مشهورا فى اkitانيا وأوستراسيا وسائر أوربا بالغنى والثروة لكثرة ماحواه من الآنية

الذهبية والفضية ، غير الأموال المدخرة في خزائنه من الهبات والنذور ونحوها . وكانت سالمة تسمع بذلك الدير ولم تدخله بعد ، فلما أطلت عليه تركت للراهب أن يتصرف في كيفية الدخول . فاذا به تقدم الى الباب ، وهو كبير على خلاف أبواب سائر الأديرة ، فأمسك بحبل مدلى هناك وشده فدق الجرس دقة خاصة . وبعد هنيهة أطل أحد الرهبان من برج فوق الباب ، فكلمه الراهب رفيق سالمة باللاتينية فأسرع ذاك الى الباب وفتحه ورحب بالقادمين . فدخل الراهب وسالمة من باب آخر وراءه ، فأطلا على فناء واسع أشبه شئ بالحديقة ، وفي وسط الفناء بناء كبير هو الدير ، وبجانبه بناء آخر عرفا من قبه والصليب في أعلاها انه كنيسة القديس مرتين

وكان حسان سائرا في أثرهما ، وهو لا يزال بمظهره الغريب ، فأمره رفيقه الراهب أن يمكث عند الباب ، وأشار الى البواب أن يبقيه عنده ريثما يطلبانه .. فمكث هناك وظلت سالمة والراهب سائرين والراهبان يتخاطبان باللاتينية ، فلم تفهم سالمة من حديثهما الا قليلا ثم تكلم راهبها بالفرنجية قائلا : « ان حضرة السيدة قادمة بكتاب الى حضرة المحترم رئيس هذا الدير فهل هو هنا ؟ »

قال : « أظنه لا يزال في عبر النهر عند دوق أوستراسيا الا اذا كان قد دخل الدير من بابه الآخر المشرف على هذا النهر » قال : « ومتى قطع النهر ؟ »

قال : « قطعه قبل الأمس على حين غفلة »

قال : « وما الذى دعاه الى ذلك ؟ »

وكان الراهب يتكلم وهو يمشى فى الحديقة بين أشجارها ويتفرس فى طرقها كأنه يفتش عن أحد ، فلما أفضى بهم الحديث الى هنا كانوا قد وصلوا الى مقعد من الحجر بجانب الكنيسة ، فأشار الراهب الى سائلة بالجلوس وجلس هو ، ونور الصباح أخذ فى الاشرار ، وقد تطايرت العصافير وانطلق النسيم فاختلط حفيف الأشجار بتغريد الأطيار .. فكان لذلك تأثير شديد على سائلة بعد أن قاست ما قاسته من التعب والقلق طول الليل الماضى . وأحست بالنعاس ، ولكن حواسها تنبهت لسماع حديث الراهبين لتعرف سبب خروج الرئيس من ديره على غرة ، فسمعت الراهب يقول : « ان الذى دعا الى ذلك الخروج يا أخى أمر جديد كهانا الله شره »

فقال الراهب : « وما هو ذلك الأمر لا سمح الله ؟ »

قال : « ألم تسمع بمجىء الدوق شارل صاحب أوستراسيا

بجيشه الجرار ؟ »

قال : « سمعت انه قادم ، فهل وصل ؟ »

قال : « نعم يا أخى .. وصل منذ أيام وهو الآن على الضفة

اليمنى ، وحالما وصل بعث الى حضرة المحترم رئيس ديرنا أن

يوافيه الى هناك على عجل فلم يسعه غير الطاعة »

قال : « وما الذى يبتغيه منه وليس عنده جند ينجده به ؟ »

قال : « يظهر !نك تجهل حال هذا الدوق مع رجال الله
والكنائس والأديرة .. »

قال : « أعرف عنه قليلا .. »

قال : « ألا تعرف طمعه في أموال الكنائس وأرزاقها .. وهل
فاتك ما ارتكبه من الظلم مع اكليروس أوستراسيا .. ؟ »
قال : « سمعت بعض الشيء .. وأخشى أن يفعل مثل ذلك في
كنائسنا هنا »

قال : « وهذا الذي نخشاه نحن .. »

وبينما هما في ذلك ، اذ سمعا قرع الجرس .. فبغت راهب
الدير ووقف الباكون وهم يحسبون الجرس يقرع للصلاة ،
ولكنهم رأوا الكنيسة لاتزال مغلقة وقد تقاطر الرهبان من كل
ناحية نحو طرقة من طرقات الحديقة تؤدي الى سور الدير من
جهة النهر ، فظلت سالمة وراهبها واقفين بجوار المقعد ينتظران
ما يكون . ولم يمض قليل حتى رأيا جماعة من الرهبان عائدين
وفي مقدمتهم راهب بملابس خاصة ، يمتاز عن الباقيين وعلى
رأسه قلنسوة خاصة ، فعرفت سالمة انه الرئيس وقد عاد من
مهمته التي ذهب لأجلها الى شارل .. فاستغربت رجوعه في
ساعة مبكرة ، وتفرست فيه عن بعد فرأته ماشيا وحوله الرهبان
والجميع سكوت تهيبا مما في وجهه من مظاهر الغضب ..
وكان ذلك الرئيس كهلا كثيف اللحية قد وخطه الشيب في
أواسط لحيته من مقدم الذقن ولا يزال الباقي حالكا ، وكذلك

شاربه فانه كان غليظا كثيفا .. وكانت عيناه كبيرتين براقيتين ، فوقهما حاجبان عريضان ومنظره فى الجملة وقور مع جلال ، وقد زاده الغضب هيبه ووقارا حتى ألجم الرهبان كافة عن الكلام . فتوسمت سالمة من ذلك الغضب خيرا .. ولما دنا من الدير أسرع رفيقها الراهب الى يده فقبلها وهو جاث وقبعتة بيده ، ففعلت سالمة مثله ثم تنحى الجميع ودخل الرئيس من باب الدير وتبعه جماعة الرهبان وعلى وجوههم علامات الدهشة ، ولا يجسر أحد على الكلام الا همسا ..

فظلت سالمة وراهبها يتربعا . فرصة تسمح بدخولهما على الرئيس ، وكانت سالمة تفضل الدخول عليه وحدها ومعها الكتاب . وبعد هنيهة جاء الراهب الذى كان قد استقبلهم من باب السور وقال : « هذا هو الرئيس قد عاد فما الذى تريدانه؟ » قالت سالمة : « أريد أن أحظى بتقيل يديه ومعى كتاب أريد تقديمه اليه » ..

قال : « وأين الكتاب ؟ »

فمدت يدها وأخرجته من جيبها ، ودفعته اليه مختوما فتناوله ودخل ثم عاد ودعا سالمة للدخول وحدها ، فسرعت لذلك ومشيت وهى تعد فى ذهنها ماستلقية على الرئيس لعلها ان رئيس دير القديس مرتين يمتاز عن سائر رؤساء الأديرة بعلو منزلته وغنى ديره .. فدخلت فى دهليز انتهت منه الى باحة رأت فيها الرهبان متزاحمين يذهبون ويحيثون كأنهم فى شغل عظيم وقد

تسربوا أزواجاً وأثلاثاً . فلما رأوها وسعوا لها الطريق ، فمشى والراهب يتقدمها حتى وصلت الى غرفة الرئيس وعلى بابها ستار شقه الراهب بيساره وأشار الى سالة يمينه أن تدخل ، فدخلت الى قاعة مفروشة بالبسط وعلى جدرانها صور بديعة الصنع تمثل أهم حوادث النصرانية . وفي صدر القاعة صورة القديس مرتين بالحجم الطبيعي الكامل .. ورأت الرئيس جالسا على مقعد في صدر القاعة تحت تلك الصورة . فلما دنت منه جثت وقبلت يده فأنهضها وطلب مقعدا أجلسها عليه ، والكتاب لا يزال بيده وقد تبسم ترحابا بالقدمة والغضب لا يزال باديا في عينيه

- ٦٢ -

أمل جديد

فجلست سالة متأدبة والخمار يجلل رأسها ، وثوبها الأسود يزيد لها كمالا ورزانة ، وظلت صامتا احتراما للرئيس . أما هو فأعاد نظره الى الكتاب وتفرس فيه كأنه يقرأه ثانية ، ثم قال : « ممن هذا الكتاب ؟ »
 قالت : « ان خاتم صاحبه فيه »
 قال : « لا أرى خاتما ولكننى عرفت من خطه .. هل أنت سالة ؟ .. »
 قالت : « نعم يامولاي ، انى أمتك سالة »

قال : « العفو يا أختي كلنا عبيد ربنا ومخلصنا .. ما الذى تريدينه منى الآن ؟ .. »

قالت : « لا أريد إلا ما تريده قداسكم وليس لى رأى بعد رأيكم » ..

فابتسم غضبا وقال : « لا حاجة بنا الى المجاملة والتردد .. لقد جئتني لأمر يقول أخى رئيس دير .. انه يهمنى ويهمه وان عليه يتوقف مستقبل الكنيسة فى اكينانيا فتفضلنى بما تأمرين » قالت : « انى خاطئة لا أسحق هذه العناية ، ولكننى كنت قد خاطبت كاتب هذا الكتاب فى شأن دافعى فيه وأنكره على » ولكنه ما أن سمع بقدوم الدوق شارل الى هذه البلاد حتى استصوب رأيى .. فهل أعجبك حضرة الدوق بمجيئه .. ؟ اصفح عن جرأتى فى هذا السؤال لأن عليه يتوقف حديثى »

قال : « صدقت يا ابنتى ان هذا السؤال لايجسر أحد من رهبانى أن يسألنى اياه ولكنك جئت فى وقت أجيز لك فيه هذا السؤال ، وفى كلام أخى الرئيس صاحب هذا الكتاب ما يحملنى على الثقة بك .. فأقول انى وجدت الدوق شارل خطرا على الكنيسة فى اكينانيا »

قالت : « وهذا الذى رآه هو ، وأراد أن أكون الواسطة فى عرض طريقة أرجو أن تعود بالنفع على الكنيسة وأهلها .. » قال : « وما هى طريقتك ؟ »

قالت : « هل تعد الدوق شارل مسيحيا حقا ؟ »

قال : « هو يزعم انه مسيحي ، ولكن أتى له ذلك وهو يحلل ما حرّمته الكنيسة .. كنا نسمع عنه أموراً لم نكن نصدقها لغرابتها حتى سمعناها من شفّيته » . قال ذلك وقد تجدد غضبه ثم قال : « كنا نسمع انه أخذ أموال الأديرة وأساء الى الاكليروس ، وكنا نستغرب ذلك منه حتى دعاني بالأمس اليه وبدلاً من أن أسمع منه تملقاً وتزلفاً لشدة حاجته اليّنا في كل شيء سمعت منه تهديداً ووعيداً »

فأشرح صدر سألته لهذه الشكوى ، واستبشرت بتحقيق أمنيّتها ، ولكنها أظهرت الدهشة ، وقالت : « تهديد ووعيد ؟ ولماذا ؟ ألعنكم عصاة ؟ .. »

قال : « كلا يا ابنتي ولكنه كلفني أمراً لم أوافق عليه كما أراد .. دعاني وطلب اليّ أن أدفع ما في صندوق هذا الدير من الأموال عاجلاً لأنه يحتاج اليها في الحرب ، ثم عرض بفضله علينا في هذه الساعة لأنه سيدفع عنا العرب .. سامح الله الدوق أود ما أضعف قلبه .. انه سيجر علينا البلاء مضاعفاً باستنجاذه بهذا الرجل المستبد .. »

فأظهرت سألته الاهتمام وقالت : « في الحقيقة ان الخطأ الأكبر من الدوق أود ، فقد أضاع استقلاله وجرّ البلاء على الكنيسة .. وما الذي يظنه مولاي الرئيس في هؤلاء العرب ؟ » قال : « هم أعداؤنا وأعداء ديننا ! »

فابتسمت بلطف وقالت : « اسمح لي يا حضرة الرئيس المحترم

أن أعترض على هذه التهمة ... هل رأيت العرب أو عاشرتهم ؟ »
 قال : « كلا .. ولكننى سمعت عنهم شيئاً كثيراً .. سمعت
 أنهم يعبدون الأصنام وأنهم اذا نزلوا بلدا نهبوا كنائسه وسبوا
 نساءه وخرّبوا منازل أهله ... »

قالت : « ألا تصدق امرأة عاشرتهم أعواما ؟ »
 قال : « هل عاشرتهم كثيراً ؟ .. وأين ؟ .. وما هى علاقتك بهم
 وأنت من أهل هذه البلاد على ما يظهر ؟ .. »
 قالت : « فليسمح لى مولاي أن أجيب على أسئلته بما فى
 استطاعتى .. لقد عاشرت هؤلاء العرب أعواما فظهر لى أنهم أهل
 ديانة مثل دياتتنا ، يعبدون الله مثلنا وهم أهل رفق وعدل ،
 يوفون بالعهود ويحافظون على المواثيق ، وقد فتحوا بلاد
 الأسبان ومعظم اkitانيا ولم يظهر منهم الا العدل والرفق . ترى
 النصارى فى اسبانيا وفى بوردو « بواتيه وغيرها من البلاد التى
 فتحوها متمتعين بحريتهم الدينية ، لا خوف على كنائسهم ، ولا
 على أموالهم ، ولا على شىء مما يملكون . ولا يخلو أن يطمع
 أحدهم فى نهب أو سلب فاذا لم يكن محققا فانه ينال جزاءه من
 أميره » . ثم قصت عليه حكاية كنيسة بوردو وبذلت جهدها فى
 تنميق العبارة وبسطها لعلها انها اذا أقنعت رئيس دير القديس
 مرتين هان عليها اقناع أسقف تورس ، واذا هم لم يساعدوا
 العرب كفأها ألا يساعدوا الافرنج

- ٦٣ -

الرهينة

وكان الرئيس يسمع كلامها ويتفرس في وجهها ويستطلع حقيقتها ، فلم تسعفه الفراسة الا قليلا وظل مستغربا غيرة هذه المرأة على العرب وهي غير عربية .. ولكنه استحسن امتداحها العرب خصوصا وهو على تلك الحال ، فتوهم ان مجيء هذه المرأة أثناء نفوره من شارل وخوفه منه لا يخلو من عناية خاصة روحانية . فمال الى موافقة سالمة في رأيها ولكنه أعظم أن ينصاع اليها في سهولة ، وأراد من ناحية أخرى أن يحافظ على غيرته الدينية لعلمه ان انحيازه الى العرب - اذا لم يكونوا كما وصفت - يغير مستقبل النصرانية في تلك البلاد ويقلب الأحوال رأسا على عقب . وكان يرجو رجوع شارل عن مطالبه ، فاذا رجع لم يبق ثمة داع لعدوله عن نصرته . فظل مدة مطرقا وهو يعبث بأطراف لحيته بين أنامله ، ثم التفت الى سالمة وقال لها : « اني شاكر لسعيك ، وأرجو أن تمهيني ريشما أفكر وأستخير الله وأعمل بالهامه جلّت قدرته »

قالت : « تبصّر يامولاي في الأمر كما تشاء ، ولكنني أذكرك بما أنت مسئول عنه أمام الله من مصالح الرعايا .. واثما هدى أن يعود سعيك بالخير على الكنيسة وأهلها » . قالت ذلك

ووقفت فابتدورها الرئيس قائلاً : « أما أنت فتبقين عندنا ريثما نرى ما يكون »

فأدركت انه يريد بقاءها عنده رهينة حتى يصدق قولها ، فلم تبال لاعتمادها على وعود عبد الرحمن ، فقالت : « انى رهينة أمرك فيما تريد »

فصفق الرئيس فجاء أحد الرهبان فقال : « انزل هذه الضيفة فى غرفة خاصة بها وأكرموها »

فمضت مع الراهب الى عليّة أعدوها فى طرف الدير من جهة نهر لوار ، ولها نافذة مطلة على ذلك النهر ، فاتكأت على السرير وقد أخذ التعب منها مأخذا عظيما فاستلقت ونامت واستغرقت فى النوم ، ولم تفتق الا على قرع جرس يدعو الرهبان للغداء ، فنهضت والتفت بشياها وأطلت على النهر فبغتت لما شاهدها - من بعد - من السفن الصغيرة المرابطة صفوفها كالجسور ، وقد أخذ الناس فى العبور عليها الى هذه الضفة ومعهم الأعلام أشكالا وألوانا ..

فعلمت انهم جنود شارل فوقفت تنظر الى مجرى النهر ، وقد رجعت بها أفكارها الى مريم والعهود التى تربطها بذلك النهر وما يتوقف على الجيشين هناك من الأمر الهام . وكانت كثيرة الاطلاع على أحوال الافرنج ، وقد علمت انه لم يبق عندهم رجل قوى الا شارل هذا .. فاذا دارت عليه الدائرة فالغلبة للمسلمين على كل أوربا لأنه لن يقف فى طريقهم شىء بعد ذلك .

واذا كانت الغلبة للافرنج ، فلا مقام للمسلمين هناك أبدا الدهر..
وأشد من ذلك وطأة عليها ان العرب اذا لم يقطعوا نهر لوار لم
يبق لها ولا لابنتها عيش .. فلما تذكرت ذلك مدت يدها الى
حييها وافتقدت المحفظة وفيها كل سرها وأخرجتها وقبّلتها ،
فدمعت عيناها وأحست من تلك الساعة بشوق شديد الى مريم
بعد ذلك الغياب الطويل وهي لاتدرى كيف حالها ، على انها لم
تكن تخشى عليها من أحد ليقينها بحكمتها وعناية عبد الرحمن بها
استغرقت سائلة في تلك الهواجس ، وعيناها تنظران الى معبر
الجند وقد استغربت كثرتهم على الضفتين ، وكانت تسمع صوت
الطبول برغم بعد المسافة لأن الهواء كان يهب من الشمال والشرق
والصوت يأتى معه . وقضت سائلة في ذلك ساعة ، ولو تركت
لنفسها لانقضى النهار ولم تتبه ، ولكنها ما لبثت أن سمعت قرع
الباب فتحولت وفتحته ، واذا براهب ومعه خادم يحمل خوانا
عليه الأطعمة فقدمها لها ، وخرجا فأحست بالجوع وكانت قد
نسيت نفسها ، فجلست ولم تزدرد اللقمة الأولى حتى تذكرت
حسانا ورفيقها الراهب فصفقت ، فجاءها خادم فطلبت اليه أن
يستقدم خادمها عند باب الدير ، فذهب ثم عاد بحسان وهو
بعباءة الرهبان وشعره لا يزال مشعثا ، فدخل وتأدب ، فأمرته أن
يقفل الباب وراءه ، فلما خلت به دعتة للجلوس فأبى ، فقالت :
« دعنا من المجاملة فانك من أعز الأعزاء الى » ، وأى عزيز يضحي
بنفسه في مصلحة صديقه أو صاحبه كما فعلت ؟.. فاسمح لى أن

أعاملك معاملة الصديق .. اجلس وتناول الطعام معي «
 فتراجع وقال : « أما الجلوس في حضرتك فأطيعك فيه ، وأما
 الطعام فلا حاجة لي به لأنني أكلت مع بواب الدير الساعة ، وقد
 شغل بالي لابطائك في دعوتي وخشيت أن يفشل مسعاك .. فأرجو
 أن أسمع أخبارا طيبة .. هل نجحت مع رئيس الدير ؟ »
 قالت : « أحمد الله على ذلك ، ولم يبق الا أن نبليغ نتيجة
 أعمالنا الى الأمير عبد الرحمن ليعلم كيف يتصرف مع تلك الداهية
 ميمونة .. وأين جند العرب الآن ياترى ؟ »

قال : « قد علمت من حديث دار بيني وبين أحد الرهبان
 في هذا الصباح ان العرب أصبحوا على مقربة من هذا المكان
 ولكنهم قادمون من جهة الغرب ، وان جند شارل قادم من جهة
 الشرق وسيلتقي الجيشان في هذه الساحة جنوبى هذا الدير »
 فبغت وأبرقت أسرعتها ، وقالت : « هل أنت واثق من ذلك
 يا حسان ؟ »

قال : « هذا الذى سمعته — يامولاتى — والجميع يتناقلونه ،
 وأظنه صحيحا .. »

قالت : « فعلينا الاسراع فى ابلاغ الرسالة ، وكنت أود أن
 أذهب أنا أيضا معك لولا اصرار الرئيس على بقائى هنا لغرض
 لا أعلمه .. »

فقال : « لا بأس من بقائك فى الدير اذ تكونين هنا فى مأمن
 من كل شر ، لأنه فضلا عن تحصينه بالأسوار والأبراج فله

مكاته عند الجيشين .. واتركى ما بقى من المهام على ، فانى
أفعل ذلك ان لم يكن اكراما لك فاكراما لنفسى ، وفى فوز
العرب فوزى ، وفى سقوطهم سقوطى »

فتذكرت سالمة ما كان من حديث رودريك . وقد فاتها أن
تخبره به بالأمس فقالت : « بورك فيك وعندى خبر جديد
يهمك أكثر من كل ذلك .. »

فقال : « وما هو ياسيدتى ؟ »

قالت : « أتذكر حفيدك سعيدا .. ؟ »

فأجفل عند سماع ذلك الاسم لطول ما مر به من الأيام على
اغفاله وهو يحسبه فى عداد الأموات وقال : « كيف لا أذكره ..
رحمه الله ورحم والده »

قالت : « انه لم يمت يا حسان .. »

قال : « من ؟ .. سعيد حى ؟ .. أين هو .. »

قالت : « هو فى معسكر الدوق أود واسمه عندهم رودريك »
وقصت عليه ما تعرفه عنه ، فأطرق واستغرق كأنه فى حلم ، ثم
رفع بصره وقال : « وهل هو هناك الآن ؟ »

قالت : « لا أدري .. واذا كان هناك فانه يكون سجيناً »

قال : « سوف أسعى اليه وأبحث عنه بعد ذهابى برسالتك

الى الأمير عبد الرحمن »

فأعجبها منه ايثار خدمتها على البحث عن حفيده مع شدة
قلقه عليه ، فلما فرغت من الطعام أمرت حسانا فجاءها بعداد ،

وتناولت منديلا كتبت عليه رسالة الى عبد الرحمن ولفتها
ودفعتها الى حسان وقالت له : « سرّ في رعاية الله ، واذا احتجتم
الىّ في شيء فاني مقيمة هنا . وأرى قبل ذهابك أن تصلح من
شأنك وتتزيا بزي الرهبان لتأمن غوائل الطريق . وأظن أن
رفيقنا الراهب سيعود الى دير ، فاصطحبه وبلغه سلامي .. »
فودعها حسان وخرج ..

- ٦٤ -

معسكر عبد الرحمن

فلنرجع الى ما كان في معسكر عبد الرحمن بعد طول سكوتنا
عنه وانشغالنا بحديث سالمة .. تركناهم قرب مضيق دردون بعد
أن فرّ الافرنج من وجوههم ، فمكثوا هناك ينتظرون رجوع
سالمة من مهمتها . وقد رأيت ما كان من مقتل بسطام وفشل
ميمونة ، وعرف القاريء انها لمباجة بنت الدوق أود ، وكانت
بارعة الجمال والدهاء كما رأيت ، وقد وضعت نفسها موضع
السبية خدمة لوالدها فانطلت حيلتها على عبد الرحمن ورجاله ،
ولولا سالمة لظل أمرها مكتوما . وكانت سالمة قد عرفت ما منذ
قابلتها في الخباء ، ولكنها خشيت أن يكتشف سرها هي فأجّلت
الأمر حتى تعود ، ولو علمت حقيقة مهمتها ما صبرت عن أمرها ..
فظلت ميمونة بعد ذهاب سالمة والكل يعتقدون انها من وصفات

لمباجة وهي لا تدخر وسعا في عرقلة مساعي العرب بكل سبيل .
فلما فرغت يدها من وقعة دردون وتخلصت من التهمة ، عمدت
الى أحد شياطينها فبعثت معه الى والدها كتابا أنبأته فيه عن مهمة
سالمة والغرض الذي ذهبت من أجله الى بوردو وبواتيه وغيرهما ،
وحرصته على القبض عليها لأنه اذا حبسها فكأنه حبس نصف
جيش المسلمين ، فلم تدركها المكيدة الا على أبواب بواتيه كما
رأيت . وكانت ميمونة قد تحققت من عجز والدها عن دفع ذلك
الجند من العرب بعد ما شاهدته في الوقعتين الأخيرتين بفضل
اتحاد القبائل وعجزها عن تفريق كلمتها ، فعمدت الى شيطانها
الأحول وبعثت معه الى والدها تستحثه على الاستنجاد بشارل
لعلمها ان أباه لا قبل له بذلك وحده .. ومن غريب دهائها
واحتيالها انها كانت شديدة التأثير على والدها لا تكاد تشير عليه
بأمر الا حققه لايمانه بحكمتها وسعة اطلاعها ، وخاصة على أحوال
العرب بعد الاقامة بينهم أعواما . ولما جاءه كتابها ، كان قد يش
من الفوز وخاف على نفسه ، فوافق رأيها مصلحته فبادر الى
الاستنجاد بشارل دوق أوستراسيا ، فلبى هذه الدعوة لعلمه انه
اذا انتصر على المسلمين انتصر على أود ومملك فرنسا كلها
أما عبد الرحمن فلما طال غياب سالمة ملء الانتظار ، وبعث
يبحث عنها في بوردو فعلم انها خرجت منها منذ أيام ، وكانت
مريم مع تعلقها بهانىء واستغراقها في لجج العواطف أشد الجميع
قلقا على والدتها ، وكان هانىء يختلس الفرص في أثناء الاقامة

هناك ويجتمع بمريم ، اما في الخياء أو في الصحراء ، ويتحادثان ويتشاكيان في غفلة من الرقباء ، وعبد الرحمن يفض النظر ، حتى تمكنت المحبة بينهما وكادا يتناسيان الحرب وأسبابها لو لم يكن زواجهما متوقفا عليها وعلى اختراق اkitانيا الى نهر لوار . ولذلك فان هانئا لم يكن يفتر عن تحريض عبد الرحمن على السير قبل فوات الفرصة واستعداد الأعداء ، وعبد الرحمن يأخذ الأمر بالتؤدة والتأني .. حتى جاءهم الجواسيس ذات يوم بخبر استنجد أود بشارل ، فعقد عبد الرحمن مجلسا من الأمراء حضره هانئ وأطلعهم على الخبر ، فقال هانئ : « وهذا ما كنت أخشاه ، ولذلك كنت أستعجل الأمير في التقدم » فقال عبد الرحمن : « فالذي أراه أن نبادر حالا الى المسير » قال هانئ : « هذا هو رأيي »

ولبت عبد الرحمن ساكتا ليسمع آراء سائر الأمراء وفيهم أمراء البربر فلم يفهم أحد منهم بكلمة ، فتخوَّف من ذلك السكوت وأدرك هانئ خوفه ، وعلم ان مطامع البرابرة متعلقة بالغنائم والسبايا ، وانهم لما علموا باتحاد جيشي اkitانيا وأوستراسيا خافوا على أنفسهم .. فوقف هانئ وهو يتسم وقال : « لا حاجة بنا الى طول البحث في هذا الشأن ، فان الله قد ضم جيش أوستراسيا الى جيش اkitانيا غنيمة لنا لأن عند أولئك من الأموال والتحف ما لا تقاس به تحف هذه البلاد ، واذا انتصرنا على الجيشين مرة واحدة ملكنا هذه الأرض الكبيرة

كلها ، وقطعناها حتى نذهب الى رومية والقسطنطينية ففتح العالم كله ، ونشر الاسلام بين الناس كافة ، ويكون الفضل في ذلك لسيوفكم وخيولكم » . قال ذلك وقد مزج طلب الغنائم بالجهاد حتى لا يفتر طالب الغنائم عن تلبية دعوته .. وما أتم كلامه حتى صاح الجميع بصوت واحد : « الخيل .. الخيل »

فقال عبد الرحمن : « بارك الله فيكم ونفع الاسلام بكم » ثم أمرهم بالاستعداد للرحيل ، ولما انصرف الأمراء بقى هانىء وعبد الرحمن .. ولاحظ هانىء على عبد الرحمن انقباضا ، فقال : « ما بالك منقبض النفس وقد أطاعنا هؤلاء على المسير ؟ » قال : « انت تعلم ياهانىء انهم لا يحاربون الا طمعا في الأموال وقد تجمعت الغنائم عندهم حتى كادوا ينوءون تحت أثقالها فالرجل منهم لا يكاد يستطيع حمل طعامه وغنائمه ، فبماذا يقاتلون ؟ »

قال هانىء : « لقد نبهتني أيها الأمير الى أمر ذى بال : ان تعلق هؤلاء البرابرة بالغنائم ضربة ثقيلة على هذا الجيش .. ليس لاستئثارهم بها دون سواهم ، ولكن لأنها تشغلهم عن الحرب . فاذا حملوها أثقلتهم وأعاقت حركتهم ، واذا تركوها خلفوا قلوبهم معها .. فلا بد من حيلة نحتالها عليهم في ذلك »

فأطرق عبد الرحمن ثم وقف ، فوقف هانىء معه وتشاغل عبد الرحمن باصلاح عمامته وهانىء باصلاح حسامه ، ثم التف عبد الرحمن بعباءته وهو يقول : « لا بد لنا من النظر في هذا

الأمر . وفي اعتقادي ان ترك هذه الغنائم الثقيلة والذهاب الى الحرب بدونها أربح لنا جميعا ، ولكن من يجسر أن يقول لهؤلاء البرابرة : تخلوا عن غنائمكم .. ونحن انما رغبناهم في الحرب بذكر الغنائم والأموال «

فضحك هانيء وقال : « أظنك لاحظت ذلك من عبارتي في هذا الشأن .. وقد كان في نفسي أن أرغبهم في سرعة المسير الى تورس بذكر ديرها الغني لأن بقربها ديرا يقال له دير القديس مرتين . هو من أغنى الأديرة الافرنجية (١) ولكنني خشيت ان أنا قلت لهم ذلك أن يشتغلوا بنهبه عن الحرب ، فنكسب عداوة الأهالي والكهنة فضلا عن عداوة الجند «

قال عبد الرحمن : « لقد أحسنت بالسكوت عن ذلك والذي أراه اننا متى وصلنا الى ساحة الحرب ندبر تدبيرا لا يغضب أحدا فنجعل هذه الغنائم في مكان خاص فيكون أصحابها في اطمئنان لا يخافون عليها بأسا أو نجعلها وراء الأخبية أو بينها وبين الجند « فمشى هانيء وهو يقول : « سننظر في ذلك في حينه « وخرجا لاعداد معدات السفر

أما مريم فقد كانت لاتزال على اعتقادها في اخلاص ميمونة . وهذه لم تكن تدخر وسعا ولا تضيع فرصة لا تجتذب فيها قلب مريم بالاطراء والاعجاب ، ومريم — لسلامة نيتها وصدق محبتها — كانت تثق بميمونة ثقة تامة . ولم يكن ذلك عن جهل

أو بله .. ولكن حرّ الضمير يصدق الناس ويعتقد أنهم يصدقونه ، فإذا سمع قولا صدقه لسلامة نيته وصدق لهجته . وفي جملة ما استخدمته ميمونة من أسباب الخداع لمريم انها كانت تحدثها بحوادث وقعت لها مع عبد الرحمن أو غيره ، تزعم انها مما لا يفشى لغير الأصدقاء الأخصاء وتتوقع أن تفشى لها مريم شيئا من سرها مع هانىء ، ولكن مريم كانت شديدة الحرص على أسرار الحب وميمونة تسايرها في كتمانها فيزيدها ذلك استسلاما لها . فلما تمكنت ميمونة من مريم وكسبت ثقتها أصبحت مريم لا تفارقها الا ساعة النوم ، أو عندما تلتقى بهانىء أو لأسباب قاهرة ..

- ٦٥ -

ساحة القتال

وفي صباح الغد فوضوا الخيام ووضعوا الأحمال على الجمال والبغال وسار الجند على نسق خاص .. المشاة حسب قبائلهم وأمام كل قبيلة راية خاصة بها يحملها أحد فرسانها ، وقد يكون للقبيلة عدة رايات تخفق في الهواء حتى اذا نظر ناظر الى ذلك الجند وراياته عن بعد ظن الرايات أشعة وظن حاملها سفنا ، والناس بحرا ومسيرهم موجا يتلاطم ، وكأن عمائمهم البيضاء وبجوانبها رعوس الأسنة تكسر الموج على سطح البحر . وكان من جملة المشاة رجال البربر بحسب قبائلهم ومعهم سائر الموالى

من غير العرب كالنبط والشوام وغيرهم ، وهم سائرون بازاء العرب . وملابسهم تختلف عن ملابس العرب بعض الشيء . وأما الفرسان فقد اصطفوا فرقة على حدة تتقدمها الرايات بحسب الأمراء ، وراية هانىء أكبرها جميعا .. وأكثر الفرسان بالدروع المتينة وعلى رؤوسهم الخوذات الفولاذية . وكان عبد الرحمن يسير تارة بجانب هانىء أمام الأمراء أصحاب الأخيصة ومعهم النساء والأطفال فى هودج ، الا مريم فكانت على جواد كأحد الفرسان ، وكانت ميمونة تتظاهر بالرغبة فى ملازمتها فتركب جوادا الى جانبها . ويجىء وراء تلك الحملة ساقة الجند وأمامهم الأحمال والأثقال ، وكان عبد الرحمن وهانىء اذا دارا حول ذلك الجيش أو نظرا إليه من أكمة اطمأنا لكثرتة وتوسما النصر به وكان المسلمون يسرون ولا يلاقون فى طريقهم الا حقولا مهجورة وأدوات متروكة وبيوتا خالية ، فيأخذون ما شاءوا ويتركون ما شاءوا ، حتى اذا أمسى عليهم المساء يحطون رحالهم فيأكلون وينامون ثم ينهضون . فلما وصلوا بواتيه ، لم يلاقوا منها مقاومة كبيرة لأن معسكر أود كان قد بعد عنها ، وقليل من الجند من دخل المدينة لأن مقصدهم كان مدينة تورس قاعدة تلك الناحية وعندها جند الافرنج

وأنبأهم الخبراء ذات صباح أنهم أصبحوا على مرحلة من نهر لو ار ، فاستراحوا وأصلحوا شئونهم وساروا - وعبد الرحمن وهانىء يتقدمان الجند - نحو ميل ومعهما كبير الخبراء

لاستكشاف مواقع العدو قبل النزول ، وليختاروا مكانا
يعسكرون فيه . وفي أصيل ذلك اليوم صعدا على رابية على
ضفة نهر شير ووليا وجهيهما نحو الشرق فكان نهر لوار الى
يسارهما عن بعد والشمس وراءهما فنظرا الى ما بين أيديهما
شرقا ، فأشرفا على سهل واسع مثلث الشكل قاعدته ضفة نهر
لوار الى يسارهما ورأس المثلث في الجنوب .. وشاهدا عنده
خياما وأعلاما ، فعرفا انه معسكر الدوق أود . وبين هذا المعسكر
وضفة نهر لوار سهل واسع ، طوله نحو ميلين ، يصلح ميدانا
للقِتال لخلوه من الأغوار ، حتى ينتهى عند قاعدة المثلث بالأبنية
على ضفة النهر وأقربها اليها مدينة تورس ثم محلة دير القديس
مرتين ، ومع بعدها عنهما فانهما عرفاها من فخامة ديرها وقبة
كنيستها . وشاهدا وراء تلك المحلة مما يلي النهر حركة وغبارا
عرفا مما يتخلل ذلك من الأعلام والخيول انها حركة جند قادم
من جهة النهر .. فأمر عبد الرحمن رجلا في ركابه أن يمضى الى
جند المسلمين فيأمرهم بالوقوف حيث هم ريثما يعود من هذا
الاستكشاف . ثم التفت الى الخبير وكان من الافرنج وقد تعلم
العربية وقال : « أليس هذا دير القديس مرتين ؟ »
قال الخبير : « بلى ، يامولاي ، هذا هو أغنى الأديرة
النصرانية في هذه البلاد .. »

قال : « وما الذى تراه وراءه ؟ »

قال : « أرى جند الدوق شارل يعبر النهر من ضفته الشمالية

الى الضفة الجنوبية . وقد علمت من رجل لقيته في هذا الصباح
قادما من محلة هذا الدير ان الدوق المذكور أخذ منذ بضعة أيام
في نقل رجاله على جسور من السفن ، ولم يفرغ بعد لكثرة
ما جاء به من الرجال والأحمال «

قال : « ألا يعرفون عدد جنده .. ؟ »

قال الخبير : « لم يحصوه ، ولكن لاريب عندي ان الدوق
شارل جرد كل ما يستطيع تجريده من قبائل الافرنج في أوستراسيا
وما وراءها لعلمه بشدة بأس المسلمين وقوتهم ، ولأن على حربه
هذه يتوقف اما امتداد سلطانه على فرنسا كلها أو خروج
أوستراسيا من يده «

فقال هانيء : « وسيتحقق الأمر الثاني باذن الله .. »
فاعترض عبد الرحمن كلامه قائلا : « أليس مانراه الى يميننا
في الجنوب معسكر الدوق أود شريد مضيق دردون ؟ »
فضحك الخبير وقال : « بلى ياسيدي ، وهو شريد على كل
حال .. لأنه سواء اتصر عبد الرحمن أو شارل .. فان سلطانه
على اkitانيا سيخرج من يده اما لكم واما لشارل ، فحاله
تستوجب الشفقة .. »

فاكتفى عبد الرحمن بما سمعه ، وفكر في اختيار مكان يعسكرو
فيه فقال هانيء : « لا أرى لنا مكانا نعسكر فيه خيرا من النقا
التي نحن فيها ، فنقطع هذا النهر الصغير (شير) ونعسكر وراء
فنكون على بعد واحد تقريبا من هذين الجيشين . واذا تضامنا

فنكون متقابلين ويكون هذا الماء وراءنا فاذا قضت الحرب أن
 نقهر — لا سمح الله — قطعنا النهر وجعلناه خندقا بيننا وبينهم «
 فأعجب عبد الرحمن برأى هانىء وابتسم له ابتسام والد
 سمع من ابنه عبارة تدل على الذكاء ، وقال : « لقد رأيت
 الصواب وأزيد على ذلك أن تترك أثقالنا وأحمالنا ونساءنا هنا
 ولا يقطع النهر الا الرجال المحاربون فنكون فى اطمئنان على
 أموالنا وأعراضنا ، وأرى أن تترك هنا أيضا الغنائم التى أثقلت
 رجالنا فيذهبون الى الحرب خفافا . وقد أخبرتك بأن أمر هذه
 الغنائم أقلق راحتى ، فاذا لم تقنع رجالنا وخصوصا البرابرة
 بالتخلى عنها يوم الحرب كانت سببا فى فشلنا . وأنت تعلم ان
 الرجل انما يغلب بخفة حركته »

- ٦٦ -

مشكلة الغنائم

قال هانىء : « لنعقد مجلسا — اذا أمرت — نحدث الأمراء فيه
 وتقنعهم بوجوب التخلي عن الغنائم .. ونبين لهم ما يترتب على
 حملها من الأضرار ونرى ماذا يكون » . وكان فى ركاب عبد
 الرحمن أيضا صاحب النفير (البوق) فأمره أن يذهب الى المعسكر
 فيخبر الأمراء بمبيت الجند هذه الليلة حيث هم ، ثم يدعو الأمراء
 الى تلك الأكمة حيث كانا واقفين للبحث فى موضوع المكان الذى

سيعسكرون فيه .. فأسرع الرسول ، ولم تمض هنيهة حتى تقاطر
 الأمراء على جيادهم ، فلما وصلوا نزل عبد الرحمن عن جواده
 وهانئاً عن أدهمه ، فنزل سائر الأمراء وسلموا جيادهم الى
 الخدم ، ووقفوا على تلك الراية فأطلوا على سهل تحف به
 تورس ومحلة القديس مرتين من الشمال الى يسارهم ، ومعسكر
 أود من الجنوب الى يمينهم .. فقصَّ عليهم عبد الرحمن ما خطر
 له بشأن المكان الذى يعسكرون فيه بحيث يكون الماء وراءهم
 الى أن قال : « وأستشيركم فى أمر هام .. أظن ان فيه خيراً لنا ،
 وهو ألا يعبر هذا النهر منا غير الرجال المحاربين ، وأن تترك
 النساء والأحمال هنا ومعهم من يحميهم .. فما رأيكم ؟ »
 فقال اثنان من أمراء القيسية : « لقد رأى الأمير صواباً .. »
 فوافق سائر الأمراء على ذلك

فقال عبد الرحمن : « وهناك أمر ذو بال طالما خشيته على
 هذا الجند . وذلك ان جندنا قد أصبح من كثرة ما أفاء الله على
 المسلمين من الغنائم مثقلاً بالتحف والأموال ، حتى لقد يتعذر
 على الرجل أن يحمل غنائه فكيف يستطيع القتال بها ؟ .. فالذى
 أراه أن نجعل الغنائم المذكورة فى مكان أمين فى جملة ما سنخلفه
 هنا عند ذهابنا فى الغد ، فنجعل تلك الذخائر والتحف فى خيمة
 خاصة يحرسها من تثقون به من رجالكم ، كما فعلنا بقرب
 بوردو .. »

فلم يتم عبد الرحمن كلامه حتى اعترضه شاب من أمراء

البربر قائلًا : « أما نحن فلا نوافق على هذا الرأي . ولا تذكرونا بما أصابنا في بوردو على أثر مثل هذا العمل ، فقد احتفظنا بالغنائم هناك حسب أمركم فكانت النتيجة اننا خسرنا أكبر أمرائنا وأشجع رجال هذا الجند »

فلما سمع عبد الرحمن تلك العبارة ، وما تنطوى عليه من التعريض بمقتل بسطام مع ما تدل عليه من الضعينة والحققد خشى الانقسام اذا هو اعترض عليه أو وبخه .. لعلمه انه لم يجسر على هذا القول الا وهو مدفوع من جماعة . فتظاهر عبد الرحمن بالسذاجة والأسف وقال : « في الحقيقة اننا خسرنا في تلك الواقعة خسارة يصعب تعويضها لأن الأمير بسطاما يندر أن يجود الزمن بمثله.. ولكنني لا أرى علاقة بين مقتله والغنائم» ثم التفت الى جمهور الأمراء وقال: «أظنكم توافقونني على تناسي ذلك الحادث والاشتغال بما هو أهم منه ، وقد عرضت عليكم رأيا فاذا كنتم ترون فيه خطأ فينبوه لأن الهدف واحد ، والمصلحة واحدة » فتهامس الأمراء وتداولوا مليا ثم قال أحد أمراء اليمينية : « أرى الأمير على صواب في رأيه .. لأن الرجل منا لا يستطيع الحرب وهو مثقل بالأحمال ، واذا خسر الانسان غنيمة وابتصر في حربه عوّض أضعافها » ..

فوافق على ذلك كثيرون ولحظ هانيء ان البربر لا يزالون يلوذون بالصمت ، فخشى الفشل فقال : « وأزيد على ما قاله الأمير .. اننا اذا انتصرنا في هذه الواقعة كانت غنائمنا فوق ما

تدركه العقول .. لأن الدوق قارله (شارل) صاحب هذا الجند وأشار الى جند شارل قد حمل معه كل ما فى بلاده من التحف وكل ما فى الأديرة والكنائس والقصور ، فاذا انتصرتم عليه ظفرتم بالغنى والفخر والسعادة » .. قال ذلك بلهجة تحمل كل معانى الاخلاص ، وهو يتسم ويتفرس فى وجوه الأمراء فلم يجد أمراء البربر ما يدفعون به قوله ، فتكلم شيخ من أمرائهم قائلاً : « لاريب فى ان الجندى لا يستطيع الحرب الا اذا كان خفيفا ، ولكن مَن لنا بمن يقنع أفراد الجند بأن يتركوا غنائمهم التى ظفروا بها بعد شق الأنفس وهم لا يطمعون فى امارة أو قضاء وانما ربحهم من هذه الحرب ما يرجعون به من الغنائم . فعندى اننا بدلا من أن تترك الغنائم هنا نحملها معنا فى صباح الغد ونجعل لها مكانا بجانب معسكرنا ، فان ذلك أيسر على أصحابها من أن يتركوها فى مكان يحول بينهم وبينه نهر »

- ٦٧ -

رسول أمين

فلم ير عبد الرحمن بدا من الموافقة .. فعادوا الى المعسكر وباتوا تلك الليلة هناك ، وأصبحوا فى اليوم التالى وأخذوا فى عبور النهر اما خوضا أو سيرا على قوارب نصبوها عرضا ، وكان ذلك النهر جدولا صغيرا لا يعد شيئا بالنسبة الى نهر لوار

وهو يصب فيه .. فعبرَ أولا عبد الرحمن وهانىء ليعيّننا أماكن الخيام فوققا على مرتفع أطلا منه على ذلك السهل ، وأخذنا فى تعيين الأماكن والجند يشتغلون فى نصب الخيام وغرس الأعلام الى قرب الأصيل .. فلاحنا من هانىء التفاتة وهو ينظر الى الأفق فرأى شبحا يعدو نحوهما عدوا سريعا ، فتعلق ذهنه به وجعل يتفرس فيه فرأى عليه ملابس الرهبان فازداد استغرابا ، ثم رآه قد سقط على الأرض وهو يشير بيديه نحو هانىء ، فركض هانىء فرسه حتى وقف عنده فاذا هو حسان خادم سالمة وقد استلقى على ظهره وقبض باحدى يديه على جنبه كأنه يشكو ألما هناك ، وأمسك بيده الأخرى شيئا أوّما به نحو هانىء فترجل هانىء ، وأراد أن يساعد حسانا على الجلوس ، فأشار له بعينه أن يتركه ، فسأله عن أمره فقال بصوت متقطع وهو يلهث وقد ضغط بكفه على جنبه من شدة الألم : «أرسلتنى مولاتى سالمة برسالة الى الأمير عبد الرحمن .. من دير القديس مرتين .. فحملتها (وأشار بيده والرسالة فيها) حتى اذا خرجت من الدير ورأيت أعلامكم عن بعد أسرع نحوكم ، فما شعرت الا ونبل أصابنى فى جنبى من خائن أظنه عدلان الأحوال .. فأيقنت انى ميت .. فأسرفت حتى أدرككم بهذه الرسالة لأنها فى غاية الأهمية .. فسقطت قبل أن أصل اليكم .. وهذه هى الرسالة» ثم انقطع صوته وتزايد ألمه وأغمض عينيه وأرخى يديه . فناداه هانىء فلم يجب ، وكان عبد الرحمن قد شاهدهما فأسرع

اليهما وسمع كلام حسان . فلما رآه على تلك الحال أسف لحاله أسفا شديدا وكذلك هانىء ، وترجع عنده انه ميت ، ولكن الأمل لا ينقطع من الحياة طالما بقى نفس يتردد ، فأشار عبد الرحمن الى هانىء أن يستقدم أحد الأطباء

فركب بنفسه على أدهمه وركض نحو الجند ، وصاح : « هاتوا طبيا .. » وبعد قليل جاءه الطبيب وهو من نصارى الأندلس وقد قضى فى خدمة العرب زمنا طويلا . فأسرع الى حسان وجس نبضه فاذا هو ميت لأحرأك به ، فطلب اليهم أن يدبروا أمر غسله ودفنه ، فحملوه الى خيمة خاصة بذلك أما عبد الرحمن فتناول الكتاب وفضه وأخذ يتلوه وهانىء يسمع ، فاذا فيه :

« الى الأمير عبد الرحمن الغافقى

« أكتب اليك من دير القديس مرتين وقد وصلت اليه بعد مشقات يطول شرحها سأقصها عند اللقاء القريب ان شاء الله . وانما بعثت هذه الرسالة لأخبرك بأمر هام ، اطلعت عليه فى أثناء سياحتى هذه .. وهو ان المرأة التى تسمى نفسها ميمونة انما هى لمباجة بنت الدوق أود وقد نصبت لى الجبائل الكثيرة فى أثناء هذه الرحلة . وهى التى حرضت أباهما على استتجاد صاحب أوستراسيا بكتاب أرسلته مع خادمها الأحول ، فاحذروها وافعلوا بها ما شئتم . ثم انى أبشركم بأن رئيس هذا الدير ناظم على شارل وقد وعدنى بالمساعدة ولكنه استبقانى عنده رهينة .

وأنا في أمن واكرام ، أطلب لكم النصر . وأوصيك بفلذة كبدى
مريم ، والسلام »
سالمة

فما جاء على آخر الكتاب حتى بغت ، فنظر الى هانىء ثم
أعاد النظر الى الكتاب ، وقد أخذت منه الدهشة مأخذا عظيما ،
فقال هانىء : « لم أكن أعتقد فى هذه الملعونة خيرا ، وكنت مع
فرط جمالها أشعر بنفور من منظرها لسبب لا أعلمه ، فكأن
قلبى دلى على حقيقتها وكثيرا ما كنت أستغرب اكرامك لها .. »
فقطع عبد الرحمن كلامه قائلا : « كنت أراعيها على حذر
ولم أثق بها قط ، ولكننى كنت أتوقع منها نفعا فى أثناء حروبنا
لأنها من أهل هذه البلاد .. وقد قضى الأمر الآن ، فيجب أن
نتدبر فى شأنها ، فما الذى ترى أن نفعله ؟ » ..

قال : « أرى أن تقتلها حالا ونريح أنفسنا منها »
قال : « سننظر فى ذلك بعد الفراغ من ترتيب هذا المعسكر »
قال ذلك وركب جواده وتحول نحو الجند لاتمام ترتيبهم .
فجعل معسكره فى نحو ثلث الضلع الممتد بين تورس ومعسكر
أود وجعل فسطاطه فى وسط المعسكر نحو الامام وبجانبه خيمة
هانىء ، يليهما بالترتيب مضارب القبائل كل قبيلة على حدة
وخيمة أميرها فى وسط خيامها ، وراية الأمير مغروسة فى باب
خيمته . وقد يكون للقبيلة الواحدة عدة أمراء وعدة رايات
باعتبار البطون والأفخاذ .. وجمع بين القبائل المتقاربة فى النسب
المضرية فى جانب واليمنية فى جانب . وجعل البرابرة فى جانب

آخر جنوبي المعسكر ببقعة اختاروها هم ، وعبد الرحمن يسايرهم لأنهم أكثر فئات الجند عددا .. فترتبوا باعتبار قبائلهم وبطونهم ، وكذلك الأمم الأخرى من الأنباط والشوام وهم أقل سائر الفئات .. ثم أمر بالغنائم أن توضع في خيام نصبوها لها بجانب المعسكر من جهة الجنوب . وقد طلب البرابرة ذلك لتكون غنائمهم أقرب الى مضاربهم ، كأنهم خافوا أن يسطو عليها العرب ويأخذوها منهم . ونصبوا مرابط الخيل وراء المعسكر مما يلي النهر الصغير

وكان هانىء في أثناء ذلك الترتيب يطوف المعسكر لمساعدة عبد الرحمن ، وهو يفكر فيما قرأه عن ميمونة وسالمة ، وخطر له ان مريم اذا عرفت بمقام والدتها في ذلك الدير ربما طلبت الذهاب اليها ، فارتاح الى ذلك الخاطر لاعتقاده انها تكون هناك في مأمن على حياتها لو قضى على العرب بالهزيمة . على انه ترك الاختيار لها وان كان لا يقوى على فراقها

- ٦٨ -

لمباجة

قضوا ذلك اليوم واليوم التالي في الانتقال والترتيب ، حتى لم يبق في الضفة الأخرى غير الأخبية والأحمال الثقيلة ونحوها . وفي أصيل اليوم التالي ، سار عبد الرحمن وهانىء معا الى

الأخية لمحاكمة ميمونة سرا ، وكان هانىء لا يرى باعثا على المحاكمة .. ولو ترك الأمر له لقطع رأسها بسيفه بغير سؤال ولا جواب . أما عبد الرحمن فأراد أن يتصرف بحكمة وتؤدة .. فلما وصلا الى الخباء الأكبر ترجلا ودخلا القاعة ، وبعث عبد الرحمن الى القهرمانة فجاءته بخلاخلها ودمالجها وهى تترجرج فى مشيتها كأنها فى أحد قصور طليطلة . فلما وصلت الى عبد الرحمن حيته ، فقال : « أين ميمونة ؟ »

قالت : « لم أشاهدها منذ مساء أمس وأظنها مع مريم فى غرفتها .. »

قال : « ابعثى اليها أن تأتينا وحدها .. »

فصفت القهرمانة فجاءها أحد الصقالبة الخصيان فقالت : « اذهب الى السيدة ميمونة ، وقل لها ان الأمير عبد الرحمن يحتاج اليها .. » وقد كلمته بألفاظ عربية مشوشة على نحو ما ينطق بها الغرباء عن اللغة اذا تعلموها التقاطا من أفواه الناس ، شأن أولئك الصقالبة والافرنج وأمثالهم ممن كانوا فى خدمة العرب فى تلك الأيام ..

فأشار الصقلبي برأسه اشارة الطاعة ، وخرج .. ولبثوا فى انتظاره ، وهانىء يود الانصراف ليرى مريم ويخبرها عن والدتها ويكون هو أول من يخبرها بذلك - وفى هذا السبق لذة يشعر بها كل انسان وخصوصا بين المحبين - فان الرجل اذا سمع خبرا جديدا وهو بعيد عن زوجته أو حبيبته ، فانه يشعر

بميل شديد الى اطلاعها عليه . واذا كان ما سمعه من قبيل السر كان أشد رغبة في مكاشفتها به ، وكلما بالغوا في تحريضه على كتمانهم ازداد رغبة في كشفه ، وهو لا يعد ذلك افشاء للسر لأنه يكاشفها به سرا ويوصيها بأن تكتمه ، وربما كان السبب في لذة المكاشفة شعور الحبيين بالامتزاج قلبا وروحا ، بحيث لا يليق التكتّم مع ذلك الامتزاج .. وزد على ذلك ان المساواة تزيد في توثيق عرى المودة ، فاذا تواد اثنان تزداد الرابطة بينهما وثوقا اذا اطلعا على سر لا يعلم به سواهما . ولهذا السبب كانت المحافظة على الأسرار الماسونية من أقوى أسباب ثباتها وان لم تكن تلك الأسرار مهمة فما بالك اذا سمع المحب خيرا يتعلق بشخص حبيب له كما كان الحال مع هانيء ، فان الخبر متعلق بمريم نفسها .. فلا غرو اذا رأينا شديدا الميل الى مكاشفتها .. على انه كان من ناحية أخرى يريد البقاء مع عبد الرحمن بعد مجيء ميمونة ليحرضه على قتلها . وقد طال غياب الرسول ، فبعثت القهرمانة رسولا آخر وآخر . وبعد برهة عاد الرسول الأول وحده وهو يقول : « بحثت عن السيدة ميمونة في كل مكان ، فلم أقف لها على أثر »

فبعث عبد الرحمن وهانيء أكثر من بعثة القهرمانة لعلهما بما لم تعلمه ، فقال عبد الرحمن : « وأين ميمونة يا خالة ؟ » قالت : « ربما كانت في شغل وستعود منه قريبا .. » قال : « انى أريد مقابلتها الساعة ، اذهبي انت للبحث عنها »

فنهضت وهى تقول : « لم أرها منذ غروب شمس أمس ..
وليس أحد أعلم برواحها وغدوها من مريم » ثم خرجت وهى
تتميل وتتدحرج .. وطال غيابها .. ثم عادت ومريم معها وهى
تقول : « لم أجدها فى أى مكان .. فهى بلا شك فى غير هذه
الأخية .. »

ولما دخلت مريم فاحت رائحة طيبها ، وابتسم لها عبد الرحمن
رغم غضبه من ميمونة وخوفه من فرارها بعد أن عرفت حقيقتها..
وكان فى وجه مريم من المعانى والملامح ما لا يستطيع معها الناظر
غير الإعجاب بها والانشراح لرؤيتها ، فكيف بهانىء بعد أن
ملكك فؤاده واستولت على عواطفه حتى أصبح يغار عليها من
النسيم ، فأصبح عند دخولها كلة آذان وعيون يرقب ما يبدو منها
أو من عبد الرحمن عند المقابلة . ولا مسوغ لتلك الغيرة غير
الحب الشديد، لأن الحب يدعو الى الغيرة حتى من أقرب الناس نسبا
وأبعدهم شبة . وهالك لسان حال المحب الغيور يخاطب حبيته :
أغار عليك من نظرى ومنى

ومنك ومن خيالك والزمان

ولو انى وضعتك فى عيونى

الى يوم القيامة ما كفانى

أما عبد الرحمن فما لبث أن ابتسم لمريم وأمرها بالجلوس ،
ثم ابتدرها بالسؤال عن ميمونة فقالت : « لم أشاهدها منذ
مساء أمس ، وقد قضيت كل ما مضى من هذا النهار وأنا

أبحث عنها لأنها رفيقتى ومعزيتى على غياب والدتى «
 فقال : « وهل عرفت سببا يدعو الى خروجها ؟ »
 قالت : « لم أعرف شيئا من هذا القبيل ، ولكننى رأيت منها
 ما يدل على الاضطراب والقلق منذ أصيل الأمس ، فلم أعبأ
 بذلك ، ولا سألتها عن سببه .. »
 قال : « هل رأيت أحدا جاءها بكتاب أو خطاب فى صباح
 الأمس ؟ » ..

قالت : « لم أشاهد غير بعض الخدم ممن تعودوا خدمتها .. »
 قال : « هل كان بينهم عدلان الأحول ؟ »
 قالت : « نعم ... وكان قد مضى على مدة لم أشاهده »
 فلما قالت ذلك تبادل عبد الرحمن وهانىء نظرتين تفاهما
 بهما ، فتحققا أن عدلان ، بعد أن رمى حسانا بالنبال ، جاء الى
 ميمونة وحرصها على الذهاب الى أيها خوفا من انكشاف أمرها

- ٦٩ -

هانىء ومريم

وكانت مريم تنظر الى هانىء وتتوسم فى وجهه خبرا ،
 وخاصة بعد تلك الأسئلة ، وكانت القهرمانة قد خرجت ولم يبق
 هناك غير مريم والأميرين .. فنظرت مريم الى هانىء نظرة فيها
 غنى عن كل حديث ففهم انها تسأله عما يكتمانه . فالتفت الى

عبد الرحمن ، فرآه مستغرقا في التفكير فقال له : « الأرجح ان تلك الخائنة علمت بافتضاح أمرها ففرّت الى أبيها ، ولكنها لن تنجو من حد هذا السيف بأذن الله ... »

قبعت مريم لما سمعته لأنه يناقض اعتقادها في ميمونة وظهرت البغته على وجهها بما تصاعد اليه من الدم ، وأبرقت عيناها والتفتت الى هانيء وسألته قائلة : « وما الذي حدث حتى استوجبت هذه المسكينة غضب الأمير ، وعهدى انها من أشد الناس غيرة وأصفاهم سريرة .. ؟ »

فالتفت هانيء الى عبد الرحمن وقال : « هل تأذن لي بذلك الكتاب .. ؟ »

فاستاء عبد الرحمن من تسرع هانيء في طلب الكتاب لأنه لم يكن ينوى اطلاع مريم عليه خوفا من قلقها على والدتها ، ولم يبد استياءه مراعاة لاحساس هانيء ، ولكنه أنكر الكتاب وتظاهر انه لايعرف مكانه .. فازدادت مريم قلقا واضطرابا ، وسبق الى خاطرها ان لذلك التكتم سببا يسوءها ذكره ، ولم يخطر ببالها شيء غير والدتها ، فصاحت بلغتها المعهودة ولم تستطع امساك عواطفها : « ما الذي تكتمانه عني ..؟ هل أصاب والدتي شغ (شر) ..؟ أين هي ..؟ » قالت ذلك وأجهشت بالبكاء فأثر منظرها في هانيء ، فقال : « أطمئنك يا مريم .. ان والدتك في خير وأمان »

قالت : « وأين هي .. ؟ »

قال : « هـى فى هـذا الدير » وأشار الى دير القديس مرتين
 قالت : « ولماذا لم تأت الى هنا ، لعلها مريضة أو مسجونة
 أو ماذا .. ؟ »

فتظاهر عبد الرحمن عند ذلك بالبحث عن الكتاب حتى وجده
 فدفعه اليها وهو يقول : « هذا هو كتابها ، وفى قراءته جواب
 كاف .. »

فتناولته بلهفة ، فلم تستطع رؤية الأحرف مما غشى عينيها من
 دموع البغته والخوف والأمل والفرح معا ، فمسحت عينيها
 بكمها وقرأت الكتاب حتى أتت على آخره ، ولما وصلت الى
 قولها : « وأوصيك بفلذة كبدى مريم » صاحت : « أماء » وقد
 خنقتها العبرات ، ثم أعادت النظر الى ما ذكرته عن ميمونة
 فبهتت وحسبت نفسها فى حلم ، ثم رفعت رأسها الى عبد الرحمن
 وقد تحول حنانها النسائى الى غضب وقالت : « قبح الله تلك
 الخائنة .. قد فهمت الآن سبب اختلائها بذلك البربرى الأحول
 فى مساء الأمس .. ولكنها ستذوق جزاء تلك الخيانة ان شاء الله »
 ثم سألته عن حمل ذلك الكتاب لكى تقابله وتستزيده من أخبار
 والدتها . فقص عليها هانىء ما كان من أمره وانه مات ودفنوه ،
 فأسفت عليه كثيرا حتى بكى . ولولا انشغال خاطرها بخيانة
 ميمونة والشوق الى والدتها لنذبت كثيرا ، لأنه ربأها منذ
 طفولتها ، وكان ضنينا بها ، حريصا على راحتها وراحة والدتها ،
 ولكنها كانت فى قلق عظيم على والدتها ، وأصبحت لا تصبر عن

رؤيتها فنظرت الى عبد الرحمن بعينين يغشاهما الدمع ، وتوسلت اليه بصوت يمازجه ذل السؤال قائلة : « ألا يسمح لى الأمير بالمسير الى والدتى لأشاهدها وأقبل يدها ثم أعود ؟ »

فتأثر عبد الرحمن لسؤالها ولم يسعه الا الاجابة فقال : « لا أمنعك من الذهاب اليها ولكننى أحب أن أحافظ على وصيتها ، وقد رأيت انها ختمت هذا الكتاب بك .. »

فقالت : « لا بأس علىء باذن الله ، والطريق سهل والمكان قريب .. وكأنى أرى الدير من هنا .. »

فقال هانىء : « لا نخاف عليك بأسا بعدما شاهدناه منك فى مضيق دردون ، ولكننى أرى أن أسير فى ركابك حتى تبلغى باب الدير وأعود » . قال ذلك بنغمة التصميم القاطع ، فاستحسن عبد الرحمن رأيه فقال : « اذا كان لابد من الذهاب فانهضنا الآن حتى تصلا قبل الغروب .. هل يحتاج هانىء الى أن أستحثه لسرعة الرجوع ..؟ أما مريم فلا بأس من بقائها هناك ، بل ان الدير أكثر أمانا عليها .. »

ففرح هانىء بتلك المهمة فنهض وأمر بفرس لمريم ، فلبست ثوبها والتفت بعباءتها وركبت وركب هانىء والتف بعباءته وأصلح عمامته وساقا الجوادين سوقا حثيثا ، وقطعا النهر الصغير على جسر مما نصبوه بالأمس ، وسارا نحو الشمال الشرقى يلتزمان دير مرتين .. فبعد أن ركضا جواديهما برهة أمسكاهما ومشيا متحاذيين وقد حلت لهما تلك الخلوة فأراد هانىء مداعبة

مريم ، فقال لها : « أتعلمين ما وراء هذه الأبنية ؟ »
 قالت : « النهج الكبيغ .. (النهر الكبير) و
 قال : « وما اسمه .. ؟ »

قالت : « نهر لوار » بلفظ الراء غينا ، ولم تكذ تنطق بهذين
 اللفظين حتى فطنت للموعد المضروب لاقتراحهما هناك ، فخجلت
 وحوّلت وجهها الى عرض البر ، وأرادت تغيير الحديث فقالت :
 « وكأني أرى جند الدوق شارل آتيا نحونا »
 فبغت هائىء وتفرس فى الغبار المتصاعد وراء محلة الدير وقال :
 « لاشك انك ترين معسكر الدوق شارل .. أما الغبار المتصاعد
 فوقه فليس نتيجة السير ، ولكنهم يلعبون خيولهم على سبيل
 التمرين ... » قال ذلك وأخذ يفكر فيما يتوقعه من القتال
 الهائل فى تلك الساحة ، ولكنه كان شديد العزم قوى القلب
 لأنه لم يصادف هزيمة فى قتال بعد ، ولذلك فأول ما يسبق الى
 ذهنه عز الانتصار ..

— ٧٠ —

سالة فى الدير

وبينما هو يفكر فى ذلك اذ سمع جرسا يقرع ، فأصاخ بسمعه
 فابتدرته مريم قائلة : « هذا جرس الدير لأننا على مقربة منه »
 وكانت الشمس قد دنت من المغيب ولو التفتا اليها لرأيا شكلها

يتجسم ، وجرمها يتعاضم ، وحدتها تنفثىء حتى يخيل لهما اذا
لمساها انها لا تلدغ .. ولكنهما كانا فى شغل عن ذلك بغبار رأوه
يتصاعد فى بعض السهول من جهة الجنوب قرب معسكر أود كأن
خيالة يسوقون أفراسهم ، فحملا ذلك على ماشاهدها من معسكر
شارل . ووصلا فى الغروب تماما الى باب الدير فقرعه هانىء
فأطل الراهب البواب ، فقالت له مريم بالافرنجية انها تسأل عن
ضييفة هناك . فنزل وفتح الباب ورحب بها واستغرب ملابس
هانىء ، وخصوصا عمامته ، لأنه لم يكن رأى عريبا قط ، وان
كان قد سمع بمجىء العرب للحرب .. فترجلت مريم وهم هانىء
بوداعها للرجوع ، وقلبه لا يطاوعه على ذلك الفراق ، وكانت هى
فى مثل حاله .. فلما أراد وداعها نظرت اليه نظرة نفذت الى قرارة
قلبه .. فتحول عن جوابه ، وهو يقول : « أرى ان أوصلك
الى والدتك ، وأطمئن عليها وعليك ، ثم أعود » فاستحسن
رأيه ، وابتسمت ، ومشت .. فمشى هو بعد أن أشار الى أحد
خدم الدير أن يمسك الجوادين ، فأخذهما البواب الى الاسطبل،
ولما دخلا من الباب الثانى استقبلهما راهب آخر وسألهما عما
يطلبانه فقالت مريم : « عندكم نزيلة اسمها سالمة ؟ »
فابتسم الراهب وقال : « نعم .. » وأشار اليهما فتبعاه حتى
دخلا الدير وصعد بهما الى علية سالمة ، وكانت سالمة لا تزال
بعد ارسال حسان منفردة فى تلك العلية ، تارة تطل منها الى
النهر ، وطورا تجلس على الأرض تفكر فى مريم ، وقد ذاب

قلبي لفراقها ، وكانت لم تفارقها قبل هذه المرة قط . ثم تستقل بأفكارها الى ما تكتمه في صدرها ولم يحن وقت كشفه ، وتخشى أن يطول وقته أو تحول الأقدار دون ذلك فتذهب مساعيها أدراج الرياح ، ونهضت في صباح ذلك اليوم منقبضة النفس ، فنزلت الى الكنيسة لاستماع الصلاة ، وتخشعت في صلاتها كثيرا ، ودعت لابنتها بالسلامة ثم صعدت الى عليتها فأحست كأنها في سجن ، مع انها في أحسن غرف الدير وأكثرها انطلاقا .. ولكن السجين سجن الآرادة ، فقد يحبس الانسان نفسه بإرادته نأيا ما في مكان مظلم وهو يعد نفسه مطلقا ، فإذا حكم عليه بالحبس يوما واحدا ولو في أفخم القصور فإنه يعد نفسه سجيناً ولما عادت من الصلاة وصعدت السلم ، جدتها نفسها أن تطل على سهل توريس لعلمها ترى رسولا قادما ، أو تقتنسم ريح ابنتها حين ترى معسكر العرب عن بعد .. فبشت حتى أطلت من سطح الدير على ذلك السهل ، وعرفت مكان كل من العرب والافرنج فخفق قلبها لما تتوقعه من القتال هناك . ثم عادت الى عليتها ، وقد أخذت هواجسها تتزايد .. فلما كان الغروب أحست بزيادة الانقباض وشعرت بضيق وقنوط . وساعة الغروب أثقل ساعات اليوم على الانسان ، وهو حر طليق .. فكيف اذا كان سجيناً . فهمت بالخروج للصلاة ، فسمعت وقع أقدام على السطح ، فخفق قلبها ووقفت لترى ماذا يكون ، فلما سمعت الخطوات تقترب نحوها تزايد خفقان قلبها ، وأخيرا سمعت قرع الباب

وكأنهم قرعوا صدرها . فنهضت وركبتها ترتجفان وفتحت الباب ، فاستقبلها الراهب وأشار بيده الى رفيقيه . فلما رأت ابنتها صاحت : « مريم » وألقت بنفسها عليها وجعلت تقبلها وتتحسس جسمها ، والدموع تتساقط من عينيها ، حتى كاد يغمر عليها ، ومريم تقبلها وتقبل يدها ودموعها تتساقط بهدوء ثم دخلتا العلية وهانئ لا يزال بالباب فقالت مريم : « هذا هو الأمير هانئ .. جاء ليوصلني ويراك ثم يعود » فرحبت به وأثنت عليه ودعته للدخول فقال : « لا بد لي من سرعة الرجوع لأننا في حال يدعو الى التيقظ .. كيف أنت ؟ لقد وصلنا كتابك وشكرنا فضلك واهتمامك .. » قالت : « وماذا فعلتم بتلك الخائنة ؟ » قال : « لم نجد لها في المعسكر مع أنها كانت فيه الى أمس .. يبدو أنها علمت بكتابك ففررت الى أيها » .. فضربت سالمة كفا بكف وصاحت : « نجت الملعونة .. ! الظاهر ان شيطانها الأحول أخبرها بخبرنا ، فأيقنت باكتشاف أمرها فهربت . » فقالت مريم : « قبح الله ذلك الاحول ، فانه السبب في شرور كثيرة .. ولو علمت ما فعله هذا الشيطان لحزنت » قالت سالمة : « وما الذي فعله ؟ » قالت مريم : « انه رمى حسانا بالنبال ، وهو ذاهب من عندك ، فأصاب جنبه ، فقاوم ذلك المسكين آلامه وأسرع حتى

أدرك معسكر العرب وهو في آخر رمق من الحياة ، فبلغ الرسالة ومات .. »

فصاحت سالمة : « مات ؟ .. حسان مات ؟ .. »

قالت مريم : « نعم يا أماء .. مات أشرف ميتة .. مات شريفاً أميناً صادقاً وقد قاموا بواجب غسله ودفنه رحمه الله .. »
فأطرقت سالمة وسكتت ثم هزت رأسها وهي تقول بصوت خفيض : « مسكين حسان .. مات ولم يشاهد حفيده بعد أن علم ببقائه حياً ، ولا شاهد نتيجة انتظارنا الطويل لهذه الواقعة الهائلة .. »

- ٧١ -

دعوة خطرة

وكان هانيء قد دخل الغرفة وذهب الراهب قاتاهم بالشمع فأضاءوه وغرسوه في مشمعة ناتئة من الحائط وعاد الراهب . وكانت مريم تفكر في صلتها بهانيء لأنها أحبتة ووالدتها لا تعلم . وقد أوضعتها إلى أمها وسيرجع قريباً ولا طاقة لها بفراقه ، وهي تريد أن تستطلع رأى والدتها بشأنه ، فإذا لم توافقها على حبه كانت المصيبة كبيرة عليها . وأرادت من ناحية أخرى أن تشغلها عن حديث حسان ، فقالت : « ألا تعرفين الأمير هانثا يا أماء ؟ »

فابتسمت وقالت : « كيف لا أعرفه ؟ .. أليس هو الذى
أخذنا من ذلك الأمير البربرى ؟ .. »

قالت : « بلى .. وهو أكبر أمراء جند العرب بعد الأمير
عبد الرحمن . والأمير عبد الرحمن يحبه ويعتمد عليه لأنه أمير
الفرسان ويده اليمنى فى تدير الجيش »

فخجل هانىء من هذا الاطراء وأحب أن يعترض ليخفى
خجله ، فلم تمهله سالمة فقالت : « لم يخف على شيء من شأن
هذا الأمير وقد صحبتته فى مهمة الى اسقف بوردو .. ألا تذكرين
ذلك ؟ .. »

فانشرح صدر مريم واطمأن بالها وهمت بالانتقال الى ما وراء
ذلك فسمعت دبدبة وضوضاء فتوقفت ، وأنصتوا جميعا .. ثم
سمع هانىء جواده يصل صهيلا متواصلا كأنه يطلب النزال
فوقف هانىء وهو يقول : « أرى جوادى يدعونى الى النزال
وهو ينبهنى الى سرعة الرجوع .. »

وما أتم كلامه حتى سمعوا خطوات قادم على السطح ، ثم
فتح الباب ودخل الراهب رفيق حسان ، وكانت سالمة تحسب
أنه قد سافر معه .. فلما دخل رحبت به ودعته للجلوس ، فاذا
هو يهم بالكلام والبغلة ظاهرة فى وجهه وكأنه أراد أن يتكلم
فارتج عليه فظنته أمسك حياء من الحاضرين ، فقالت له بالفرنسية :
« تفضل يا حضرة الأب ، أخبرنا بما عندك وليس هنا أحد غريب »
فقال ولسانه يتلجلج : « كلفنى رئيس هذا الدير أن أبلغك

أمرا يعز على أن أنقله اليك ... »

فخفق قلب سالة ومريم ، أما هانىء فلم يفهم شيئا لأنه لا يعرف الافرنجية ولكنه لاحظ من تغيير الوجوه ما أقلقته ، فقالت سالة : « قل يا حضرة الأب ... »

قال : « ان الدوق أود بعث بكوكبة من الفرسان بالعدة والسلاح وقد وصلوا الى الدير ومعهم رسول يحمل كتابا الى حضرة الرئيس يطلب منه فيه أن يبعث بك اليه . ولما علمه الرئيس من دالتى عليك فقد بعث الى وأطلعنى على ذلك الكتاب وتشاور معى فى شأنه ، فأشرت عليه أن يمتنع عن تسليمك . فأظهر انه يرغب فى ذلك من صميم قواده .. ولكنه يخشى العاقبة ، وهو لا يدرى لمن تكون الغلبة فى الحرب القادمة ، وواجباته تقضى عليه أن يكون نصيرا للافرنج . ثم كلفنى أن أكون أنا برفقتك من قبله لأوصى الدوق أود برعايتك ، واذا شئت أخذنا من الرئيس كتاب توضيحية بشأنك أيضا »

وكان الراهب يتكلم ولسانه يكاد يتلعثم ، والتأثر باد فى كل حركة من حركاته ، وكانت سالة ومريم تصغيان وقد شخص بصرهما فى الراهب كأنهما أصيبتا بالجمود ، فلما فرغ من قوله وقف شعرهما وخصوصا مريم ، وكان هانىء ينظر اليهما ويقرأ تلك العواطف فى وجهيهما ، فلما فرغ الراهب من الكلام قال هانى : « ما الخبر ؟ »

قالت مريم : « ان الدوق أود بعث الى رئيس هذا الدير

يطلب والدتي منه »

قال هانيء : « وماذا يريد منها ؟ »

قالت : « يطلبها لغرض لا نعلمه .. »

قال هانيء : « لا تذهب ... »

فقالت نسالة : « بل أرى أن أذهب لأنني لو أبيت الذهاب

لأخذوني قهرا ... »

فصاح هانيء : « قهرا ؟ .. يأخذوك قهرا وهانيء معك ؟ .. »

ذلك لا يكون أبدا ... »

ووقف ويده على قبضة حسامه ، وقد أخذ الغضب منه

مأخذا عظيما ..

ففرحت مريم بما أبداه هانيء من الحمية بشأن والدتها ، ولم

تكن هي أقل حمية منه فقالت : « كيف نسمح يا أماء أن

يأخذوك أسيرة ولو كانوا ألوفاً .. اننا سندافع عنك الى الموت »

فقالت : « أعلم ذلك ولكن شروط الحرب تقضى علينا الا

تعرض أمير فرسان العرب وعمدة أمرائهم لشرذمة من الافرنج

فربما أصابه أحدهم بنبل ، كما أصابوا حسانا بالأمس ، فيذهب

الأمير هانيء رخيضا — لا سمح الله — وهو عميد جند العرب

وقائدهم وواسطة عقدتهم فكأننا عرضنا الجند للخطر ... فاذا

كنتما تحبلتنى فأطيعاني فيما أقول ولا تخافا عليَّ بأسا لأنني

سأسير مكرمة ، وسيكون معي حضرة الراهب ، وسأحمل من

رئيس الدير كتاب توصية أو نحوه بحيث لا أخشى ضررا . بل

أرجو أن أخدم العرب وأنا هناك خدمة لا أستطيعها وأنا معكم..
ومع ذلك فلا حيلة في قضاء الله ... »

فقال هانيء : « انك تحاولين محالا.. هل أكون حاضرا وتساقين
أنت أسيرة ؟.. لا يكون ذلك أبدا .. والله لأعملنَّ السيف في
«الفرنج ولو كانوا ألوا ... »

فقطعت سائلة كلامه قائلة : « اذا فعلت غير ما أقوله فانك
تكدرنى وأنا أعلم انك لا تريد ذلك .. ان الدوق أود يعرف
عنى أكثر مما تعرف أنت أو تعرفه ابنتى هذه .. وهو لا يطلبنى
اليه ليسوءنى ، ولو كان غرضه ذلك لفعله وأنا سجينه عنده الى
الأمس . دعنا الآن من هذا البحث ، وأرغب اليك بشرف العرب
وعز الاسلام أن تطيعنى في ذلك ، وقد آن لى الأوان أن أطلعكما
على شىء جديد حفظته سرا منذ أعوام .. » ثم التفت الى الراهب
وقالت : « قل لحضرة الرئيس انى أتأهب للخروج حسب أمره
بعد ساعة أو ساعتين لغرض لى مع ابنتى هذه قبل سفرى »
فحنى الراهب رأسه وخرج ..

- ٧٢ -

سر جديد

وبعد خروجه نهضت سائلة وأصلحت رداءها كأنها تستعد
للخروج ، وجعلت تخطر في أرض الغرفة ذهابا وإيابا ثم وقفت

الى النافذة وأطلت على النهر ، ولبثت صامته ومريم وهانىء ينتظران ما تقول ويعجبان لتلك الحركة وذلك السكوت ، ثم تحولت عن النافذة ، وأقبلت اليهما وقد تغيرت ملامحها وتقطبت أساريرها ، وظهر الاهتمام فى عينيها ، وذهب ما كان يبدو على محياها من الابتسام وقد تحول الى هيبة وغضب .. فلما رآها هانىء على تلك الحال تهيّب والتفت الى مريم فرآها أكثر اهتماما منه ، ولكنهما ألجما عن الكلام وأصابهما ذهول . وأما سألمة فنظرت الى مريم وخاطبتها قائلة : « أتعرفين من هو والدك يا مريم ؟ » ..

فقالت : « لا يا أماء » وتوردت وجنتاها من الخجل ، وبغيت لذلك السؤال على غير انتظار ، ولم يكن هانىء أقل استغرابا منها ولكنه ظل صامتا ليرى ما يكون

قالت سألمة : « أتعرفين من هى والدتك ؟ »

ثم التفتت سألمة الى هانىء وقالت : « اعلم يا بنى انى أوّتمنت على هذا السر منذ نحو عشرين سنة ، على ألا أبوح به الا لقائد جند العرب بعد عبور هذا النهر ، ولكن قضت الأحوال أن أبوح ببعضه قبل ذلك الحين للأمير هو على ما أعلم يتلو القائد الأكبر ، وللضرورة أحكام .. لقد ضاق صدرى عن كتمان هذا السر بعد هذا الزمن الطويل وقد استخرت روح ذلك العزيز صاحب هذا السر أن أكشفه فى هذه الساعة لابنتى ولك يا هانىء ، على شرط أن تحتفظا به حتى تبلغاه الى الأمير عبد الرحمن بعد هذه

الوقعة ، وليس قبلها .. فاصغيا الى ... »
 وكانت تتكلم ، وهانىء شاخص ببصره ، ومريم يكاد الدم
 يجمد فى عروقها لفرط تأثرها من منظر أبها ، وما شاهده فى
 وجهها من المعانى التى لم تلمسها من قبل ..
 فجلست سائلة وأصلحت ثوبها وأخذت تقص حديثها فقالت
 وهى توجه خطابها لمريم : « أنت تعلمين يا مريم ان والدتك
 سائلة ولكنك لاتعرفين من سائلة هذه .. وقد سألتك عن والدك
 فقلت انك لاتعرفينه لأنه توفى وأنت طفلة ولم أذكره لك قط ،
 ولم يكن أحد يعرف نسبك غير ذلك الشيخ المسكين حسان وقد
 قتل ، ولو أصبت أنا بنبلة لذهب هذا السر أدراج الرياح ..
 ولذلك عجلت فى كشفه لصاحبه . فاعلمى يا مريم ان أمك التى
 تسميتها سائلة هى اجيلا زوجة رودريك ملك الأسبان الذى قتله
 العرب فى وقعة فحص شريش منذ بضع وعشرين سنة عندما جاء
 طارق لفتحها ..

» وبعد أن قتل رودريك المسكين جاء موسى بن نصير فأتى
 الفتح حتى بلغ طليطلة ، عاصمة اسبانيا فى ذلك الحين ، وكنت أنا
 هناك فانطويت على نفسى بعد وفاة زوجى وأقمت مكرمة وعشت
 فى هناء ورغد كما كنت فى أيامه ، وكانوا يسموننى أم عاصم ولم
 يمسنى أحد بسوء ، لأن موسى - رحمه الله - كان عادلا رفيقا
 يعلم كيف يفتح البلاد .. ولكن مدة حكمه لم تزد على بضع سنين
 اذ وشى به الواشون ، فاستقدمه الخليفة الى الشام وسجنه . وكان

تصب عيني موسى بعد أن فتح الأندلس وجمع غنائمها أن يواصل
 بالفتح فيما وراءها حتى يبلغ القسطنطينية ويتقدم منها الى الشام،
 ويفتح ما في طريقه من البلاد (١) حتى يصير البحر الأبيض مخاطا
 بالمسلمين من كل جهة ، ولو فعل ذلك يومئذ لكان هينا على
 المسلمين لأن البلاد كانت ضعيفة مفككة والحكام في انقسام ..
 » فلما أخذ موسى الى الشام استخلف على الأندلس ابنه عبد
 العزيز بن موسى (قالت ذلك وتنهدت) وكان عاقلا حكيما
 عادلا ، وقد أطلعه أبوه على ما كان في عزمه من فتح هذه البلاد
 التي يسميها العرب الأرض الكبيرة . وكنت أنا لا أزال في طليطلة
 فلما تولى عبد العزيز ورآني ورأيتني أحببته فطلب
 الزواج مني ، ولم أكن أطمع في رجل أرفع منه مقاما . فقبلت
 على أن أبقى على النصرانية ، فرضي ولكنه علمني الاسلام فوجدته
 كثير الشبه بمذهب أجدادنا القوط (الأيوسية) . ثم انتقل بي
 الى اشبيلية فأقمنا هناك بضع سنوات كان في أثنائها مثال العقل
 والحزم ، وقد أسر الى أمور كثيرة كان عازما على القيام بها
 خدمة للعرب والمسلمين ، أهمها فتح هذه الأرض الكبيرة (أوربا)
 وقد كان ذلك هينا كما قدمت ، وخصوصا لعبد العزيز، لأنه -
 رحمه الله - كان يعامل أهل البلاد بالعدل والحسنى والرفق ،
 فأصبح الناس على اختلاف طوائفهم يحبونه . وشاع ذلك عنه
 الى أقصى بلاد النصرانية ، ولو طال مقامه لفتح هذه البلاد في غير

(١) نفع الطيب ١١٠ - الجزء الاول

عناء لأن أهلها كانوا ينتظرون من يمكنهم من حقوقهم وحریتهم ،
ولا عبرة بمذهبه عندهم .. وكثيرا ما كان عبد العزيز يحدثني عن
رغبته في ذلك الفتح ، وأنا أحثه على اكرام الأهالي والاحسان
اليهم وهو يطيعني لما يترتب على ذلك الاحسان من الكسب
العظيم . وقد بذل جهده من الجهة الأخرى في جمع كلمة المسلمين
من العرب والبربر وغيرهم ، لأنه بغير هذا الاتحاد لا يستطيع عملا
« وانه لفي هذه الآمال اذ وشى به الحساد كما وشوا بأبيه
واتهموه بأنه طامع في الملك لنفسه ، وقد بنوا أدلتهم على محاسنته
أهل البلاد ، وقالوا اني سيطرت على عقله حتى حملته على أن
يرغم أصحابه ورعيته على السجود له اذا دخلوا عليه ، كما كان
يفعل زوجي رودريك على زعمهم . ومن مفترياتهم اني جعلته
يفتح بابا قصيرا في مجلسه الذي يجلس فيه حتى اذا دخل أحدهم
منه طأطأ رأسه كالراكع (١) . والله يعلم انهم افتروا على ذلك
الافتراء ولم يفقهوا سر الأمر . ولما نفذت الوشاية به عند الخليفة
لم يوفدوه اليه كما فعلوا بأبيه ولكنهم دسوا له من قتله وهو
في المسجد (٢) وا لهفي عليه »

وتوقفت عن الكلام برهة ، ثم شرقت بريقها .. وهانيء ومريم
كأنهما في حلم .. لا يجرؤ أحدهما على التلطف لئلا يقطع كلامها .
فقلت وهي تنظر الى مريم وتحاول الابتسام : « وكنت قد

(١) ابن الأثير - الجزء الخامس

(٢) جاء في مكان آخر من هذه الرواية انهم قتلوه في طليطلة والصواب في اشبيلية

ولدت منه وقد بلغت السنة الثالثة ، وكان يحبك حبا لا مزيد عليه خلافا لمن ولد له من النساء الأخريات ، وكان لا يهنا له عيش الا اذا قبلك وضمك الى صدره صباحا ومساء ، واذا رجع من مجلسه وأتى قصره جعل يلعبك ويبذل جهده فيما يرضيك حتى نسينى من أجلك . فلما علم بما نصبوه له من الحبائل وتحقق من وقوع القضاء دعانى ليلة مقتله قبل نزوله الى المسجد ، فأتيته وأنت على ذراعى فتناولك وجعلك فى حجره وطفق يقبلك ويكى بكاء مرا وهو يشفق شهيق الطفل ، فانخرطت فى البكاء معه لأنى أحبيته حبا كثيرا لما رأيته من صدق محبته وكبر نفسه وحسن قصده ، وبعد أن بكى وودعك نادى حسانا وأوصاه بى وبك ثم التفت الى وقال : « لقد أبى هؤلاء القوم الا أن يضيعوا تعبى ويفسدوا ما هيأته لدولتهم مما لم يكونوا يحلمون به . أما موتى فبقضاء الله وقدره فلا اعتراض لى عليه ، ولكننى أشفق على ما أضاعوه وسيضيعونه بقتلى مما دبرته لهم ، لأنى لا أظنهم سيوفقون الى رجل آخر يغار على الاسلام غيرتى ويهيب له مثل ما هيأت من الظروف المساعدة على الفتح .. وهى ارضاء الأهالى وجمع كلمة المسلمين وتوفير الأسباب الأخرى المؤدية الى ذلك » ثم أشار اليك وقال : « لو كانت هذه الحبيبة غلاما لأوصيتك بتربيته لهذه الغاية . سأموت فى الغد أسفا على الفرصة التى أضاعوها بجهالتهم ، ولكننى أوصيك أن تربي ابنتنا هذه تربية عربية ، وتعلمها ركوب الخيل ، ولا تخبرها من هو أبوها ، ولا

تجعلى عربيا يعرف سرها الا من توسمت فيه الغرض الذى ذكرته وتوفرت فيه الصفات المساعدة على تحقيقه .. فاذا رأيت قائدا عربيا نهض للفتح ، وقد أدرك العوامل المساعدة على ذلك ، فان هذه الفتاة تكون له زوجة أو ابنة كما يشاء »

« ولما قال ذلك أخرج من جيبه هذه المحفظة (وأخرجت هي المحفظة من جيبها) ودفعها الىّ وهو يقول : « واذا وفقّ المسلمون الىّ ذلك الرجل ، فانه فاتح هذه البلاد لا محالة ، فاذا تمكن من الفتح حتى بلغ نهر لوار فقضى عليه خبرى وأطليه على وصيتى وسلّمنى هذه الابنة له ومعها هذه المحفظة فان فيها ما ينفعه وينفع المسلمين » فأخذت المحفظة وحفظتها معى من ذلك الحين ، ولم تفارقنى يوما واحدا ولا ساعة واحدة وأنا لا أعلم ما فيها . فلما قتلوه تلك القتلة الشنيعة — سامحهم الله — لم يبق بلى عيش فى الأندلس ، فغادرتها ومعى حسان وعنده كل أسرارى ، وقد كان خادم الأمير مخلصا له رحمه الله

« وقد تولى الأندلس بعد عبد العزيز عدة أمراء وأكثرهم تحفزوا للفتح ، ولكنهم لم يظفروا به لطيشهم وتهورهم وطمعهم . حتى اذا سمعت بعبد الرحمن وما آتاه قبل النهوض للفتح من طوافه بأسبانيا وتعهدده بحكامها وعزل الضعفاء وأهل المطامع ، ومجاسنة أهلها وسعيه فى جمع كلمة الجند من العرب والموالى ، نقلت : هذا هو الرجل المنتظر .. وصبرت حتى أتى الى بوردو بفتحها وكان ما كان مما تعرفينه » ثم وجهت كلامها الى هانىء

وقالت : « فالذى أراه ان الأمير عبد الرحمن هو الرجل الذى
عناه الأمير عبد العزيز .. فمريم له وهذه المحفظة (ودفعها الى
مريم) معها أيضا .. »

« ولكن بالطبع لا يكون له شئ من ذلك الا بعد قطع النهر »
فتناولت مريم المحفظة وخبايتها بين ثيابها

- ٧٣ -

الوداع

وكانت سالمة تتكلم والعرق يتصبب من جبينها ويشرب على
خديها حتى يقطر على ثيابها ، وقد احمرت عيناها وتوردت
وجنتاها من شدة التأثر . أما مريم فانها نهضت مبهوتة وقبّلت
والدتها وهى تقول : « أنت والدتى .. الحمد لله . لقد أقلقت بالى
بسؤالك اذا كنت أعرف والدتى ، فخشيت أن أكون ابنة سواك ..
فأذن أنا عربية ووالدى أمير عربى وأمى ملكة الأسبان ... »
فقطع هانىء ألامها ، وقد غلب عليه الحب وسرّه تقويض
أمر مريم الى عبد الرحمن لسهولة الظفر بها على يده ، وقال :
« لا شك انك عربية الأصل عريقة فى الحسب والنسب » والتفت
الى سالمة وقال لها : « ان حديثك ياسيدتى قد نقش على صفحات
قلبى ، وأراك فقت العرب بحفظ الوداد ووفاء العهود ، وتفضلت
عليهم بالحب العميق لزوجك ، ونصرتهم بسعيك وفديتهم بنفسك .. »

قبورك فيك . والله لو كان في رجالنا عشرة مثلك أو مثل ابنتك
 هذه لفتحنا العالم لأحالة ، ولكننا محاطون بجماعة لا يجمعهم الا
 الجشع ، وقل فيهم من يفهم معنى الفتح والنصر ، وانما يفهمون
 الغنائم والسبايا . ونحن في كل يوم نقاسى العذاب في سبيل
 التوفيق بين قبائلهم وشعوبهم .. ولو كان أميرنا غير عبد الرحمن
 ما استطعنا الوصول الى هنا ، فنطلب اليه تعالى أن يأخذ بناصرنا
 حتى نقطع هذا النهر ، واذا قطعناه هان علينا كل عسير .. »
 والتفت الى مريم وضحك ففهمت انه يشير الى زواجهما ، ولكن
 قلقها لفراق والدتها شغلها عن الخجل

وكانت سالمة في أثناء ذلك مشغلة بمسح العرق عن وجهها
 وكأنها أحست بجمل أزيح عن صدرها بعد أن كشفت ذلك
 السر ، لكنها انتبهت للمحفظه فقالت لمريم : « أوصيك بتلك
 المحفظه ، اعتن بها ولا تسليها الا لعبد الرحمن الغافق بعد
 عبور هذا النهر »

فقالت مريم : « والآن لا بد من ذهابك الى الدوق أود ؟ »
 قالت : « نعم . ولا بأس على منه .. اطمئني واعلمي أنك في
 كفالة الأمير عبد الرحمن .. فقد أصيته بذلك من قبل »
 فتسمت من هذه التوصية ان والدتها لا ترجو اللقاء بعد هذا
 الفراق ، وأحست سالمة انها تريد مراجعتها فنهضت وهي تقول :
 « لقد آن لى اجابة طلب الدوق » قالت ذلك وضمت مريم الى
 صدرها وأخذت في تقبيلها تكرارا ، وكلاهما تبكى وهما

متعاقبتان متماسكتان كأنهما لا تريدان الفراق ، فأثر منظرهما في هانىء حتى كاد يسكى ، ثم خاف عليهما فتقدم وفرق بينهما فرأى عيني سائلة حراوين من شدة البكاء ، وهى مع ذلك تنظر الى ابنتها وتبتسم ومريم تقول لها : « قلت ان هانئا لا يجب التفريط فيه لحاجة الجند اليه .. وأنا ما الفائدة منى ؟.. دعيني أسير حيثما تسيرين »

فقطع هانىء كلامها قائلاً : « ان الجند لا ينفع شيئاً ، ونك » ففهمت ان هانئا لا يريد فراقها وتذكرت شدة حبه لها فهان عليها فراق والدتها ، وسمعتة سائلة يقول ذلك فأدركت أنه يحبها ولكنها كانت تثق فى شهامته وتعلم منزلته عند عبد الرحمن ، وازدادت ثقة به حينما رأت عبد الرحمن قد أذن له أن يرافق مريم الى هذا الدير

ولما استعدت للخروج قالت لهانىء : « اذهب أيها الأمير بمريم قبل ذهابى .. »

قال : « العفو أيتها الملكة الجليلة .. انى لا أخطو خطوة قبل أن أراك ذاهبة بأكرام ورعاية ، والا فانهم لن يأخذوك وفى عرق ينبض .. »

قالت : « ثق بأنى سأذهب مكرمة ، وسأقيم هناك لا أقول مكرمة ولكنى لا أخاف بأساً لأن أود يعرف من أنا وأرجو أن يكون بقائى فى معسكر أود هذه المرة مشمراً مثل بقائى المرة الماضية ، فقد كشفت فيه سرا أبعد عنا شراً عظيماً »

قال : « ربما كان ذلك ، ولكننى أستحى من نفسى أن أخرج من هذا الدير وحوله الجند يطلبونك .. فإذا كنت لا تسمحين أن أمنعهم من أخذك أفلا تأذنين لى أن أراك ذاهبة معهم ؟ »

قالت مريم : « ان هائثا مصيب فى رأيه »

قالت سالمة : « فلأذهب اذن لرئيس الدير لأودعه ، فانتظرانى فى الحديقة .. » قالت ذلك وخرجت فتبعها فتحولت هى الى غرفة الرئيس ، ونزلا هما الى الحديقة وكانت مضيفة بالاقباس . وطلب هائث من البواب أن يحضر الجوادين ، فأمر فجىء بهما فدفع هائث اليه صرة فيها دنائير فاستأنس البواب بذلك الكرم وأمر الخادم أن يحسن العناية بالجوادين ، فوقف بهما وجواد هائث يتجلى كالمعروس بما عليه من العدة المتقنة وما فى عنقه من القلائد والعقود ، وما على عدته من الأحجار الكريمة ، وخصوصا اللؤلؤة الكبيرة المصاغة على شكل النجمة فوق جبهته ، ناهيك بلبجامة المذهب وما على صدره من سلاسل الفضة ، وهو أدهم شديد السواد فأصبح كأنه ليل تتلألأ فيه النجوم ، وكان هائث واقفا الى جانبه ينظر اليه نظرة والى مريم نظرة أخرى . ولم يبق أحد من أهل الدير فى تلك الحديقة أو بقرب الباب الا وقد جاء ينظر الى الأدهم والى صاحبه ، وكلاهما غريب فى نظرهم .. وكأن الأدهم أدرك اعجاب الناس فازداد دلالا وأخذ يضرب الأرض يميناه ويصهل ويشخر، كأنه يطلب النزال أو كأنهم فهم من سهيل الخيول حول سور الدير انهم أعداء صاحبه فأخذ يهددهم به .

أما مريم فقد كادت تنسى فراق والدتها قبل ذهابها لانشغال
خاطرها بحب هانىء وخاصة بعد هذه السفرة ، وقد تحققت من
انها عربية الأب ملوكية الحسب فتذكرت المحفظة فافتقدتها ..
وعادت الى هواجسها

وبعد قليل سمعوا ضوضاء داخل الدير ، ثم خرج بعض الخدم
يحملون الشموع ووراءهم جماعة من الرهبان يسرون بين يدي
سالمة ورقيقها الراهب ، وساروا بهما الى باب السور فمروا بهانىء
ومريم فحيتهما سالمة ، ومشيت حتى خرجت من الباب وكانوا قد
أعدوا لها جوادا ركبته وركب الراهب جوادا آخر ، ونفخ في
البوق فاجتمع الفرسان الافرنج ومشوا الى جانبها وبعضهم الى
ورائها برعاية واکرام ، وهانىء ومريم ينظران . وأحست مريم في
تلك اللحظة أن أمها اقتلعت من قلبها ، فغلب عليها البكاء ولكنها
كتمت بكاءها ..

- ٧٤ -

ضوء القمر

أما هانىء فبعد أن سار الراكب بسالمة ركب جواده ، وأشار
الى مريم فركبت جوادها فخرجا وتحولا نحو المعسكر، فلما بعدا
عن الدير أحسّا بالانفراد . وكان الليل مقمرا وقد صفا الجو
وهدأت الحياة وسكن الهواء كأن الطبيعة قد شاركتها في التهييب.

والاعتبار . فلم يسمعا الا وقع حوافر الجوادين على التراب ، وكأن الجوادين قد أحسا بما يتقد على ظهريهما من لواعج الغرام فاعتبرا وطأطآ ومشيا مشية الاحترام - والحب سلطان تطأطىء له الرءوس - وظل الحبيبان مدة صامتين تهييا من منظر الطبيعة وتفكيراً فيما رأياه وسمعاه تلك الليلة من الأمور الهامة ، وقد سرهما الاطلاع على ذلك السر فأصبح ارتباطهما بعده من الأمور الهامة ، وقد علما انهما أقرب نسباً وأوثق عهداً ، وأحست مريم انها مطالبة بنصرة العرب عملاً بوجبة والدها

فلما اقتربا من المعسكر رأيا نيرانه ، ولم تكذ تظهر لهم عن بُعد لتغلب ضوء القمر .. فأسف هانىء لوصوله الى المعسكر قبل أن يخاطب مريم فى شىء بعد ما عرفه من أمرها ، فأمسك شكيمة جواده ليسير الهوينى فاقتدت به مريم وهى تتوقع أن تسمع منه شيئاً فاذا هو يقول على سبيل المداعبة : « أراك صامته يا مريم .. أعل ما علمته من شرف أصلك خفف شيئاً من حبك ؟ » فأوقعت جوادها بغتة ونظرت اليه كأنها تستطلع قصده من تلك العبارة ، فلما رآته يتسم علمت انه يمازحها ولكنها قالت : « اذا علمت بشرف أصلى فلا فضل لى فى شرف ورثته من الأجداد ، وانما الشريف من نال الشرف بعد حسامه كما ناله الأمير هانىء » . فقال وقد هاجت عواطفه وهو يمسك الجواد عن المسير والجواد لا يطيعه : « فأنت اذن صاحبة الشرف طارفا وتليدا فقد رأيت منك فى وقعة دردون ما تعجز عنه أعظم

الفرسان ، فسبحان من جمع فيك شجاعة الرجال ورقة النساء «
فقطعت كلامه قائلة : « انى لم أفعل شيئا يا هانىء ، واذا
ساعدتنى الأقدار سأتفانى فى تحقيق وصية أبى ولو لم أكن رجلا
كما قال ، فان الشجاعة ليست وقفا على الذكور دون الاناث ..
آه يا هانىء .. » وسكتت كأنها تكتم أمرا

فنظر اليها هانىء والقمر تجاه وجهها ، وقد وقعت أشعته على
محياتها وحوله النقاب الأسود ، ولو رآها شاعر عربى لقال : تقايل
القمران . والحقيقة ان القمر ليس له ما فى وجوه الملاح من المعانى
الجاذبة والخالصة . وبخاصة فتاتنا العربية سلالة الملكين ، فقد كان
فى وجهها فضلا عن الجمال ملامح الهيبة والذكاء ، وجاءهما الحب
فزادهما رونقا وزاد المحب افتتانا . فنظر هانىء الى وجهها وقد
أطرقت ، كأنها تكتم أمرا يمنعها الحياء من افشائه ، وتشاغلت
باصلاح الشعر على عنق جوادها . والجواد مستأنس بمرور
أناملها على عنقه . وأراد هانىء أن يسألها عما تكتمه فإذا هو
بفارس قادم عليهما من جهة دير مرتين ينهب الأرض نهبا ، فأمنسك
هانىء جواده وتفرس فى القادم فما لبث أن عرف من زيّه أنه
أفرنجى ، ورأى معه علما أبيض فتحقق انه رسول من شارل .
ولم يكن هانىء يعرف الإفرنجية ، فلما دنا الفارس منهما أمسك
شكيمة جواده ومشى الهوينى فخاطبته مريم بالافرنجية قائلة :
« من الرجل ؟ »

فقال : « انى رسول من الدوق شارل الى الأمير عبد الرحمن

فأين هي خيمته ؟ »

فأفهمت هائثا ما قاله فقال : « انها رسالة ذات بال والأحسن أن نسير به لنرى ما سيكون »

فقالت مريم للرسول : « نحن ذاهبان اليه .. فتعال في أثرنا » ومشيا وقد انصرف خاطرهما الى ما يهدد هذا الجند من الأمر العظيم ، وتذكرت مريم حسانا لأنها كثيرا ما كانت تراه قادما بمثل هذه المهمة ، فما تمالكت أن قالت : « مسكين يا حسان .. » وكان هانيء كله آذان لسماع أية كلمة تخرج من فم مريم ، فلما سمعها تذكر حسانا تذكر عبارة قالتها سالمة في ذلك النهار عندما سمعت بمقتل حسان ، فقال هانيء : « سمعت والدتك تقول لما علمت بمقتل حسان انه مات ولم ير حفيده .. فمن هو حفيده ؟ » قالت : « علمت من بعض ما كان يدور قديما بين حسان ووالدتي انه كان له ابن سار في حرب لا أدري ما هي ، وكان لابنه غلام فقده في تلك الحرب ضياعا - وهو حفيده - وكان حسان كثيرا ما يتحسر لضياع ذلك الغلام ولأنه لا يعرف مقره . فلما قالت والدتي تلك العبارة ظلت في خاطري وسألتها تفسيرها بعدئذ ، فقالت انها عثرت على الغلام المذكور في معسكر أود وقد صار شابا والافرنج يحسبونه منهم ويسمونه رودريك ، وانها تركته في معسكر أود عند فرارها ولم تعلم بمقره . وكان هانيء قد أراد مباسطتها للتلذذ بألفاظها ولثغتها ، ولم يكن يهمه أمر حسان كثيرا .. لكنه عندما سمع حكايته أسف لفقده ..

فلما اقتربوا من المعسكر ، أمسك هانيء شكيمة جواده ونظر الى مريم ، فأدركت انه يريد أن تنصرف الى الأخبية حيث تقيم النساء فقالت : « هل أذهب الى الخباء ؟ »

قال : « نعم يا حبيبتى لتكونى هناك فى مأمن حتى يقضى لنا الله بالنصر ونذهب معا الى نهر لوار ، وأرجو أن يكون ذلك قريبا .. »

قالت : « أما اذا خيرتنى فانى أفضل البقاء هنا لأمر أرانى مسئولة عنه مثل مسئوليتك ، أو مسئولية الأمير الكبير ، ولكن الطاعة واجبة .. فالآن لا ينبغي أن تنسى السر الذى عهد الينا بحفظه ولا بد من كتماننا الى حينه » قالت ذلك وافتقدت المحفظة فوجدتها ...

فقال هانيء : « هل أرسل معك بعض الحراس ، لا أقول لحراستك لأنك فى غنى عن ذلك وانما أرسلهم لخدمتك ..؟ » فقطعت كلامه قائلة : « لا حاجة لى بالخدم يا هانيء ، وأنا سائرة فى ظلك ، وأنت معى أينما توجهت » . قالت ذلك وأومأت برأسها للوداع ، وأدارت شكيمة الجواد وانصرفت نحو الأخبية. فلما توارت عنه عاد الى الفارس وسارا معا حتى دخلا المعسكر ولم يعترضهما الحرس لأنهم عرفوا الأمير هانئا من أدهمه .. حتى اذا وصلا فسطاط الأمير ترجل هانيء وهو يستنفس من الحاحب : « هل عند الأمير أحد ؟ .. » فقال : « كان الأمراء عنده منذ هنيهة وانصرفوا »

رسالة من شارل

فدخل هانىء وأشار الى الرسول بالبقاء خارجا ، وكان عبد الرحمن جالسا وقد سمع صوت هانىء قبل دخوله ، فصاح فيه صيحة الوالد بولده : « ما الذى أخرك يا هانىء ؟ .. لقد شغلت بالناس .. »

فقص عليه ما حدث بعد وصولهما الى الدير ، وكيف بعث أود جندا أخذوا سالمة اليه ، وكيف أراد انقاذها وهى لم ترض . ولكنه لم يذكر شيئا عن السر ، وأخبره ان مريم رجعت معه وقد توجهت الى الأخبية الى أن قال : « وقد أتيتك برسول من قارله (شارل) قائد جند الافرنج أظنه يحمل اليك كتابا وهو بالباب الآن .. هل يدخل ؟ »

فصفق عبد الرحمن فدخل أحد الحجاب من غلمانه فقال له : « ادع لنا أحد المترجمين فاذا جاء فادخله مع الرسول » . فخرج الغلام وظل عبد الرحمن صامتا كأنه بُغِت لخبر جديد ، ولم يكن هناك شيء جديد ولكنه تنسم رائحة القتال وتمثل له عظم الأمر الذى هو قادم عليه .. وأدرك هانىء اهتمامه ، فتهيَّب وظل ساكنا حتى عاد الغلام ومعه الترجمان وهو من يهود اشبيلية وكان يعرف عدة لغات ، وللمسلمين ثقة كبرى فيه مثل ثقتهم فى سائر

يهود الأندلس ، لأنهم كانوا عوناً كبيراً لهم في فتح تلك البلاد .
ثم دخل الرسول وتأدب في موقفه فسأله عبد الرحمن بواسطة
الترجمان عن غرضه فقال : « انه قادم برسالة من الدوق شارل
صاحب أوستراسيا » . فقال عبد الرحمن : « وأين الرسالة ؟ »
فمد الرسول يده الى شبه خرج معلق تحت ابطه وأخرج منه
لوحة ملفوفة بمنديل من الحرير الأحمر ، وقد شدة حول المنديل
شريط من الحرير الأزرق . فتناول عبد الرحمن الرسالة وأشار
الى الرسول فخرج . ثم حل الشريط وفتح المنديل وأخرج ما فيه
وهو عبارة عن لوح من الخشب الرقيق مكسو بالشمع ، وقد
كتب عليه حفراً في ذلك الشمع على عادتهم في مكاتبات تلك
الأيام في أوروبا .. فلما ظهر اللوح ، علم عبد الرحمن — قبل أن
يقرأها — انها رسالة افرنجية لعله ان العرب يكتبون على الجلد
أو القرطاس أو النسيج .. فدفع اللوح الى الترجمان فقرأه ،
وهاك ترجمته :

« بسم الآب والابن والروح القدس
« من الدوق شارل قائد جند الافرنج وصاحب أوستراسيا الى
الأمير عبد الرحمن قائد جند العرب .. أما بعد ، فان أخى
الدوق أود صاحب اكينانيا أخبرنى بما تعمدتموه من الايغال في
بلادهم لغير سبب يدعو الى الحرب بيننا وبينكم ، فأنتم انما تطلبون
الفتح التماساً للكسب ، وقد أطمعكم في ذلك ما رأيتموه من
ضعف الذين حاربتم من جند هذه البلاد الى اليوم . وقد بلغنى

ما أنت عليه من الشجاعة والتعقل وعلو الهمة فرأيت أن أنصحك
لترجع عن قصدك بدون سفك الدماء . ولا أكلفك تسليما بل
أطلب اليك الانسحاب من هذه البلاد بما تحمله من الغنائم الى
حدود اسبانيا على الأقل اذ لا قبل لكم بالوقوف أمامنا . هذه
نصيحتي لكم واذا لم تقبلوها فموعدنا في النزال قريب ..
والسلام » ..

فلما فهم عبد الرحمن فحوى الكتاب بما فيه من التهديد ظهر
الغضب في وجهه لكنه أمسك نفسه ، ونظر الى هانيء كأنه
يستشير ، فقال هانيء : « يظهر ان الرجل مغرور بنفسه فأرى
أن يكون جوابنا السيف »

فتبسم عبد الرحمن وصفق فجاء الغلام فقال له : « ادع
الأمراء للمفاوضة » فأدرك هانيء انه لا يقضى أمرا الا بالشورى
خوفا من العتاب أو الفشل . وبعد ساعة جاء الأمراء فتلى الكتاب
عليهم ، ففوضوا عبد الرحمن أن يجيب عليه .. فأشار الى
الترجمان أن يكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الرحمن الغافقي قائد جند المسلمين في اkitانيا الى
الدوق قارله قائد جند الافرنج . أما بعد ، فقد قرأت كتابك
وساءنى اغترارك بنفسك مع ما بلغنى من علو همتك وبسالتك .
أيها الدوق ، اتنا لم نجرد هذا الجند لفتح اkitانيا وحدها ولكننا
نهضنا لفتح هذه الأرض الكبيرة .. ولو لم تأت أنت للقائنا

هنا لالتقينا في بلدك ثم نحمل على رومية فالقسطنطينية حتى
يدين لنا العالم كله كما وعدنا نبينا . فننصح لك أن تعتبر بما
أصاب أخاك صاحب اكيثانيا والا فلا تلومن الا نفسك ..
والسلام » ..

ولف الكتاب وختمه وأعادته الى الرسول فحمله وعاد .
وانصرف الأمراء الا هانئا فظل عند عبد الرحمن وقد اتصف
الليل ، فقضيا ساعة في المداولة ثم انصرفا الى النوم
وقضيا اليوم التالي في التأهب وتدير الشئون . وكانا في
أصيل اليوم الثالث يطوفان بفرسيهما جناح الجند الأيسر اذ
جاءهما أحد الطلائع يقول انه شاهد غبارا يتصاعد في عرض الأفق
بجوار دير القديس مرتين ، فأدركا أن شارل لما وصله الجواب
زحف بجنده للقتال . فصعدا الى أكمة أطلا منها فرأيا غبارا
يتصاعد أيضا من جهة الجنوب حيث معسكر أود ، فعلما أن
الجيشين متحدان عليهم ، فقال عبد الرحمن : « لقد آن وقت
العمل ياهانيء وهذه جنود الافرنج قادمة ، فينبغي لنا أن نتيقظ
وتتأهب لئلا يهاجمونا على غرة ، فامض الى فرسانك واجعلهم
على أهبة النهوض وأنا ماض الى تنبيه سائر الأمراء » قال ذلك
وتحول ، فمضى هانيء في أثره ونفسه تشتاق الى النزال
على ان الجيشين لم يواصلا الزحف على العرب ، ولكنهما
عسكرا تجاه معسكرهم وما بينهما وبينه الا ساحة القتال .
فلما رأى عبد الرحمن نزول الافرنج علم انهم لاينوون الهجوم

فى ذلك اليوم فبعث الى هانىء سرا ، وبعد صلاة العشاء خرجا من المعسكر ماشيين الى أكمة قريبة كان عبد الرحمن قد عاينها بنفسه فى الأمس ، فصعدا اليها ونظرا الى ما بين أيديهما ، وقد طلع القمر وأرسل أشعته فى الفضاء فوق ذلك السهل ، فكشفت عن معسكرين : معسكر شارل فى الشرق ، ومعسكر أود نحو الجنوب ، تجاه معسكر العرب . ونظر عبد الرحمن الى مضارب دينك الجيشين وأمعن فى النظر ليقدر عددهم فوجدهم كثيرين يزيدون على جند المسلمين ، وود لو انه يلتقى بمن ينبئه عن قوة الجيشين ومعداتهم وسائر أحوالهما

وكان يفكر فى ذلك ويمشط لحيته بأنامله وهانىء واقف بجانبه يفكر فى مثل ذلك الأمر ، وقد تبادر الى ذهنه أن حسانا لو كان حيا لكان أفضل من يقوم بالاستطلاع ، لأنه يعرف لغة البلاد وعادات أهلها وهو حسن الأسلوب ذكى مخلص . فأراد أن يخاطب عبد الرحمن فى هذا الشأن على سبيل فتح الحديث فرآه يتفرس فى عرض الأفق كأنه يرى شيئا جديدا ، فالتفت هو الى هناك فرأى شبعا كأنه رجل يعدو من جهة معسكر الدوق شارل وعليه ملابس الافرنج ، ولكنه لا يحمل راية ولا يبدو من مظهره انه رسول ، فقال هانىء : « ما رأيك فى هذا القادم أيها الأمير ؟ »

قال : « لا أظنه رسولا .. فربما كان جاسوسا أو صديقا » وما أتم كلامه حتى أصبح الرجل على بضعة عشر مترا

منهما فتباطأ في مشيته حتى اقترب وهما لا يكلمانه ، فلما دنا
 منهما قال بلفظ عربى مكسر : « أين الأمير عبد الرحمن ؟ »
 فقال له هانىء : « وما الذى تريده منه ؟ »
 فأوماً بأصبعه الى لسانه مع اشارة النفى ، أى انه لا يعرف
 العريية ، ثم أوماً انه قادم من معسكر أود لأمر خاص بالأمير .

- ٧٦ -

معسكر شارل

فالتفت عبد الرحمن الى هانىء وقال : « لو قلنا له اننى الأمير
 عبد الرحمن لا يصدقنا ، فالأفضل أن ندله على خيمتى ثم
 ندخلها من باب آخر ونوهمه اننا كنا هناك » فأشار هانىء بيده
 الى فسطاط الأمير وأمامه النار ومشى وتبعه الرجل . ومضى
 عبد الرحمن من جهة أخرى حتى دخل خيمته من باب سرى ثم
 دخل هانىء ، وبعد قليل جاءه الحاجب يقول : « ان شابا
 افرنجيا بالباب » فأمره عبد الرحمن بادخاله فأدخله ، وعاد
 لاستقدام الترجمان وخيمته بقرب خيمة الأمير . فلما دخل
 الشاب نظر اليه عبد الرحمن فاذا هو فى مقتبل العمر عليه قيافة
 الافرنج وملامح العرب ، أسمر البشرة ، خفيف اللحية ، صغير
 العارضين لحدائته . فلما جاء الترجمان أمره عبد الرحمن أن
 يسأله عن غرضه ، فسأله فقال الشاب : « أنا لا أخطب أحدا

غير الأمير عبد الرحمن ، واذا كان غائبا فالأمير هانيء «
فلما سمع هانيء اسمه تعجب ، فقال عبد الرحمن بواسطة
الترجمان : « انك في حضرة الأميرين معا .. »

قال : « انى رسول من سالمة .. »
فلما سمعا ذلك الاسم توسما خيرا ، فقال عبد الرحمن :
« وأين هى الآن ؟ .. ومن أنت ؟ »

قال : « هى فى معسكر الدوق أود ، وأما أنا فانى رجل
عربى الأصل وانتهى بى الأمر لى الانتظام فى جند الدوق أود ،
ولى حديث طويل قصته على .. » ثم منذ برهة وجيزة ، وقد قبض
علينا أود وسجن كلا منا فى مكان ، ثم افترقنا ففررت هى من
سجنها وظللت أنا فى المعسكر ، ثم أطلق الدوق سراحى وأحسن
الظن بى وأعادنى الى خدمته ، ثم علم أود من عدلان الأحوال
انها فى دير مرتين فبعث فرسانا لاستقدامها كنت أنا فى جملتهم «
فقال هانيء : « لعلك رودريك ؟ .. »

فبعث الشاب ، والتفت الى هانيء وابتنس ، وقد استأنس
بذلك السؤال وقال : « نعم ياسيدى .. هذا هو اسمى .. »
وكان عبد الرحمن يسمع ذلك ويتعجب ، ونظر الى هانيء
بنظرة استفهام .. فقال هانيء بصوت منخفض : « ان هذا
المسكين حفيد حسان وله قصة تعرفها مريم »
فالتفت عبد الرحمن الى رودريك وقال : « اقصص علينا
سبب مجيئك .. »

قال : « عندما رجعنا من الدير المذكور ومعنا سالمة ذهبنا بها الى خيمة باتت فيها تلك الليلة ، وفي الصباح التالي جاءوا بها الى مجلس الدوق وكنت في جملة الحرس الواقفين ببابه ، ورأيت عنده امرأة جميلة كانت جالسة بجانبه عرفت بعد ذلك انها ابنته لمباجة وانها كانت في معسكر العرب وفرنّت الى أبيها في تلك الليلة ، فلما دخلت سالمة خفت عليها من غضب الدوق ، ولكنني رأيت من اجلاله اياها واحترامه لها ما كاد يذهب برشدي ، وسمعتها تخاطبه بجرأة وقوة وهو يتحمل منها ويستعطفها كما يستعطف المحب حبيته . وقد سمعته يسميها بغير اسمها ويعاتبها وأخيرا أمر بارجاعها الى خيمتها . وكانت قد لاحت منها التفاتة وهي خارجة فرأيتني وعرفتني ، فأومأت الى خلصة أن أقابلها . فاحتلت في مقابلتها تلك الليلة .. فلما رأيتني قالت : « انك عربي وأولى بنصرة العرب مني .. فامض الى معسكر الدوق شارل واستطلع أحواله ، وأخبر أمير جنود العرب بذلك ، لأنهم اذا عرفوا قوة عدوهم هان عليهم أن يحاربوه » وألحت على سرعة الذهاب فخرجت في تلك الساعة والمعسكران متقابلان ، وبت في معسكر شارل وقضيت طول الأمس واليوم في الاستقصاء ، ولما أمسى المساء فررت اليكم كما رأيتموني » فأعجب الأميران بشهامة سالمة ، وتذكر هانيء قولها انها ستكون في معسكر أود أنفع لهم مما في معسكر العرب ، فقال عبد الرحمن : « ما الذي عرفته من أحوال الجند ؟ »

فقال : « أعلم يامولاى ان قائد هذا الجند رجل شديد اسمه شارل (قارله) ابن بين وهو رئيس حاشية ملك نوستريا من العائلة الميروفيجيانية ، ونظرا لضعف ذلك الملك كان حظ شارل من تلك المملكة دوقية أوستراسيا وراء نهر لوار .. لكنه لم يقنع بالدوقية بل طمع فى لبس التاج ، ولذلك كان أود هذا من أكبر منافسيه ولم يستتجد به على العرب الا بعد اليأس الشديد. فلما استعان به ، جرد ما يستطيع جمعه من قبائل الافرنج وما يمكن حمله من العدة والسلاح واستقر فى هذا المعسكر .. » فقطع عبد الرحمن كلامه قائلاً : « كم عدد جنده ؟ »

قال : « لم أستطع معرفة عدده تماما ولكننى علمت انه كثير ، وربما زاد على ضعفى عدد جيشكم ، على ائنى تحققت انه مؤلف من عدة قبائل تختلف لغاتها وعاداتها وأخلاقها ، وان كانت تعد فى الجملة من الافرنج أو الأوربيين (١) ولكنها على التخصيص مؤلفة من شعوب عديدة من جملتهم الاوستراسيون أهل البلاد الأصليون ، والأتوريون ، والبروكتيون ، والطورنجيون ، والهيميون ، وغيرهم ، وعليهم دروع من الجلد وعلى صدور خيولهم دروع من الحديد الثقيل .. أسلحتهم السيوف الطويلة المعتدلة ذات الحدين والفؤوس الحادة ، والرماح المستطيلة ، والدبابيس الثقيلة فى رءوسها حسك الحديد . والجند مؤلف من المشاة والفرسان ، أما الفرسان فانهم قليلون وهم وحدهم

(١) ايزيدور

يرمون النبال .. » (١)

وكان رودريك يتكلم باهتمام ، وعبد الرحمن وهانىء يصغيان لكل كلمة يقولها ، فلما بلغ الى هنا ابتسم هانىء والتفت الى عبد الرحمن وقال : « نحن بلا ريب غالبون لأن فرساننا كثيرون وقد عرفت بسالتهم وخبرت مهارتهم ، وفيهم الرماة وحملة السيوف .. والفارس العربى يفوق ثلاثة من الفرسان الا فرنج ، ولأن مشاتنا فيهم الرماحة والرماة . والنصر من عند الله يؤتاه من يشاء .. »

والتفت عبد الرحمن الى رودريك فرآه يتحفز للنهوض ، فقال له : « وهل عندك خبر آخر ؟ .. »
قال : « كلا يامولاي ولكننى عائد الى معسكر أود بأمر السيدة سالمة .. فهل من رسالة ؟ .. »
قال عبد الرحمن : « هل أمرتك بالرجوع ؟ »
قال : « نعم .. لعلها تطلع على أمر يهكم من هذا القبيل فتبعثنى به .. »

فقال عبد الرحمن : « بلغها سلامنا .. وقل لها اننا حافظون لها هذا الفضل »

فنهض رودريك واستأذن وخرج ، ثم خرج الترجمان .. ومكث عبد الرحمن وهانىء برهة يتداولان فى أمر الجيش ، فقررا الاسراع فى الهجوم ما أمكن قبل أن يستعد الا فرنج للدفاع

وفي اليوم التالي بعد صلاة الفجر تفتح في النفير فاجتمعت جيوش المسلمين ، فجعل عبد الرحمن المشاة في الوسط والفرسان في الجناحين ، وجمع الأمراء على اختلاف قبائلهم ، فجاءوا على خيولهم وعلى رؤوسهم العمائم مكان الخوذ وقد تقلدوا السيوف . فوقف عبد الرحمن أمامهم موقف الخطيب وقال : « اعلموا أيها الأمراء اننا قطعنا اkitانيا كلها والظفر حليفنا ، ولما يئس عدونا من الفوز استتجد بعدوه صاحب أوستراسيا وقد جاءنا بجنده وكفانا مئونة الذهاب اليه . وهذا معسكره وفيه كل قواته ، والذي نصرنا على صاحب اkitانيا سينصرنا عليه . وقد علمنا انه أضعف منا عددا وعدة والنصر موقوف على الصبر ، فاصبروا وتكاتفوا ينصركم الله ، فتفتخون بلادا طالما تشوق المسلمون لفتحها ، ويتم على يدكم ما وعد الله نبيه من فتح العالم ، فيكون لكم الفخر ويخلد لكم الذكر مدى الدهر ، وأنا واثق من انكم فاعلون باذن الله ، والله مع الصابرين »

ولما فرغ من كلامه تقدم هائلا على أذهبه وعلى وجهه امارات البشر وقال وهو يتسم : « ان هذا اليوم يوم الموعد العظيم سنناله بالصبر والجلد . يكفيننا سعادة اننا وفقنا الى أمر طالما تحصر أسلافنا لعدم الوصول اليه وسيجسدنا عليه الذين سيخلفوننا ويتمنون لو شاركونا فيه بدمائهم وأعناقهم . وستروني وأنا أضعفكم عزيمة وأقلكم بسالة بأدلا نفسي في سبيل الله ، فاذا فرزنا فتحنا عالما جديدا . واذا استشهدنا في

الجهاد ، فذلك خير لنا عند الله .. » قال ذلك والعرق يتصبب من تحت عمامته والحماس باد في كل جارحة من جوارحه ثم قال عبد الرحمن : « فعليكم أيها الأمراء أن تستحثوا رجالكم وتوصوهم بالصبر والثبات ، واخبروهم بالفخر الذي سينالونه بعد سيوفهم فضلا عن الغنائم فانها أضعاف ما نالوه حتى الآن » ثم قلا من آيات القرآن ما يزيدهم حماسا وشجاعة . فتقدم كبير أمراء البرابرة وقد تحمس خصوصا بعد أن سمع بكثرة الغنائم وقال : « لا يخفى على مولانا الأمير أن جند البربر من أشد جنود المسلمين بطشا وأكثرهم ثباتا في ساحة الحرب ، وكلهم من الرماة الماهرين فاجعلوهم في المقدمة .. » فأراد عبد الرحمن تشجيعهم فقال : « تفعل ذلك » وأمر أن يتقدم البربر بأقواسهم ، وبعدهم العرب والفرسان في الجناحين ..



وكان شارل من الجهة الثانية يتأهب لمهاجمة المسلمين ، والمخابرات جارية بينه وبين أود في كيفية التعاون على ذلك ، ولكنه لم يكن يتوقع هذه السرعة .. فلما أخبرته الطلائع بإصطفاف المسلمين للحرب رتب جنوده صفوفًا متلاصقة بشكل الكتائب ، فأصبحوا كأنهم سور من الرجال وأكثرهم من الجنود المحنكة ، وقد حاربوا تحت راية شارل غير مرة ، فوقفوا موقف الدفاع ، والرماح ناتئة من بينهم صفوفًا بعضها فوق بعض لتمنع العرب من اختراق ذلك السور المتين .

- ٧٧ -

الحرب

قف معى هنيهة قبل الهجوم ، وانظر الى ذينك الجيشين وهما
يختلفان جنسا ولغة ودينا ، ويتباينان مطعما ومشربا وملبسا
ويتباعدان خلقا وأدبا . اجتمع أحدهما من أقاصى آسيا وافريقيا
من أمم شتى لا يجمعهم غير الاسلام الى بلاد لم يطأوها من قبل
واقليم لم يتعودوا برده ومطره . وقد رأوا أمامهم رجالا دروعهم
من الجلود وعلى رؤوسهم خوذة من الجلد وراياتهم مستطيلة
وعليها شارات النصرانية . وجاء الآخرون من شمال أوربا وهم
قبائل مختلفة اجتمعوا الآن لدفع عدو غريب جاءهم بدين جديد
وشكل جديد ، وقد دهشوا لغرابة ما بدا لهم من اصطفا تلك
العمائم المتراسة فى تلك الساحة الرحبة كأنها بحر يتلاطم
بالأمواج ، تظهر من بينها رايات متشابهة عليها كتابة لا يستطيعون
قراءتها . ولو تفحصت ما يجول فى خواطر ذينك الجيشين
لرأيتهما متضاغنين متشاحنين ، يتضرع كل منهما الى ربه أن
ينصره على الآخر تأييدا للحق . فاذا استعرضت الأسباب التى
دعت الى ذلك القتال لما رأيت سببا غير الجشع الذى انفرد به
الانسان من دون سائر المخلوقات ، فانا لم نسمع بسرب من
الحيوان يجتمع لقتال سرب آخر من نوعه .. واذا تنازع حيوانان

فانما يتنازعان على لقمة ، يلتبس كل منهما أن يسد بها جوعه ،
 فلهما العذر في ذلك الخصام .. وأما الإنسان فإنه يقتل أخاه على
 شيء لا يعبر عنه بغير الوهم ، بل هو لا يقدم على قتله الا على
 شبع . وانما يطلب وهما يعبر عنه بالسيادة أو الشهرة ، وكلاهما
 لا تسدان جوعا ولا ترويان عطشا

طلعت شمس ذلك النهار وهو على تقديرهم يوم سبت من
 شهر أكتوبر عام ٧٣٢ للميلاد (١) ، فبدأ العرب بالهجوم وأمطروا
 الافرنج بالنبال ، وانقضوا عليهم بجيادهم انقضاض الصاعقة ..
 فتلقناهم هؤلأ بالثبات والحزم ولم يتزعجوا عن أماكنهم .
 فانقضى النهار ولم يلتحم الفريقان الا سطحيا وقد تقابلا وتناديا
 وتصايحا ، ولكنهما لم يتفاهما لأن كلا منهما يعد لغة الآخر
 رطانة وألغازا .. وربما كان التفاهم أقرب فيما بين خيولهم مما
 بينهم . ولكنهم تعارفوا بالوجوه ولم ينفعهم التعارف لأنه لم
 يزددهم الا ضغينة وحقدا . ثم افترقوا على أن يعيدوا الكرة في غد
 رجع هانيء وهو منقبض النفس ، وأمر فرسانه أن يعودوا
 الى مضاربهم ، وتحول بأدهمه مجانب الساحة ليطل عليها من أكمة .
 واذا هو بفارس ملتف بعباءة قد ساق جواده نحوه فأمسك
 شكيمة الأدهم وتفرس فيه .. ولا تسل عن دهشته حين رأى مريم
 على ذلك الجواد فخفق قلبه وصاح فيها : « مريم ؟ .. ما الذي
 جاء بك الى هنا ؟ .. »

(١) رومي - الجزء الثالث

فقلت : « لأشاهد حبيبي هائثا يسدد الكتاب ويقل الجيوش ... »

فأحس عند سماعه قولها كأنها طعنته بحربة في صدره ، وحمل كلامها محمل التوبيخ لرجوعه بلا طائل ، وبدا التأثير على وجهه .. وأدركت مريم ذلك فاستدركت قائلة : « لقد رأيتك تصول صولة الأسد ، ولكن الحرب سجال .. على انى كنت أتوقع النصر لكم لو لم تجعلوا أولئك البرابرة في مقدمة الجند ، فهم لا يستطيعون اختراق صفوفنا ، الا فرنج ولن يستطيع اختراقها الا الفرسان ، فلو تقدمت فرسانك وأنت معهم لهددتم شملهم لأن خيالة الا فرنج ضعيفة »

فرأى في قولها حكمة لأنه كان يرى رأيها ، وقد هم بعرضه على عبد الرحمن ، فابتسم ونظر اليها نظرة الحب والاعجاب وقال : « بورك فيك ، فقد عهدت فيك لطف النساء وبسالة الرجال ، ولكننى لم أكن أعرف فيك مهارة القواد .. اتنا عاملون برأيك في غد بإذن الله وهو رأيي أيضا ، ولكننا قدمنا البرابرة مسايرة لهم ، كما تعلمين حالنا معهم .. ولكن لماذا عرضت نفسك للنبال ؟.. لقد كنت أنا أجول في ساحة الوغى أتصورك في الخباء تتوقعين رجوعى ظافرا . فلما رجعنا كما ترين انقبضت نفسى .. ولو رأيتك بجانبى لكانت النتيجة غير ذلك .. »

فأدركت ان علمه بوجودها يزيد به بسالة ونشاطا فقالت :

« فموعدنا غدا »

فقال : « لا .. لا تعرضى نفسك للخطر فانى أخاف عليك من الهواء ، فكيف بالنبال ؟ ! .. »
 فقالت : « لعلى لا أخاف عليك من ذلك ؟ .. ولكن هل اذا أصيب هانىء بسوء أبقي أنا ؟ .. دعنا من هذا الآن ، وان غدا لناظره قريب » . وكانا يتكلمان وفرساهما يسيران حتى أصبحا بجانب المعسكر فهزمت جوادها نحو الخباء وهى تقول :
 « استودعك الله الى الغد .. »

فما زال ينظر اليها وهى تسوق فرسها حتى توارت والظلام يتكاثر ، فتحول حتى بلغ خيمة عبد الرحمن ، وأطلعه على رأيه فوافقته عليه وبعث الى الأمراء ففاوضهم فى الأمر فوافقوه على هذا الرأى ..

قضى عبد الرحمن ليلته قلقا وهو يقدر العواقب ويحسب المخاوف تجنباً للفشل ، وأزمع أخيراً انه اذا خشى على جنده من التقهقر طلب قائد الافرنج للنزال ، فاذا غلبه تشدد العرب واذا غلب فالموت خير من الحياة .. وأما هانىء فقد كان أوسع أملاً وأعظم ثقة بالنصر ، مع انه لم يكن بجهل شأننا من شئون الجند يعرفه عبد الرحمن .. ولكن للشبيبة آمالا تسهل الصعاب وأصبح الصباح فاجتمع المسلمون للصلاة وتلاوة آيات القرآن ورتبوا الجند ، فجعلوا الفرسان فى المقدمة والمشاة فى الجناحين : البربر فى الجناح الأيمن ، والعرب فى الجناح الأيسر، وعبد الرحمن وهانىء وسائر الحاشية فى القلب . ومشت تلك

الحامية نحو الافرنج ، وكانوا قد اصطفوا اصطفاً الأمس
وفرسانهم في الجناحين ، وأخذوا في رمي النبال على العرب
بسرعة وكثرة حتى كادت تحجب أشعة الشمس . ولكن العرب
ظلوا سائرين وهم لا يبالون حتى اذا دنوا من صفوف الافرنج
صاح هانيء في فرسانه ، فأطلقوا الأعنة لخيولهم واستحثوها
وهو على أدهمه في مقدمتهم وقد شرع سيفه . فلم يستطع
الافرنج الوقوف في وجه ذلك السيل فتضعضوا وأمرؤهم
يحرضونهم ويستحثونهم . والتحم الجيشان وقد رجحت كفة
النصر للعرب ، وهانيء يزداد حماساً وبسالة حتى خيل له لما
آنسه من ضعف الافرنج وتقهقرهم انه يطارد أغناماً !
. وبينما هو في ذلك ، اذ سمع صوتاً خرق أحشاءه واستلفت
كل جوارحه ، وقائلاً يقول : « الله درك أيها الأمير » .. فعلم من
غنة الصوت واللثة انه صوت مريم ، فالتفت فرآها على جوادها
وقد التفت بعباءتها واعتمدت على رأسها فوق الخمار ولم يبق
ظاهراً من وجهها غير عينيها وحاجبيها وأنفها وفمها ، وقد تجلت
الحماسة في تينك العينين فأبرقتا . وأخرجت يمينها من العباءة
وفيها سيف مسلول ، وأخرجت يسراها وفيها درقة لطيفة من
الجلد ، وأغارت بجانب هانيء وخلفه والناس يفرون من بين
يديها كأنها قضاء نازل . فأحس هانيء لما رآها في تلك الحال
ان قوته تضاعفت وأيقن بالفوز ، ولكنه خاف على مريم من نبل
تصويبها في مقتل .. على انه أصبح بعد ما شاهده من بشائر النصر

لا يخشى خطرا - والانسان اذا سالمته الحوادث يظن ان الأقدار قد أبرمت معه عهدا ألا ترميه بسوء - وظل هانىء هاجما وهو يستحث رجاله ويمنيهم بالظفر .. وكأن أدهمه أحسن بالنصر فتحس وازداد صهيلا وهو يشخر ويلهث والعرق يتصبب من عنقه على صدره .. وقد تحلب الرغاء من فمه وتساقط على العرق تحت ضرام صدره ، وهانىء كلما سمع صهيل جواده ازداد حماسا . ثم رأى أن يختم أسباب النصر بمبارزة شارل ، فطلبه بين يديه فلم يجده فجعل يتلفت للبحث عنه وهو يمتاز عن سائر الجند بزيه ورايته والصليب على خوذته ، فلمحه عن بعد كأنه بجانب الأمير عبد الرحمن ، فأراد أن يحول شكيمة الأدهم الى هناك فسمع مريم تصيح فيه : « احذر أيها الأمير .. احذر.. التفت .. »

فالتفت وهو يحسبها تحذره من فارس يحاول اغتياله من الخلف ، فلم ير أحدا غير بعض العبيد أو الخدم من سعاة العرب الذين يطوفون ساحة القتال في أثناء المعركة ، لالتقاط النبال المتساقطة واعطائها الى الرماة ، أو لاسعاف فارس سقط سيفه أو قوسه يلتقطونه له ، وقد تعودوا المرور بين قوائم الخيل مرور السهام .. فالتفت هانىء الى مريم ليستطلع سبب ندائها ، فراها تسوق جوادها في اثر أحد أولئك السعاة وهو يعدو أمامها وفي يده خنجر يقطر دما ، وما عتمت أن أدركته خارج المعركة فأطارت رأسه بحسامها فوق يتخبط في دمه ، ورجعت وهانىء مندهش

مما يراه فسمعها تقول له : « تحول عن جوادك فانه مقتول ،
 وخذ هذا الجواد » .. قالت ذلك وهي تتحول عن جوادها ..
 فلم يفهم هانيء قصدها ، ولكنه التفت الى فرسه فرأى الدم
 ينسكب من أخشائه انسكاب الماء من القربة ، فانقبضت نفسه
 فتحول عنه ، وجاءه أحد فرسانه بفرس ركبه وأشار الى مريم
 أن تعود الى فرسها وعادت وهي تقول : « قبح الله ذلك
 الأحول فقد تخلصنا منه » ففهم هانيء ان الأحول تريا بزي
 الساعة واغتال الجواد ، ثم التفت هانيء الى الأدهم فرآه قد
 سقط فأسف على موته أسفا شديدا وتشاءم من سقوطه ، على
 ان أمله في النصر أنساه الجواد فعاد الى الهجوم لئلا يضعف
 رجاله ..

أما عبد الرحمن فكان يراقب الجند من القلب ، فلما رأى
 تغلب الفرسان انشرح صدره وأخذ يتنقل بفرسه على أمراء
 القبائل يستحثهم ويحرضهم ويشرهم ويمنيهم وخصوصا قبائل
 البربر ، لعلهم بشدتهم وشجاعتهم ، اذا هجموا لا يقف في
 طريقهم سور ولا خندق ولا سيل ..

وكان شارل قد أسرَّ في ضميره مثل ما أسرَّه عبد الرحمن ،
 فلما رأى ضعف جنده ، وقد مالت الشمس الى الأصيل ، أخذ
 يبحث عن أمير جند العرب ليبارزه ، فلما رآه عبد الرحمن عرفه
 من الراية التي كانت الى جانبه .. فأقبل شارل على جواده كأنه
 جبل ، وعليه درع من الفولاذ بشكل الحراشف المتراكمة تغطي

صدره وكتفيه وذراعيه ، وتسترسل على فخذه ومقدم ساقيه الى القدمين حتى الركابين .. وعلى رأسه خوذة في قمته صليب ، وقد استرسل من جانبي الخوذة وقفاه نسيج من زرد الفولاذ يغطي خديه وقفاه . وعلى صدر جواده غطاء من الحديد بشكل الدرع معلق بمقدم السرج ، وقد رفع يميناه دبوسا من حديد على شكل الصليب . وأمسك بيسراه راية عليها رسم الصليب .. رسم السيد المسيح مصلوبا وقد أسند قناة الراية الى الركاب الأيسر ..

وأما عبد الرحمن فكانت خوذته العمامة مثل سائر العرب ، وهي مع خفتها ولينها تقى الرأس كما تقيه الخوذة ، وعلى صدره الدرع تحت العباءة وقد تقلد السيف والخنجر . وكان بالاجمال أخف حملا وأسرع حركة من شارل .. وقلما كان يختلف في زيه ومظهره عن سائر فرسانه .. أما شارل فقد كان يمتاز عنهم بخوذته ودرعه ورايته وجواده ، فعرفه عبد الرحمن عن بعد فصاح فيه صيحة أجفل لها جواده ، وأغار عليه وسيفه مسلول بيده ، فتلقى شارل الضربة بدبوسه وأخلى نفسه منها وتقهقر لا عن فرار ، فتبعه عبد الرحمن ثم خشى أن يكون في ذلك التقهقر مكيدة . فتراجع على أن يتأهب لطعنه اذا عاد اليه . واذا هو بالصياح قد علا في الجناح الأيمن من معسكره بين البرابرة وعلت الضوضاء ، وهم يصيحون : « ذهب غنائمنا .. ضاعت جهودنا هباء .. » فالتفت فرآهم يتقهقرون ويتحولون الى الوراء فرسانا ومشاة .

ورأى جيش أود هاجما على مخازن الغنائم فى الخيام (١) فاستعاذ بالله وجعل يصيح فى الهرابرة أن يثبتوا فى مواقعهم وان غنائمهم لا تغنى عنهم شيئا ، فلم يلتفت أحد الى قوله ، وبعد أن كان جند العرب فائزا تخاذل .. واغتتم الافرنج فرصة ذلك التخاذل فأعادوا الكرة ، ولولا هانىء وفرسانه لانكسر العرب شراً كسرة



ولكن هانثا لما علم بما أصاب البرابرة ، بذل جهده فى تثبيت رجاله ومريم معه ، وقد نزع العمامة والخمار عن رأسها وألقت العباءة عنها وظهرت بثوبها النسائي الأسود ، وقد استرسل شعرها على كتفيها وخديها وهجمت والسيوف مشر بيدها ، وقد انحسر كمها عن زندها وهى تقول : « عار على العرب أن يفروا كما فر البربر .. ان هؤلاء يطلبون الغنائم ، وأما أنتم فتطلبون الجهاد وغنيمتكم الفخر والنصر والحسنى فى الدنيا والآخرة » وكان الفرسان يحسبونها رجلا ، فلما تبينوا أنها فتاة وشاهدوا جمالها وهيبتها مع تلك البسالة والغيرة ، خيل لهم انها ملاك نزل من السماء لنصرتهم ، فتحمسوا وثبتوا فى هجومهم ، وصمموا على التفانى تحقيقاً لندائها ونداء هانىء ، ولكن الظلام فصل بين الجيشين فنفخ فى الأبواق فتراجع كل منهما الى معسكره

- ٧٨ -

بعد المعركة

فلما تراجع الجيشان تحول هانيء الى مكان عبد الرحمن فلم يجده ، فسأل عنه فلم يلبثه أحد بخبره ، فأركض فرسه للبحث عنه هنا وهناك .. فلم يقف له على أثر ، فأمر فرسانه بالرجوع الى أماكنهم وترجل هو ومريم عن فرسيهما وجعللا يطوفان ميدان المعركة يتفحصان القتلى على نور الشفق . ثم طلع القمر فأضاء تلك البقعة المغطاة بجثث الناس وفيهم الميت والجريح والعاجز ، وبينهم الأفراس في نحو ذلك بين صهيل وشخير وأنين وزفير ، فتعقدا كل مكان فلم يجدا عبد الرحمن . واذا هما بصهيل يشبه صهيل فرسه عن بعد فأجفلا واستبشرا ، فالتفتا الى أطراف تلك الساحة ، فرأيا في أحد جوانبها مما يلي الجنوب فرسا واقفا وهو يصل ويفحص الأرض ، فصاح هانيء : « هذا فرس الأمير » وأسرع اليه ومريم تتبعه حتى وصل الى الجواد فرآه واقفا وأمامه شبح ملقى ، عرفا انه عبد الرحمن . فأسرع هانيء الى يده يجسها فإذا هو جثة هامدة ، وقد استلقى على ظهره ويسط ذراعيه وعيناه شاخستان نحو الشرق كأنهما تستقبلان نور القمر عند طلوعه . وشاهدا سهما مغروسا في عنقه فعلما انه سبب وفاته . فجثا هانيء عند رأسه وصاح : « وا

أسفاه عليك يا أميري ووالدي ويا أخي ويانصيري ، بل يانصير المسلمين . ولكنك فزت بجنات النعيم لأنك قتلت مجاهدا فحسب أن ألحق بك عاجلا »

وكانت مريم واقفة تنظر الى تلك الجثة وتأسف لقتل ذلك القائد ، لكنها كانت تتعزى ببقاء هانيء حيا وترجو له النصر ، فاذا فاز بالفتح أصبح أكبر قواد ذلك الجند . وقد نهر سمعها من تمنيه الاطاق عاجلا بعيد الرحمن ، فقالت : « دعنا من الندب فانه يليق بالنساء ، وهلم بنا الى المعسكر ندير شئون الجند قبل الفشل . واذا فزنا في الغد - ونحن فائزون ان شاء الله - ففي ذلك تعزية عن كل خسارة » فاستصوب هانيء قولها وقال : « فلا بد لنا من دفنه » ..

قالت : « متى وصلنا الى المعسكر أرسلنا من يأتي بالجثة ثم تصلون عليها وتدفنونها » . قالت ذلك ومشى وهي لا تزال مسرولة الشعر مكشوفة الذراعين لا تبالى بما في صفاء ذلك الليل من برد الخريف . ومشى هانيء والسيف يجر وراءه وقلبه في شغل تتنازعه همائل الفشل والأسف والأمل ، وتظلمه غياهب الحب والوجد ، ومريم تسير الى جانبه وهي في مثل حاله ، وقد وليا وجهيهما نحو المعسكر وساحة المعركة الى يمينهما ومعسكر أود الى يسارهما وليس في تلك الساحة أليس ، ولا يسمعان فيها غير الأنين والزفير ، وربما شاهدا بعض العبيد يبحثون في الجثث يلتقطون ما بينها من سلاح أو آنية أو حلى . . ولاحت

من هانيء لفتة الى جثة بين يديه عليها ملابس الافرنج كاد يتعثر بها فأراد أن يعرج عنها فرأى في وجهها شيئاً يعرفه ، فتفرس فيها فاذا هي جثة رودريك ، فبغت وقال : « ألا تعرفين هذا الوجه يا مريم ؟ »

فنظرت اليه وقالت : « كلا .. »

قال : « هذا رودريك حفيد حسان ، وكان قد حمل الينا بالأمس رسالة من والدتك أنبأتنا فيها بأمور كثيرة عر أحوال هذا الجند ساعدتنا على حربهم اليوم . وأخبرنا انها عند أود في خير واکرام . ثم عاد مسرعا اليها لعلها تحتاج اليه في مهمة أخرى . فما الذي جاء به الى هنا ياترى حتى قتل ؟ .. »

صاحت مريم : « أرى في يده شيئاً كالكتاب أظنه رسالة من والدتي .. »

قالت ذلك ومدت يدها لاجراج الكتاب من قبضته ، فلم تستطع كأنه قابض عليه بقوة ، فارتعشت جوارحها لأنها تصورت الرجل حيا . فتقدم هانيء ونزع الكتاب بعنف وهو يقول : « يظهر انه مات منذ هذا الصباح » وناول الكتاب لمريم وهو لفافة من جلد فصاحت : « رسالة .. رسالة من والدتي فلنقرأها »

فوقف هانيء الى جانبها ، وأخذت تقرأ في ضوء القمر :

« الى الأمير عبد الرحمن سلام — أما بعد — فاني أكتب هذا الكتاب اليك عند الفجر والناس نيام ، وقد بت بالأمس قريرة العين بما شاهدته من شجاعة العرب وتجددت آمالي بالنصر . ثم

بلغنى تدبير دبرته تلك المرأة المسماة ميمونة اذا وفقت الى اقامه كانت العاقبة وخيمة — لا سمح الله — وذلك انها اجتمعت فى هذا الليل بوالدها وأخبرته بما عليه رجال البربر من ضعف الاسلام والتعلق بالغنائم ، وأشارت عليه اذا نشبت الحرب فى هذا اليوم وخشى تقهقر الافرنج أن يبعث بشرذمة من رجاله يسطون على مستودعات الغنائم فى معسكركم ، وأن يبعث أناسا عليهم ملابس العرب يصيحون فى جندكم ، ان الغنائم قد أخذت . وسيتولى ذلك عدلان البربرى الأحول لأنه يستطيع التنكر فى مظهر عربى ، وتكفل — قبحه الله — بقتل أدهم الأمير هائىء لتضعف الفرسان وهم أقوى جنودكم .. علمت بهذا التدبير من الشاب رودريك وسأرسل هذا الكتاب معه ، ولكنى أتوجس خيفة عليه من عدلان لئلا يفعل به كما فعل بجده ، أو ربما أصابه نبل فى أثناء ذهابه . ولا حيلة لى فى تلافى ذلك اذ لا بد من ابلاغ هذا التدبير اليكم بالوسائل الممكنة .. فاذا أدرككم كتابى هذا فى حينه ونفغكم ما فيه فانى ضامنة لكم النصر بإذن الله . والا فانى أخاف عليكم العاقبة . واذا أخفق هذا المسعى — لا سمح الله — وقدر النصر للافرنج فلن تقوم للعرب قائمة فى هذه البلاد . أما أنا فقد أتممت المهمة التى ابتدئت لها ، ولا حاجة لأن أوصيك بمريم فانها فى رعايتك وان كنت لا أرضى لها البقاء اذا انكسر العرب ، ولا هى ترضاه لنفسها . واذا فشل العرب ولم يقطعوا نهر لوار فلا قيمة للحياة . ولذلك فلا تطلبونى فانكم لن تجدونى فى أى مكان ..

والملتقى فى الدار الآخرة فأنها تجمع شتات المحبين ... والسلام»
 . وما أتت مريم على آخر الكتاب حتى وقف شعرها وارتعشت
 أناملها وغشى الدمع عينيها والتفتت الى هانىء ، فاذا هو مطرق
 يفكر ، ثم رفع بصره اليها وقال : « قد علمت الآن سر الانقلاب
 الذى أصاب جنودنا بعد أن كدنا نهزم الأعداء »

فقلت : « لعن الله لمباجة وعدلان خادمها ، اذ لولاهما لكنا
 الآن فى معسكر شارل وفى الصباح تقطع ذلك النهر .. »
 فقال : « العيب يا مريم مرجعه الى جنودنا فانه متفرق الكلمة
 متباين الأغراض ، وخصوصا أولئك البربر فانهم لا يفهمون من
 الحرب غير السلب والنهب ، ولولا دراية الأمير عبد الرحمن
 — رحمه الله — وحسن أسلوبه وسعة صدره ما استطعنا
 الوصول الى هنا .. وقد مات عبد الرحمن الآن ولا نعلم ما
 يصير اليه أمرنا بعد ... »

فقلت : « نعم .. ان مقتل هذا الأمير خسارة كبرى ولكننا
 لا ينبغي أن نلوء تحت هذا العبء ، وانى أقدم نفسى لما تتدبنى
 اليه فى هذه الحرب »

قال : « يكفى منك تحريض الأمراء على الاتحاد والصبر
 فقد رأيت من تأثير أقوالك فى وقعة اليوم ما أدهشنى .. »
 قالت : « لك على ذلك .. لأنى ان لم يفز هذا الجند فلن
 يكون لى بقاء .. تلك هى وصية والدى فى هذا الكتاب .. »
 فقال : « وأنا .. هل أبقى وحدى ؟ .. ولكنى أرجو ألا

تعرض لهذه الأخطار . هلم بنا الى المعسكر .. » . قال ذلك ومشى ، فمشت مريم وهى لا تزال حاسرة الرأس مسترسلة الشعر لا تنتبه لنفسها .. حتى اذا اقتربا من المعسكر ، لم يسمعا جعير الجمال ولا صهيل الخيل ، ولا رأيا نارا ولا حركة ولا شيئا يدل على الجند مع ان الخيام كانت لا تزال باقية كما هى ، فأسرع الى فسطاط الأمير الكبير فاذا هو خال خاو . فخرجوا منه الى ما يجاوره وطلبا خيمة الأمير هانىء فوجداها خالية . وبالجملة فقد كان معسكر العرب كأنه خيام منصوبة فى الصحراء لا انسان فيها ولا دابة حتى ولا حشرة

فقضيا برهة يتمشيان وهما صامتتان من الدهشة والاستغراب ثم تكلم هانىء قائلا : « ما الذى أراه ؟ .. أين ذهب الجند ؟ .. أين الخدم ؟ .. أتظنينهم ذهبوا نحو الأخبية ليجعلوا هذا النهر الصغير ترسا لهم فى الدفاع ؟ .. »

قالت : « ربما فعلوا ذلك .. هل نذهب الى الأخبية ؟ .. » قال : « نذهب .. » وخرجا من بين الخيام كأنهما خارجان من مكان خرب حتى عبرا النهر الصغير الى الأخبية فلم يجدا فيها أنيسا . فقال هانىء : « اذا فرضنا ان البربر جبنوا وفروا ، فأين العرب ؟ .. بل أين النساء والأولاد ؟ .. ما أسرع نهوضهم وفرارهم .. يظهر ان وجود عبد الرحمن وحده كان جامعا لهم .. فلما مات ، ماتت قلوبهم .. »

ثم أطرق حين لا يتكلم ، وقلبه يكاد ينقطع حنقا ويأسا ، لا يدرى

ماذا يقول ، وقد حدثته نفسه بأمور كثيرة أكبر أن يذكرها .
 وكانت مريم تسير بجانبه لا تقول شيئاً ، وهى تكتُم أمراً أجَلَّت
 التصريح به حتى تسمع رأيه فيه . وبعد المسير مدة على مثل هذه
 الصورة بين الأخبية والخيام وكل منهما غارق فى أفكاره يتعثر
 بالاطناب والأوتاد ، قال هانىء : « يجب علينا قبل كل شئ أن
 نوارى جثة أميرنا - رحمه الله - لئلا تذهب فريسة العقبان أو
 يثمل بها الأعداء » . قال ذلك وتحولوا نحو ساحة المعركة فعرفا
 مكان الجثة من سهيل الجواد ، فتعاونوا فى حملها على الفرس الى
 حفرة فى مكان منفرد ، وضعوها فيه وأهالا عليها التراب ولم ينبس
 أحد منهما ببنت شفة . فكان لذلك الدفن على بساطته هيئة ووقار
 بما كان يضطرم فى قلوبهما من نيران الحزن والأسف المريرين ،
 فضلاً عما كان يضطرم من نيران الحب ولواعج الغرام ..

- ٧٩ -

اللقاء الدائم

فرغاً من الدفن وهما صامتان ، وكان القمر قد تكبد السماء
 وأصبح نوره مثل نور النهار فقالت مريم : « وما العمل
 يا هانىء ؟ » ..

فتنهده هانىء وقال : « لو كان معى خمسون رجلاً لهاجمت
 بهم هذين المعسكرين ، على ان وحدتى لا تمنعنى من الهجوم

ولو كان فيه فنائي ، ولكنني أخاف على مريم اذا أنا قتلت أن يلحق بها عار أو اهانة .. »

فالتفتت اليه وقالت : « وهل تبقى مريم بعدك ؟.. ذلك لا يكون وقد قرأت وصية والدتي (وتنهدت) فانها تحب الى اللقاء بها في الدار الآخرة ، ولا أشك في أنها هناك الآن .. فاذا كنت تحب مريم وتريد أن تطمئن على حياتها وعزها ، فاسمح لي أن ألحق بوالدتي اذ لا فائدة من بقائي . وأما أنت فان الاسلام يحتاج اليك والجهاد يفتقر الى سيفك وذراعك .. »

فلما سمع كلامها هاج غرامه حتى أنساه موقفه فقال : « ان الاسلام مفتقر الى مثلك أكثر من افتقاره الى مثلي .. انك ابنة الملكين فقد حزت فضائل الجنسين .. والله لو صبر أولئك الجبناء وكنت أنت رائدهم في حومة الوغى لفازوا وقطعنا نهر لوار .. آه من هذا النهر .. لقد امتنع علينا عبوره فامتنع اجتماعنا .. أتطيعيني يا مريم ؟ »

قالت : « اني أطوع لك من بنائك الا اذا أردت بقائي بعدك » قال : « لقد فشل جندنا ، وفرء من بقى منا حيا .. وفي الفرار بقاء ترتاح له نفس الجبان ، وقد اجتمعنا الآن ولا رقيب علينا وكل منا يريد البقاء ، ولا بقاء الا بالفرار ، ونفسى تأبى ذلك . ولا يخفى عليك يامنيتي ان فؤادينا قد ذابا تطلعا الى اليوم الذي تقطع فيه ذلك النهر لأن في قطعه اجتماعنا فما الذي يمنعنا من الاجتماع فيه الآن ؟ .. »

فقطعت كلامه قائلة : « في جوفه ؟ .. »
فقال : « بل في قاعه .. واذا كنا معا فلا أبالي أين نكون ولا
كيف نكون » . قال ذلك ووثب حتى ركب جواد عبد الرحمن
وأمسك بيدها فأردفها وراءه وأركض الفرس وهي ممسكة
بعباءته ، واتجها نحو نهر لوار خارج مدينة تورس حتى وصلا
الى ضفة من الرمال تتكسر عليها مياه النهر بعد تموج ضعيف ،
وسطح النهر يتلألأ في ضوء القمر ويتلون ، فترجلا عن الفرس
وأطلقا له العنان فعاد الى المعسكر . وظلا هناك منفردين والجو
هادى ساكن لا يسمع فيه غير خرير الماء ونقيق الضفادع : فخلعا
نعالهما ومشيا على الرمل المرطب بالماء ، ونزع هانىء عمامته
وعباءته فأصبح حاسر الرأس والذراعين مثل مريم ، وله ضفيرة
كانت العمامة تغطيها فاسترسلت مثل ضفائر مريم . فمشيا على
الرمل حتى أصبح تكسر المياه يصيب كعبيهما فوقها هناك ومد
هانىء يديه الى مريم ، قبض بهما على يمانها .. فأحس ببرودتها
ولينها ، ولم يشعر بقشعريرتها لانشغاله بقشعريرته . فضغط على
يدها بكلتا يديه فارتعدت فرائصها جميعا . ولم تعد مريم تستطيع
الوقوف لاصطكاك ركبتها ، فأسندت رأسها بيسراها على كتف
هانىء ، فأسكرتها رائحة عرقه كما أسكرته رائحة طيبها ولمس
شعرها وجهه واشتبك شعر لحيته ، فأحس بقشعريرة دبت في
جسمه ديب النمل بين اللحم والعظم .. وخشى لشدة تأثيره أن
تخونه قدماه فيقع فأبقى يسراه قابضة على يمانها ، وأدار يمانه

الى كتفها وتساندا وهما صامتان والهوى يتكلم . ثم رفعت رأسها عن كتفه ونظرت في وجهه ، وعيناها ذابلتان من شدة التأثر وقد غشيها الدمع وقالت بصوت مختنق: «أتحبني يا هانىء؟» فأعاد يده الأخرى فأمسك يمينها بيديه وأدناها الى صدره ، وقد غلب عليه الحب ونسى مواقف القتال وقال : « نعم .. أحبك .. أحبك » قالت : « آه ، ما ألطف الحب وما ألهه .. » قال : « لا لذة بغير الاجتماع .. هل فى الدنيا اثنان يتمتعان بألذ مما نحن فيه الآن ؟ .. ضمينى يا مريم يا حبيبتى .. ضمينى الى صدرك .. ألا تشعرين بخفقان قلبى ؟ .. انى أشعر بدقات قلبك » . قال ذلك واحدى يديه فوق كتفها والأخرى قابضة على يدها ..

أما هى فرفعت بصرها الى السماء فرأت القمر مشرقا اشراقا باهرا ، وعلى وجهه رسم يشبه رأسين متقاربين كأنهما حبيبان يتعانقان فقالت : « انى أرى صورتنا قد ارتسمت على وجه القمر .. انظر يا هانىء ، ألا ترى وجهين مثل وجهينا ؟ .. » قال : « لا أرى فى الدنيا من يشبهنا ، ولا من حال تشبه حالنا » وكانت مريم قد جفت دموعها فلما سمعت قوله تذكرت حالها فقالت وهى تغص بريقها : « ان حالنا عجيبة يا هانىء .. تمنينا الاجتماع وسعينا اليه فامتنع علينا ، فلما التقينا ساء لنا الاجتماع خوفا من الفراق »

فأجابها وبصره شاخص فى وجهها قائلا : « انى لا أرى

ما يشفى غليلي بعد طول التحسر الا أن نجتمع اجتماعا متواصلا لا يتخلله فراق .. ولا يكون ذلك الا بالموت معا . هل تموتين معي يا مريم ؟ »

فالتفتت اليه ويدها ملتفة بيده الى الكتف وعيناها ذابلتان ولو لم تتكلم هي لتكلمتا ، ثم قالت : « الموت معك حياة يا حبيبي .. يا حبيبي .. آه ما ألد هذا اللفظ ، وكم كنت أتلذذ بتكراره في خلوتي وأتحسر على بسماعه من فمك .. »

قال : « صدقت ... ولا يعرف لذة هذا اللفظ غير المحبين . وقد كهانا من حبنا المتبادل التمتع بهذا اللفظ لأننا مقيدان بعهود لا تجيز لنا ما وراءه ، ولو كتب لنا النصر وقطعنا هذا النهر لكان اجتماعنا أطول وملذاتنا أكبر .. على اننا لم تكن مع ذلك نأمن الفراق ونكد العيش ، والدنيا تأتي بالعجب العجيب .. أما الآن فاذا متنا متعاقبين فكأننا عشنا الدهر معا ولم ينقص عيشنا فراق .. »

قالت : « عجل اذن ولا تطل بنا الوقوف لئلا يحدث ما يحرمنا هذه السعادة » . قالت ذلك ومدت يدها الى جيبيها وأخرجت المحفظة ونظرت اليها لحظة ثم قبلتها وضمتها الى صدرها وبكت وهي تقول : « أماء .. يا أماء .. وا لهفى عليك ما كان أشقاك .. قضيت العمر في التكتم والتستر والحذر .. ثم ذهبت قتيلة ذلك السر محافظة على عهد حبيبك واكراما لوحيته . ولو عرفت ذلك من قبل لاستغربت منك هذا التعلق ..

وأما الآن فقد ذقت طعم الحب فلا ألومك ، بل أنا فاعلة مثل فعلك .. وها أنا ذا أتبع وصيتك » ثم أعادت المحفظة الى جيبها وهي تقول : « هذا سرّك ذاهب معنا الى غياهب الأبدية » وكان هائىء يسمع كلامها وهو يرقب حركات شفيتها وعينيها ويشاركها بكل جارحة من جوارحه . فلما فرغت من قولها أشار بعينه الى جسمها الغض وقال لها : « أليس غبنا أن تذهب هذه الأعضاء طعاما لأسماك البحر ؟ »

فقطعت كلامه قائلة : « ذلك خير لها من أن يفترسها وحوش البر الذين يسمون أنفسهم بنى الانسان .. عجل يا هائىء قبل أن يغلب علينا حب البقاء .. »

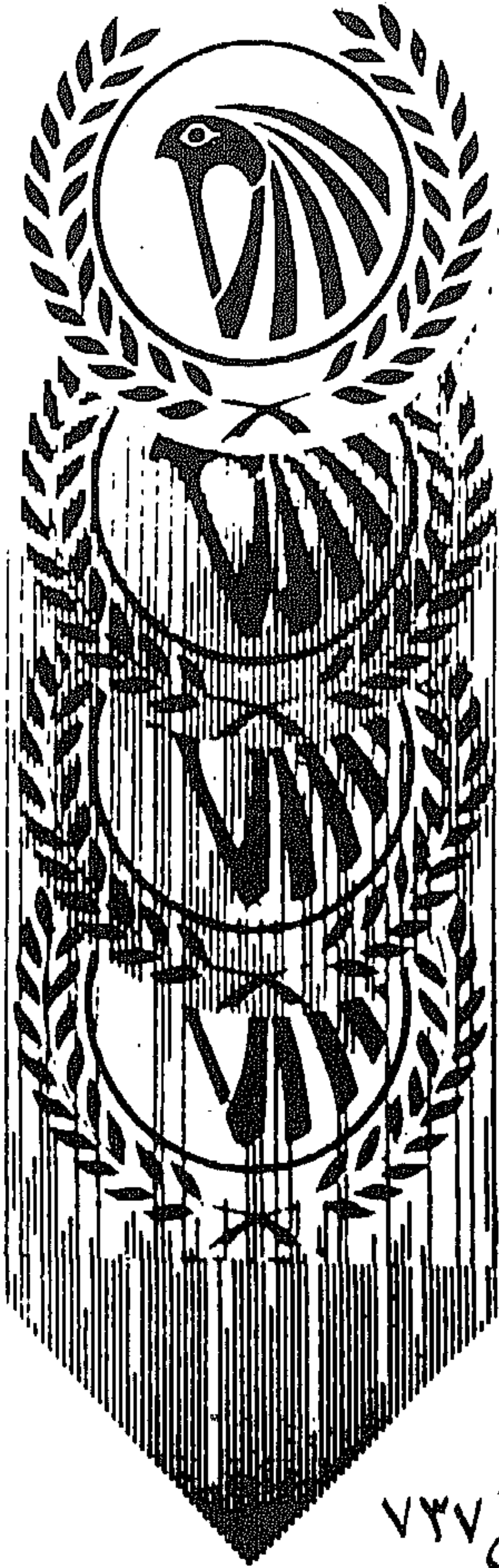
فمد يديه ومدت يديها ، وتخاصرا من جانب وتماسكا من الجانب الآخر .. ومشيا على الرمل حتى غرقت أقدامهما فى الماء فأحسا ببرده وبانزلاق الرمل تحت الاخمصين . وكانا كلما انغمرا فى الماء ازدادا تعانقا وازدادا تجاذبا حتى أصبحا جسما واحدا ، وغطسا فى الماء وكل منهما يتلذذ بذكر اسم الآخر .. وبعد دقيقة بدا بعض الرأسين ، والشعر سابح على سطح الماء ؛ ثم غطسا الى قاع النهر ولم يعد يعلم مصيرهما الا الله

أما جيش الافرنج فانهم أصبحوا فى اليوم التالى وهم يتوقعون هجوم العرب عليهم ، فرأوا الأرض قفرا والخيام خالية ، فاستولوا على ما كان باقيا فيها من الغنائم .. وكان ذلك آخر عهدهم بالعرب هناك على ما دونه التاريخ ..

طبع بمطابع
مؤسسة دار الهلال

مصر للطيران

علم مصر في كل مكان



أكثر من

٥٠

سنة خبرة

مصر للطيران

في خدمتكم

أوروبا - أفريقيا - آسيا

الجامبو ٧٤٧ - إيرباص - بوينج ٧٠٧ - بوينج ٧٣٧

شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار

منتجائنا دائماً في خدمة
الأناقة والذوق الرفيع



أقمشة
• القمصان
المقلم
والسادة
والفلافل
• البيجامات

Bibliotheca Alexandrina



0401360



أقمشة منسوجة بخيوط معدنية